

ةقورسملا ةفرغلا



افونازاك ريڤور

ةياور



ملخص

باريس، خريف 1920. كوجيرو ماتسوكاتا، أُرستقراطي ياباني مولع بالفن الغربي، يقتني لوحة «الغرفة في آرل» لفان غوخ. هذه اللوحة الاستثنائية تُثري مجموعة رائعة تكوّنت على مدى عقود بحب واحترام للفن الأوروبي. لكن الحرب العالمية الثانية ستقلب مصير هذه المجموعة رأسًا على عقب. ففي عام 1944، وفي مكاتب الحكومة الفرنسية المؤقتة، جيكت واحدة من أكثر عمليات نهب الأعمال الفنية تطورًا في التاريخ الحديث. وبعد ثمانين عامًا، يكتشف الأستاذ بيير برتبيه، المدفوع بعطشه للعدالة، الآليات الخفية لهذا النهب. مسلّحًا بعزمته وحدها، يخوض معركة عملاقة ضد الآلة الدبلوماسية الفرنسية. وقضية ماتسوكاتا، كما تُروى في هذه الرواية المستوحاة من أحداث حقيقية، تُثبت أن العدالة لا تُقاس فقط بالحصول على استرداد ملموس، بل أيضًا وقبل كل شيء بالتحويل التدريجي في النقاش العام. فأحيانًا يكون طرح الأسئلة الصحيحة بمثابة أهم من الحصول فورًا على الإجابات الصحيحة.

عن المؤلف

روبير كازانوفّا أستاذ متقاعد معتمد وعضو في جمعية أهل الأدب الفرنسية (des Sociétés des Lettres de Gens). محام شغوف بتاريخ المجموعات الفنية، كرّس سنوات طويلة لدراسة استيلاء الدول على الأعمال الفنية. رئيس المنظمة غير الحكومية «استعادة دولية» (International Restitutions)، نشر العديد من الأعمال الأكاديمية حول هذا الموضوع.



الغرفة المسروقة

روبير كازانوفاس

casanovas@hotmail.com

الإيداع القانوني سبتمبر 2025 – كتاب إلكتروني ونسخة ورقية

© 2025 كازانوفاس. جميع الحقوق محفوظة

ISBN : 978-2-488999-50-2

www.international-restitutions.org

الغلاف: زيت على قماش «غرفة آرل» لفنسنت فان غوخ



النسخة العربية

طبعة مُترجمة عن الطبعة الفرنسية الثانية المُنقَّحة

تنبيه

هذه الرواية التاريخية عمل خيالي مستوحى من وقائع حقيقية. حُفظت أسماء الشخصيات المتوفاة. عُدلت أسماء الشخصيات لا تزال على قيد الحياة. أُضيفت بعض الشخصيات الخيالية لاتساق السرد. بُسّطت آليات الهيئات الدولية المذكورة في هذه الرواية (مجلس حقوق الإنسان التابع للأمم المتحدة، إجراءات البلاغات).

حُرّرت النسخة الأصلية بالفرنسية، وُترجمت إلى عدة لغات أجنبية. قد تحتوي النسخ المترجمة على أخطاء لغوية أو تحريفات في المعنى أو تقريبات.

فهرس المحتويات

استهلال

الفصل الأول: تتراكم الغيوم

الفصل الثاني: مؤامرة 1944

الفصل الثالث: تضيق الخناق

الفصل الرابع: المفاوضات السرية

الفصل الخامس: مهزلة الاستعادة

الفصل السادس: سنوات النسيان

الفصل السابع: بعث معركة

الفصل الثامن: المعركة الدولية

الفصل التاسع: رد الفعل الفرنسي

الفصل العاشر: الطريق المسدود التشريعي

الفصل الحادي عشر: المعركة الطويلة

خاتمة

الغرفة المسروقة

استهلال

باريس، خريف 1920

أغرق أكتوبر باريس تحت سماء منخفضة رطبة. رفع كوجيرو ماتسوكاتا ياقة معطفه، بدلة إنجليزية أنيقة من ثلاث قطع كان يعتز بها. أبطأ خطاه، باحثاً في الحقائق عن تلك الفسحة التي كانت تسبق مواعيده المهمة.

مسار غريب كان مساره. ابن رئيس وزراء ياباني سابق، ثروة بُنيت في صناعة السفن، خريج جامعة ييل... وها هو يتجول في صالات العرض الباريسية كطفل في محل حلوى. لم تكن أمه لتفهم شغفه أبداً. «لماذا تهتم بفن هؤلاء البرابرة الغربيين؟» قالت له ذات يوم، بقسوة غير واعية تخص نساء الأرستقراطية في عصر ميجي اللواتي أتقن فن الإذلال كما يتقن غيرهن استخدام المروحة. ماتت دون أن ترى أنه ربما كان على صواب، ودون أن تفهم أيضاً أن مجموعته كانت طريقته الخاصة لحل التناقض الذي كان يمزقه: أن يكون يابانياً في عالم يتغرب، وأن يكون صناعياً حديثاً يطارده الجمال التقليدي.

كان دفتر أحمر صغير يثقل جيبه، حيث كانت كل مقتنية تُدَوَّن فيه بعناية دقيقة: علامة الكمالي العاجز عن التخلي، الذي حوّل هشاشته إلى قوة عبر التراكم المنهجي. أكثر من ألف لوحة الآن، يعرف عن كل واحدة منها كل تفصيل، كل قصة، عن ظهر قلب — ذاكرة استثنائية كانت تجعله يتألق في المجتمع، لكنها كانت تمنعه من نسيان أصغر إخفاق. واليوم، كان بول روزنبرغ يعده بشيء استثنائي.

كانت صالة العرض في شارع لا بويسي تفوح منها رائحة الورنيش والورود الذابلة. كان لروزنبرغ عادة وضع باقات الزهور في كل مكان، وكأنه يريد أن يجيب، عبر الألوان، على اللوحات المعروضة. رجل رفيع الذوق، لكنه حسّاب، أجاد تحويل ذوقه الأصيل إلى أداة للسلطة الاقتصادية.

— أه، سيد ماتسوكاتا! صاح التاجر. أرجو أن تكون في مزاج سخي. ارتسم على وجه روزنبرغ ابتسامة كبار التجار الساحرة. كان ماتسوكاتا يقدّره لصراحته. على الأقل، معه، لا مظاهر زائفة. كان الجميع يعرف أن هذا يأتي ليشترى، وذلك يعرف أنه يبيع. كانت الوضوح القاسي للعلاقات التجارية يريحه من نفاق الصالونات الباريسية حيث يتظاهر الجميع بالاهتمام لهم إلا بالفن الخالص.

— أرني إذن هذا الكنز، أجاب ماتسوكاتا، وهو يخفي بصعوبة نفاذ صبره الذي كان يلتهمه.

— فان غوخ. الغرفة في آرل. النسخة الثالثة.

دوّى الاسم في الهواء كصفعة سوط. شعر ماتسوكاتا بشيء ينقبض في صدره. فان غوخ... لطالما كان له ضعف تجاه هذا الهولندي المجنون، وكان هذا الاقتتان يقلق جامع التحف الذي كان عليه. كان فنسنت يجسّد كل ما كان كوجيرو يمنع نفسه منه. الانطلاق، الجنون الإبداعي، اللامبالاة بالحكم الاجتماعي. طريقته في رسم العزلة كانت تخاطب رجلاً ظل وحيداً في جوهره. صناعي يكذّس الفن ليملاً فراغاً لم تستطع الأعمال التجارية سده.

كانت اللوحة هناك، موضوعة على حامل، مضاءة بضوء صالة العرض الخافت. الجدران الزرقاء، الأرضية الحمراء والبيضاء، ذلك السرير الذي يدعوك للاستلقاء... اقترب ماتسوكاتا. لم يكن من هؤلاء الجامعين الذين يلمسون، لا، كان ينظر، بتمعن شديد. كانت رزائنه الجسدية تكشف عن تربيته اليابانية، لكنها كانت تكشف أيضاً عن خشية، خشية أن يدنّس بلمسته ما بدا له مقدّساً. كان الفن بالنسبة إليه ملاذاً.

— رسمها لأمه، همس روزنبرغ، الذي كان يعرف نقاط ضعف زبائنه. تخيل... فنسنت، وحيثاً في مستشفى في سان ريمي، يرسم غرفة نفية موجهة إلى المرأة التي منحتة الحياة.

كان كوسابورو هيوكي، أقرب مستشاريه — كان ماتسوكاتا يحيط نفسه بعدة خبراء، لكنه كان يترك للمؤرخ الفني يوكيو ياشيرو المسائل التقنية الأدق — يرافقه في ذلك اليوم، فتتحنج بهدوء. رجل ظل بالفطرة كما بالضرورة، بنى مسيرته على قدرته على تخمين رغبات سيده غير المعلنة، محوِّلاً عقدة نقص ولدت من أصوله المتواضعة إلى سلاح. كان ولاؤه مزيحاً من امتنان صادق وحساب دقيق: خدمة صاحب رؤية كانت تتيح له المشاركة في العظمة بالوكالة.

— لها روح خاصة، قال باليابانية، مختاراً هذه اللغة لخلق حميمية أمام التاجر. يمكن أن تكون القطعة المركزية في متحفكم.

أوما ماتسوكاتا برأسه. متحفه... ذلك الحلم الجنوني بعض الشيء بأن يمنح اليابان نافذة على الفن الغربي كان يكشف عن حقيقته. ممزقاً بين عالمين، كان يأمل أن يوفق بينهما بالانسجام. كان مواطنوه يعتبرونه غريب الأطوار، لكن عدم فهمهم كان يغذي أيضاً فخره بأن يكون مختلفاً. كان في ماتسوكاتا ولع بالتحدي يقترب أحياناً من الغرور المفرط.

— أتعلم، يا روزنبرغ، هذه الغرفة... تذكّرني بغرفتي في كيوتو، حين كنت طفلاً. البساطة نفسها، السعي إلى السلام نفسه. كان فان غوخ يبحث عن ملاذ. وأنا كذلك، بطريقة ما.

بوح كهذا، نادر عند شخص عرف عادة بضبط نفسه، كشف عن ثغرة الجامع. خلف الصناعي المتمكن كان يختبئ طفل جريح لم يتجاوز قط قسوة تربيته. أصبح الفن لغته للمشاعر، الأرض الوحيدة التي كان يسمح فيها لنفسه بالضعف.

كان التاجر يعرف أنه أمسك بزبونه. كان روزنبرغ بارعاً في فن فك رموز الشروخ النفسية عند مشتريه. خلف رقيّه كان يختبئ نفعية تخط بين السخرية والفتنة في الطبيعة البشرية.

— هي لك مقابل...

تفاوضا لمدة ساعة. ليس على السعر - كانت لدى ماتسوكاتا الوسائل - بل على التفاصيل، الأصالة، مصدر اللوحة. الأمور المهمة، بكلمة واحدة. كانت دقته تخفي قلبه. ماذا لو لم تنجح مقتنياته الجديدة، كسابقاتها، في ملء الفراغ الذي يسكنه؟ لكن الأوان كان قد فات للتراجع. أصبح شرّهُه للأعمال الفنية عنده مخدراً لطيفاً، الطريقة الوحيدة لإعطاء معنى لوجود لم يستطع النجاح الاجتماعي إشباعه بالكامل.

في المساء نفسه، في شقته في الدائرة السابعة، دون ماتسوكاتا بعناية في دفتره:

«غرفة الفنان في آرل، فنسنت فان غوخ، 1889، زيت على قماش، 57.3 × 73.5 سم. اقتُنيت عند بول روزنبرغ، 15 أكتوبر 1920. عمل يلاحقني منذ زمن طويل في أحلامي».

هذه الكلمات الأخيرة، أضافها بدافع لحظي. لم يكن من عادته أن يظهر مشاعره في جرده. لكن شيئاً ما في اللوحة لمسّه بطريقة مختلفة. ربما عزلتها المرسومة التي رددت صدى عزلته هو، وربما براءتها التي تناقضت مع التعقيد المعذب لوجوده كبرجوازي كبير عالمي.

استطاع فان غوخ أن يحوّل جنونه إلى نعمة؛ وهو كان يحاول أن يحوّل كآبته إلى مجموعة فنية.

لم يكن بمقدوره أن يعرف أن كلماته القليلة المخربشة كانت تؤذن ببداية قصة ستتجاوز حياته نفسها. أن الغرفة الهادئة التي رسمها فنان معذب ستصبح موضوع معركة قضائية شرسة. أن حكومات ومحامين وورثة سيتنازعون لسنوات على صورة تجرّد مؤثر. أراد قدر التاريخ الساخر أن يصبح رجل يبحث عن التوازن بطل صراع سيكشف أخط شهوات الدبلوماسية الثقافية.

وضع ماتسوكاتا قلمه ونظر من النافذة إلى أعضاء باريس. غداً، سيعود للتنقيب. دائماً عطشه لإضافة قطعة إلى الأحجية، سباقه اليائس نحو كمال جمالي كان يفلت منه باستمرار. دائماً قناعته بأنه يبني شيئاً مهماً

للمستقبل. كان محققاً، لكن ليس كما تخيل. مسعاه الشخصي كان سيولّد،
على نحو متناقض، عقوداً من الصراعات. أمله في المصالحة كان
سيكشف أسوأ غرائز التملك عند الدول القومية.
أما التاريخ، فهو لا يبالي البتة بالنوايا الحسنة.

الفصل الأول: تتراكم الغيوم

لندن، أوائل أغسطس 1939

كان لكوسابورو هيوكي موعد مع المسؤول عن مستودع بانتيكنيكون. وصل مبكرًا، فانتظر في مكتب غير مأهول تفوح منه رائحة الرطوبة وشمع النحل.

استحضرت هذه الرائحة معبد كيوتو القديم — رابطة مفالقة، إذ قطعه منفاه اللندني عن جذوره الروحية.

من النافذة القذرة، كانت لندن تستيقظ في الضباب. موظفون مسرعون، وباعة صحف يصيحون بالعناوين الكبرى: «هتلر يرفض أي حل وسط!». كأن أحدًا لا يزال يشك في ذلك. كان اليقين يتقل عليه. منذ أشهر، كان يدرك العلامات المنذرة التي يرفض الجميع رؤيتها، وهذا التشاؤم البصير كان يعزله شيئًا فشيئًا عن معاصريه الذين ظلوا متفائلين.

طال الانتظار. عشرون دقيقة.

استعاد ذكرى لقائه الأول بكوجيرو ماتسوكاتا سنة 1896. كان هو موظفًا صغيرًا في بنك في كوبى، وذاك الأرستقراطي الشاب الذي يتحدث عن إحداث ثورة في الفن باليابان. في ذلك الوقت، سحرته جرأة المشروع، لكنه سحر أيضًا بأمل الصعود الاجتماعي الذي كانت ولادته المتواضعة تمنعه منه عادة. «هيوكي...»، قال له عند لقائهما، «سنمنح شعبنا جمال الغرب». كان الحلم مهددًا بالموت في لهيب الحرب، وسيتهاوى معه صرح حياة كاملة كُرسَتْ لخدمة مثل أعلى.

اغتنم هذه الوقفة ليُخرج من جيبه رسالة وصلته قبل أيام قليلة. كانت يده ترتجفان قليلًا — لا بسبب العمر، فلم يكن قد بلغ إلا الرابعة والستين — بل بسبب الكلمات التي قرأها وأعاد قراءتها أكثر من عشر مرات. أعاده القلق إلى سنواته الأولى في اليابان، حين لقّنه أبوه أسرار الخط. «الأيدي التي ترتجف تكشف عن روح تشك»، كان

يقول له. اثنان وأربعون عامًا في خدمة عائلة ماتسوكاتا، ولم يشعر يومًا بمثل هذا العجز.

لم ير سوى كلمات ماتسوكاتا، مكتوبة بخطه الرقيق الذي يعرفه عن ظهر قلب: «استعد لأسوأ الاحتمالات، يا صديقي الوفي. العسكريون استولوا على السلطة. بلدنا ينزلق نحو الهاوية، ومجموعتنا مهددة بأن تتبعه».

هذه القرابة من سيده أطرته دائمًا، هو، الموظف الصغير الذي أصبح مؤتمن أحد أقوى الرجال في اليابان. لكنها اليوم كانت تثقل كاهله بمسؤوليات لم يرغب يومًا في حملها.

ماذا كان يعني ذلك؟ مهما قلب هيوكي الجملة في كل اتجاه، لم تصبح أكثر طمأنة. كان يعرف ماتسوكاتا بما يكفي ليعلم أنه لا يزال أبدًا. إن كان يتحدث عن هاوية، فذلك لأن الهاوية كانت هناك بالفعل.

طريقة خفيفة على الباب انتزعته من أفكاره الكئيبة.

— سيد هيوكي؟ أنا موريسون. آسف على تأخري، تعطلت سيارة الأجرة.

كان جيمس موريسون يدير بانتيكنيكون منذ... متى؟ خمسة وعشرون عامًا؟ أكثر؟ رجل متين على أي حال. من أولئك البريطانيين الذين ينظرون إليك مباشرة في عينيك حين يحدثونك. ماسوني، كغيره من أبناء وسطه. عضو في المحفل الأكبر المتحد لإنجلترا، وشغل منصب الأستاذ الأعظم الفخري لمحفل مدينة لندن رقم 901، وكان يملك علاقات عديدة ويستفيد من معلومات مستقاة من مصادر موثوقة. كان هيوكي يقدره. كان موريسون يعامل المجموعة اليابانية بالاحترام نفسه الذي يعامل به مجموعة العائلة المالكة الخاصة. والله وحده يعلم كم كان بعض زملائه أقل احترامًا حين يتعلق الأمر بزبائن «غربيي الأتوار».

— لا داعي للاعتذار، الآلات تكون مزاجية أحيانًا. كنت على وشك...

— اعدرني على مقاطعتك، لكنني أخشى أن لدينا مشكلة. مشكلة كبيرة.

كان لموريسون طريقة خاصة في نطق كلمة «مشكلة» حين تسوء الأمور. لم يكن من النوع الذي يهلع لأنفه الأسباب. هذا التحفظ البريطاني الصرف كان يتناقض مع عفوية هيوكي، ومن هذا التناقض نفسه ولد، مع الزمن، نوع من التواطؤ.

— أخبرني كل شيء.

جلس موريسون في مقعد جلدي أخضر يصدر صريرًا. بدا متعبًا. بل أكثر من متعب. قلقًا. قلقًا حقًا. عرف هيوكي علامات الإرهاق هذه: كان يشك منذ زمن طويل أن موريسون يحمل مسؤوليات أثقل بكثير مما يوحي به عمله الظاهر في المستودع.

— استقبلت زيارة رجلين من وزارة الداخلية، صباح أمس. مهبان جدًّا، لبقان جدًّا. لبقان أكثر من اللازم، إن فهمت قصدي. ذلك النوع من اللباقة الذي يخفي فخًا.

فهم هيوكي جيدًا للغاية. كان قد تعامل مع موظفين من هذا النوع في اليابان.

— بماذا كانا مهتمَّين؟

— بك. بل بالمجموعة. أرادا معرفة ما هو مخزَّن هنا. ذلك النوع من الأسئلة التي تُطرح حين يُحضَّر... لإجراءات.

توقف موريسون ليُخرج قارورة صغيرة من جيبه. عرضها على هيوكي، الذي رفضها بإشارة من يده. شرب الإنجليزي رشفة من الويسكي قبل أن يتابع.

— كان لديهما ملفات. ملفات بهذا السُمك. عليها اسمك، واسم السيد ماتسوكاتا، وقائمة كل مقتنياتكم منذ 1916. كانا يعرفان حتى أنك اشتريت لوحة ديغا الصغيرة عند دوران-رويل سنة 1923.

— هذا مذهل...

— طرحا عليّ أسئلة دقيقة جدًا عن قيمة الأعمال، وعن مصادر تمويلك، وعن علاقاتك بجامعة التحف اليابانيين الآخرين في أوروبا. والأهم أنهما أرادا معرفة إن كانت لك اتصالات بسفارة اليابان.

شعر هيوكي بالعرق يتصبب على جبينه. بالطبع كانت له اتصالات بالسفارة. كيف السبيل إلى غير ذلك حين يكون المرء مواطنًا يابانيًا يعيش في الخارج؟ لكن في السياق الحالي، كانت الاتصالات تأخذ معنى آخر تمامًا. أعاده هذا اليقين إلى وضعه الدائم كغريب. بعد كل هذه السنوات في أوروبا، ظل موضع شبهة، محكومًا عليه بأن يبرر وجوده وأنشطته إلى الأبد.

— سأكون صريحًا معك. إذا اندلعت الحرب، وستندلع، لا تشكّ في ذلك، وإذا اختار اليابان المعسكر الخاطئ... فسُعتبر الأعمال «ممتلكات عدو». ونعلم جميعًا ما يحدث للممتلكات العدو في زمن الحرب: مصادرة، بيع قسري، أو «تدمير عرضي».

أغض هيوكي عينيه. كان يعرف دومًا أن هذا اليوم سيأتي. لكن أن تعرف وأن تواجه الواقع، أمران مختلفان. كالفرق بين النظر إلى هاوية من بعيد والوقوف على حافتها. كانت البصيرة النبئية عنده تشي بنوع من المازوخية الفكرية. أعدّ نفسه بارتياح للكارثة وهو يأمل في الوقت نفسه ألا تقع أبدًا.

في رأسه، استعاد كل السنوات التي أمضاها يجوب أوروبا مع ماتسوكاتا. صالات العرض الباريسية، ورش مونمارتر، مزادات لندن. شغف سيده الذي لا يشبع بالفن الغربي. أعادته الذكريات المفعمة بالحماسة إلى زمن كان يشعر فيه بأنه شريك في مهمة تحضيرية.

«هيوكي...»، قال له ماتسوكاتا سنة 1920 أمام غرفة فان غوخ التي اقتنياها للتو، «...انظر، فان غوخ يرسم غرفة ويجعل منها شيئًا خالدًا. هذا هو العبقرية الغربية: تحويل اليومي إلى فن». تركت الكلمات أثرًا في هيوكي أعمق مما كان يعترف به. غدّت فيه افتتاحًا بالفن الأوروبي كان يدفعه أحيانًا لازدراء التقاليد الجمالية لبلده.

كل شيء مهدد بالزوال بسبب سياسيين لا يفهمون شيئاً في الفن ويفهمون كل شيء في موازين القوى.

— كم من الوقت تبقى لنا، في رأيك؟

حكّ موريسون ذقنه. كانت تلك عادة له حين يفكر. طمأن هذا الإيماء المؤلف هيوكي على نحو متناقض. وجد فيه إنسانية محدثة خلف رسول الأخبار السيئة.

— من الصعب القول. أظن ثلاثة أشهر. أربعة على الأكثر. بعدها، أي ممتلكات تعود لليابانيين ستكون معرضة للحجز «على سبيل الاحتياط». هذا هو المصطلح الذي أصبحوا يستخدمونه.

— ثلاثة أشهر لنقل...

توقف هيوكي. كيف يشرح ضخامة المهمة؟ مئات الأعمال. لوحات مونيه، رينوار، منحوتات رودان. حياة كاملة من الشغف اختزلت في بضع صناديق معلّمة ومكدسة في مستودع لندني. اختزال وجوده إلى بضعة أشياء مادية كان يذّله ويثير سخطه في آن.

تذكّر كل مقتنية. لوحة زنايق الماء لمونيه التي اشترت مباشرة من الفنان سنة 1918. كان ماتسوكاتا متأثراً لدرجة أن الدموع انهمرت في عينيه. «هذا ضوء خالص، يا هيوكي. ضوء النّقط وثّبت إلى الأبد». ظلت تلك اللحظة العاطفية المشتركة من أعز ذكرياته، لحظة حميمية روحية مع سيده عوّضته عن كل إحباطات وضعه التابع.

ورودان أيضاً، الدراسة الرائعة لبورجوازي كاليه. تفاوضا معه ثلاث ساعات مع النّحات نفسه، في ورشته بميدون. رودان استثنائي. روى لهما قصة كل شخصية كما لو عرفهم شخصياً. تركت المقابلة أثراً فيه. لأول مرة في حياته، شعر بأنه نظير لعمالقة الفن الغربي، إحساس مسكر غدّى طموحاته الخفية بأن يُعترف به هو نفسه كخبير.

— موريسون، سأبوح لك بشيء لا يعرفه سوى قلة من الناس.

إلى أي حد يستطيع أن يثق به؟ لكنه لم يعد أمامه خيار حقيقي بعد كل شيء. بعد سنوات في أوروبا، ظل موريسون صديقه الحقيقي الوحيد.

— لدينا هنا جزء فقط من المجموعة. النصف الآخر يوجد في باريس، في أقبية متحف رودان.

— يا إلهي... كم من عمل؟

— قرابة ثلاثمائة قطعة. ربما أكثر. كان السيد ماتسوكاتا يخطط لإعادة كل شيء إلى اليابان سنة 1925، لكن...

— لكن؟

— رسوم جمركية بنسبة مئة بالمائة. كانت الحكومة اليابانية تعتبر أن الفن الغربي يحوّل أموال الصناعة الوطنية عن مسارها. أرادوا تشجيع الفن التقليدي.

— فوجدتم أنفسكم عالقين بين شقي رحى.

— هذا أقل ما يمكن قوله. حكومة يابانية تعتبر مجموعتنا معادية للوطنية. وحكومات أوروبية ستعتبرها قريباً معادية.

نهض موريسون وذهب ينظر من النافذة. في المستودع ذي الأبواب المنزلقة، كانت تُرى الصناديق مكدسة. كل واحدة تحوي ثروة. كل واحدة تروي قصة. وربما، بعد بضعة أشهر، لن يبقى من كل هذا سوى ذكرى. عزّز هذا المشهد لدى موريسون شعوراً غامضاً بالذنب. ممثلاً لنظام على وشك نهب صديقه الياباني، اكتشف نفسه متواطئاً في ظلم لا يعرف كيف يمنع.

— سأخبرك بشيء ربما لا يجدر بي أن أخبرك به. جهات اتصالي في وزارة الخارجية، ولديّ بعضها، يتحدثون عن اتفاقات سرية بين برلين وطوكيو وروما. لا شيء رسمي بعد، لكن المفاوضات، على ما يبدو، متقدمة جداً.

— اتفاقات سرية؟

— عسكرية. تحالف ثلاثي، على ما يبدو. إن صحّ ذلك، فأعمالكم اللندنية ضائعة. وربما أعمال باريس أيضاً.

— هل أنت متأكد؟

أخرج موريسون رسالة ناولها إلى هيوكي. شهدت هذه اللقطة عند الإنجليزي على شجاعة أخلاقية تشرفه. بخيانتة لمصادره على هذا النحو، كان يخاطر بالكثير.

— اقرأ. أرسلها لي زميل من برمنغهام أمس. تلقى الزيارة نفسها التي تلقيتها، بخصوص زبون ألماني.

تصفّح هيوكي الرسالة بسرعة. كانت العبارات تقنية، لكن الرسالة كانت واضحة. تستعد الحكومة البريطانية لمصادرة كل الممتلكات العائدة لمواطني بلدان «معادية محتملة». كيف أمكنه أن يصدّق أن الفن سيتجاوز الأحقاد السياسية؟

— لا أستطيع أن أخبرك بأكثر عن مصادري، تابع موريسون، لكنها موثوقة بما يكفي لتبدأ لندن في وضع قوائم.

— قوائم بماذا؟

— بممتلكات ستُصادر. بأشخاص سيُراقبون. بأعمال فنية سيُتم «حمايتها». أنفهم التعبير الملطّف؟

فهم هيوكي تمامًا. وأصابه الغثيان. طوال حياته، آمن بالقوانين، بالعقود، بحق الملكية. وها هو يُشرح له أن كل ذلك ليس سوى ذرّ للرماد في العيون حين تكون مصالح الدولة على المحك. أنهى اكتشاف الواقعة السياسية تحطيم رؤية مثالية للغرب كانت توجّه وجوده كله.

— بماذا تنصّحي؟

عاد موريسون ليجلس. كانت نظرتة جادة كما عُرف عنه في اللحظات الصعبة. النظرة التي كانت له سنة 1929 حين كادت الأزمة أن تُغلق بانتيكينكون. أفلقت هذه الجدية هيوكي.

— بصراحة؟ أنقذ ما يمكنك إنقاذه. انقل بهدوء أهم القطع إلى فرنسا. السيد أوبيير، أمين المتحف المساعد في قسم المنحوتات باللوفر وقريب من متحف رودان، شخص ذو نفوذ، ربما يستطيع حمايتها. مؤقتًا على الأقل.

— وإن سقطت فرنسا؟

— عندها، ادغ الله أن تنتهي الحرب يومًا. وأن يتذكر أحد لمن كانت الأعمال ملكًا. بدأت في هذه المهنة قبل الحرب الكبرى مباشرة. رأيت كيف عاملت السلطات المجموعات الألمانية والنمساوية. رسميًا، كان ذلك «حجزًا مؤقتًا». في الواقع، قلة قليلة من الأعمال عادت إلى أصحابها.

— تقصد...

— أقصد أن الدولة البريطانية ستتذرع بأسباب الأمن القومي لتستولي على الأعمال. وأن الحجز، في فوضى الحرب، سيتحول بسهولة شديدة إلى مصادرة نهائية.

— لكن هذا سرقة!

— لا، هذه سياسة. السرقة تعني عدم الشرعية. ما أتحدث عنه سيكون شرعيًا، مؤطرًا بقوانين استثنائية تُصوّت في زمن الحرب. لن تستطيع حتى رفع دعوى.

نهض هيوكي. في الخارج، كانت لندن تعيش أيامها الأخيرة من السلام. كان الناس يجرون، يعملون، يستمتعون، لا يعلمون أن عالمهم على وشك أن ينقلب رأسًا على عقب قريبًا جدًا.

— موريسون، هل تعرف مارسيل أوبير شخصيًا؟

— إنه محترم في هذا الوسط. والأهم أنه صديق شخصي للسيد ماتسوكاتا، أليس كذلك؟

— منذ عشرين عامًا تقريبًا. هو من تولى مقتنياتنا الباريسية بعد وفاة ليونس بنديت، سنة 1925. رجل استثنائي. مثقف، نزيه، شغوف بالفن. إن كان هناك من يستطيع مساعدتنا...

— في هذه الحالة، عليك زيارته بسرعة. بسرعة جدًا.

بقيا صامتين للحظة.

فكر هيوكي في كل التجار الذين التقيا بهم على مرّ السنين. كم منهم سيثبت أنه حليف؟ وكم غيرهم سيستغل الوضع للإثراء؟

— موريسون، سؤال أخير. كم ستدوم الحرب، في رأيك؟

استعداد الإنجليزي قارورته وشرب رشفة أخرى.

— أتريد رأيي؟ ستكون الحرب مختلفة عن كل الحروب التي عرفناها. أطول، أكثر تدميرًا، أكثر شمولًا. خمس سنوات على الأقل. ربما عشر.

— عشر سنوات...

— وفي النهاية، سيكون العالم الذي نعرفه قد اختفى. الإمبراطوريات، الحدود، قواعد اللعبة... كل شيء سيتغير. بما في ذلك قوانين الملكية الفنية.

— هل تظن أن...

— أظن أنه بعد عشر سنوات، إن خرجنا أحياء من الحرب، فإن فكرة المجموعة الخاصة نفسها قد تكون اختفت. ستعتاد الدول على التحكم في الفن، وعلى تقرير ما يجب أن يُرى ومن يراه. ولن ترغب بعد ذلك في التخلي عن هذه السلطة.

جمّد المنظور دم هيوكي. أوروبا بلا جامعي تحف خاصين، بلا رعاة فنون، بلا الشغف الشخصي الذي أنشأ أجمل المجموعات؟ كان ذلك أمرًا لا يُتصوّر.

— أنت تبالغ حتمًا...

— ربما. أتمنى أن أكون مخطئًا. لكن انظر إلى ألمانيا. النازيون يتحكمون في كل شيء: من يستطيع أن يعرض، من يستطيع أن يشتري، من يستطيع أن يبيع. يقررون ما هو «فن منحط» وما ليس كذلك.

انحنى موريسون نحو هيوكي.

— وإذا امتدت الحرب إلى العالم بأسره، فقد يصبح نموذج التحكم الحكومي هو القاعدة في كل مكان.

استمرت المحادثة أطول. أخرج موريسون من حقيبته قوائم اتصالات وخرائط أوروبا. شرح الطرق الممكنة لنقل سري، والأشخاص الواجب تجنبهم، والذين يمكن الوثوق بهم.

كان هناك ذلك التاجر الباريسي، هنري-بيير روشيه، الذي يعرف كل هواة الفن الأمريكيين. ربما يستطيع تنظيم نقل نحو الولايات المتحدة؟ لكن التكاليف ستكون فلكية، والتأمينات ستراوغ على الأرجح عن تغطية نقل كهذا في فترة توترات دولية.

كان هناك أيضاً الحل السويسري. بقيت سويسرا محايدة، وكان بعض مصرفيي جنيف يقبلون تخزين الأعمال الفنية في خزائنهم. لكن هنا أيضاً، سيتوجب الدفع نقداً، والحصول على تصاريح تصدير قد تجذب انتباه السلطات.

— وإيطاليا؟ سأل هيوكي.

— محفوفة بالمخاطر أكثر مما ينبغي. موسوليني في المعسكر الألماني، وإن لم يعترف بذلك بعد. إذا تحالف اليابان مع ألمانيا، ستطّبق إيطاليا المصادرات نفسها.

— إسبانيا؟

— بالكاد خرجت من الحرب الأهلية. وفرانكو يميل أكثر إلى جانب هتلر، وإن كان يتجنب الالتزام في الوقت الحاضر.

بسط موريسون خريطة لأوروبا على مكتبه.

— انظر. باللون الأحمر، البلدان المعادية أو التي ستصبح كذلك على الأرجح. بالبرتقالي، تلك المهددة بالغزو. بالأصفر، المحايدون غير الموثوقين.

تأمل هيوكي الخريطة. لم تبقَ سوى بضع مناطق خضراء، تصغر أكثر فأكثر.

— نحن محاصرون.

— ليس بالضرورة. يبقى حل لم نتطرق إليه.

— أي حل؟

— البيع. البيع بسرعة، بهدوء، لجامعي تحف أمريكيين أو من أمريكا الجنوبية. استرداد المال ووضعه في مأمن.

— لكن السيد ماتسوكاتا لن يقبل أبداً...

- ربما يفضل السيد ماتسوكاتا استرداد قيمة مجموعته بدلاً من خسارة كل شيء. وبالمال، سيستطيع البدء من جديد بعد الحرب.
- كانت الفكرة مغرية، لكن هيوكي كان يعرف سيده جيداً. لم يكن ماتسوكاتا يجمع التحف ليُثري نفسه. كان يجمعها ليُنشئ متحفه.
- لا. سيفضل المخاطرة بخسارة كل شيء.
- إذن، لم يبقَ أمامك سوى أن تأمل أن يجد أوبير حلاً في باريس.
- أغلق موريسون ملفاته ورتّب الخريطة.
- سأعطيك ثلاثة أسماء. ثلاثة أشخاص في باريس قد يساعدونك. لكن احذر، في هذه الفترة المضطربة، غالباً ما يحل الجشع محل الصداقة.
- خربش على ورقة، كاشفاً في كتابته المتسرعة عن إلحاح آثار إعجاب هيوكي:
- «بول غيوم - صالة عرض في شارع ميروميسنيل. قريب من جامعي التحف الأمريكيين. دانيال-هنري كانفايلر - شبكة ممتازة، يعرف كل الحيل. لكنه من أصل ألماني، لذا فهو أيضاً مشبوه. أمبرواز فولار - محترف قديم، يعرف كل الحيل. لكن ليس بالضرورة أميناً».
- هل هؤلاء الأشخاص موثوقون؟
- بقدر ما يمكن أن يكون المرء موثقاً في هذه المهنة. توخّ الحذر مع ذلك. الحرب تكشف الطبيعة الحقيقية للناس، وليس دائماً في الخير.
- ماذا تقصد؟
- أقصد أن بعضهم قد يُغرى باستغلال وضعك الصعب للتفاوض على عمولات غير معقولة. أو «فقدان» بعض القطع في الطريق.
- في أي عالم نعيش؟
- في عالم سيدخل الحرب قريباً. وفي زمن الحرب، تصبح الكرامة رفاهية لا يقدر عليها إلا القليلون.

في المساء، عاد هيوكي إلى فندقه ورأسه يدور. كان عليه أن يتخذ قرارات ستحدد مصير تراث ثقافي لا يُقدَّر بثمن.

كان فندق راسل، في بلومزبري، من تلك المنشآت الفيكتورية التي عرفت أياماً أفضل — وما زالت تتذكرها، إن حكمنا من الأسعار التي كانت لا تزال تطبّقها. أقام فيه هيوكي منذ ثلاثة أسابيع، في غرفة صغيرة في الطابق الرابع تطل على فناء مظلم. ليس فاخراً جداً، لكنه منكمّم. والأهم أن الموظفين لم يكونوا يطرحون أسئلة محرّجة عن تنقلاته. على الأقل حتى الآن.

ناولته السيدة هندرسون، موظفة الاستقبال، مفتاحه بابتسامة لم تُخفِ جيداً فضولها المتنامي. كان هيوكي يزرع تهديباً سطحياً يتيح له الحفاظ على مسافته، لكن تراكم الزوار كان يثير بطبيعة الحال شكوك الموظفين.

— برقية لك، سيد هيوكي. وصلت بعد الظهر.

تسارع قلب هيوكي. برقية... كان يأمل أخباراً من ماتسوكاتا، مَرَق الظرف بحركات مرتجفة كانت تفضح المعاناة المتراكمة منذ أسابيع. «الوضع مقلق وقف. السلطات تطرح أسئلة عن المجموعة وقف. أقتراح لقاء عاجلاً وقف. مع التحيات وقف. أوبير».

جلس بثقل في أحد المقاعد البالية في الردهة. حتى باريس لم تعد آمنة. كانت البرقية الموجزة تخفي على الأرجح تطورات أخطر بكثير مما توحى به الكلمات المحايدة القليلة.

استعاد لقاءهما الأخير، في يونيو. استقبله أوبير في مكتبه في متحف رودان، بين منحوتات وأكوام كتالوجات تنهار عند كل تيار هواء. تناقضت الأجواء الدراسية الودودة للمكان مع الهواجس التي كانت تنخر أمين المتحف الفرنسي.

«عزيزي هيوكي»، قال له بالجدية المحسوبة التي عُرف بها، «أشعر أن الأزمنة تتغير. السياسيون يهتمون أكثر فأكثر باحتياطياتنا». في ذلك الوقت، اعتقد هيوكي أن الأمر مجرد تحقق إداري بريء. كم كان ساذجاً. أدرك أن أوبير كان محقاً.

صعد إلى غرفته وجلس إلى الطاولة الصغيرة التي كانت تخدمه كمكتب. في الخارج، كانت لندن تغفو في ضباب سبتمبر. في مكان ما من المدينة، كان موظفون يضعون على الأراجح قوائم يظهر عليها اسمه. وفي مكان آخر أيضاً، كان موريسون ينهي يومه متسائلاً إن كان قد أصاب في إخباره بكل شيء.

أخذ قطعة ورق وبدأ يصوغ ردّه على أوبير، يزن كل كلمة بالعناية التي تتطلبها الظروف:

«الوضع صعب هنا أيضاً وقف. لقاءكم ضروري وقف. سأصل باريس أوائل الأسبوع القادم وقف. استعدوا لأسوأ الاحتمالات. وقف. المخلص لكم وقف. هيوكي».

ثم كتب برقية ثانية. لمتسوكاتا، في اليابان. أفلتته الكلمات المناسبة. كيف يُعلن لسيده أن سنوات عديدة من العمل مهددة بأن تتبخر؟ كيف يشرح أن الديمقراطية الغربية، التي كانا يعجبان بها كثيراً لاحترامها القانون، على وشك مصادرة مجموعتهما؟

«محادثات مقلقة مع السلطات المحلية وقف. نقل نحو باريس مطروح وقف. ننتظر تعليماتكم وقف. مع فائق الاحترام وقف. هيوكي».

تردد طويلاً في اختيار العبارات. أظهر العالم الجميل المتحضر أخيراً وجهه الحقيقي.

استعاد محادثة مع ماتسوكاتا سنة 1935. كانا عائدتين من معرض ليكاسو عند بول روزنبرغ. كان سيده شارّد الذهن على رصيف شارع لا بويسي.

«هيوكي...»، قال له، «أتظن أننا أصبنا حين تركنا مجموعتنا في أوروبا؟».

«بالطبع، سيد ماتسوكاتا. كيف كان بإمكاننا أن نتوقع الضريبة العشبية للحكومة اليابانية؟».

«ليس هذا ما أقصده. أتساءل إن كان علينا أن نُعيد كل شيء إلى اليابان منذ 1925، حتى لو اضطررنا لدفع رسوم جمركية باهظة. على الأقل، كانت أعمالنا ستكون في أمان».

«في أمان من ماذا؟».

«من الحروب، يا هيوكي. أوروبا لها ميل مزعج إلى تمزيق نفسها كل عشرين عامًا. وحين تتكلم المدافع، يصمت الفن».

كم كان سيده محققًا... أنهى هيوكي برقيته ونزل ليسلمهما.

وعدت السيدة هندرسون بإرسالهما في أقرب وقت. كانت تنتظر إليه بغرابة، بإلحاح يكشف شكوكها المتنامية.

عائدًا إلى غرفته، أخرج مذكراته التي كان يحتفظ بها منذ سنوات. طقس يومي كان يساعده على ترتيب أفكاره وتحمل المنفى. كتب:

«لندن، 28 أغسطس 1939. الحرب تقترب، ومعها النهاية المحتملة لحلمنا. فتح موريسون عيني. لم نعد جامعي تحف، بل أصبحنا أهدافًا. كيف وصلنا إلى هذا؟».

وضع هيوكي قلمه واتجه نحو النافذة. في الفناء، كانت القطط تنبش في القمامة بالامبالاة القطط الملكية. كانت الحياة تستمر، غافلة عن المآسي البشرية. القطط، على الأقل، لم يكن لديها مجموعة فنية لتدافع عنها.

انجرف ذهنه نحو سنواته الأولى في خدمة عائلة ماتسوكاتا. الافتتان الفوري الذي مارسه عليه شخصية سيده المستقبلية الاستثنائية.

«هيوكي...» قال له عند لقائهما الأول، في صالون فخم تفوح منه رائحة البخور والخشب الثمين، «انظر حولك. اليابان تنفتح على العالم، لكن فقط للتكنولوجيا والصناعة. من يفهم أن مونييه أو رودان يساويان كل المعاهدات التجارية في العالم؟».

كان الشغف سليماً عند ماتسوكاتا. لكن العالم تغير. أصبح الفن رهائًا مهمًا. الأعمال، رهائن في ألعاب السلطة بين الأمم. اصطدمت مثالية شبابه بواقع موازين القوى الدولية القاسي.

قطعت طريقة على الباب تأملاته. نظر إلى ساعته. العاشرة مساءً. من يمكن أن... لم تكن الساعة المتأخرة تنبئ بخير.

— سيد هيوكي؟ رجل يرغب في رؤيتك في الأسفل. يقول إن الأمر عاجل.

نزل هيوكي بريبة. في الردهة قليلة الإضاءة، كان رجل في الخمسينيات ينتظره. حسن الهندام، أنيق المظهر، لكن شيئاً في نظراته لم يعجبه.

— سيد هيوكي؟ أنا إدوارد كامبل، من وايت هول. أيمكنني التحدث إليك بضع دقائق؟

تجمّد دمه. موظف من وزارة الخارجية، في العاشرة مساءً... كانت المصادفة أكمل من أن تكون عفوية. كان موريسون محقاً.

— بالطبع. لنذهب إلى الصالون.

تبعه كامبل إلى الغرفة الصغيرة المجاورة للردهة، المفروشة بمقاعد بالية وطاولة مهتزة. جلس دون أن يُدعى.

— سيد هيوكي، سأكون صريحاً. نعلم أنك تخرّن مجموعة فنية كبيرة في مستودع بانتيكنيكون. ونعلم أيضاً أن حكومتكم تتفاوض حالياً على تقارب مع ألمانيا.

لم يجب هيوكي. ماذا كان بوسعه أن يقول؟ ينكر الواضح؟ كان محدثه يعرف بوضوح كل التفاصيل ولا يكتفي بالافتراضات.

— في هذه الظروف، تابع كامبل بالنبرة المهدبة التي يميل إليها الدبلوماسيون البريطانيون، تتساءل حكومة جلالة الملكة عن مدى ملاءمة ترك أشياء ثمينة بحوزة مواطني بلد معادٍ محتمل.

— سيد كامبل، نشاطنا قانوني. تمت كل عمليات الشراء بشفافية، و...

— لا أشك في ذلك، قاطعه كامبل، لكن الشرعية في زمن السلم والشرعية في زمن الحرب أمران مختلفان.

جعل هذا التمييز هيوكي يرتجف. لم يعد يكلفان أنفسهما حتى إخفاء نواياهما. لم تعد هناك حاجة لذرائع. أصبح القانون متغير الأبعاد وفق الظروف.

— ماذا تقترح عليّ؟

ابتسم كامبل.

— نقترح أن تقبل بوضع مجموعتك طوعاً تحت الحماية الحكومية. إلى أن يتضح الوضع الدولي.

— وإن رفضت؟

— عندها سنُضطر إلى اتخاذ تدابير أكثر... توجيهية. من أجل سلامة الجميع...

أدرك هيوكي أنه أمام إنذار مقتنع. أن يقبل «الوضع تحت الحماية» أو يتعرض للمصادرة. كان النفاق يمنح السرقة بريقاً من الشرعية.

— كم من الوقت لديّ لأقرر؟

— لنقل... ثمان وأربعون ساعة. هل يبدو لك ذلك معقولاً؟

ثمان وأربعون ساعة... تحدث موريسون عن ثلاثة أشهر. بوضوح، الأحداث تتسارع أسرع مما كان متوقعاً. أو ربما أخطأ موريسون في تقديراته، وهو احتمال ممكن أيضاً.

— سيد كامبل، أيمكنني أن أسألك ما الذي سيحدث تحديداً إن قبلت اقتراحك؟

— سنُنقل أعمالك إلى مستودع حكومي آمن. ستبقى فيه بحالة جيدة حتى انتهاء الأعمال العدائية. سيُعدّ جرد مفصل، وستحصل على إيصال. كل شيء نظامي تماماً.

— وبعد الحرب؟

— بعد الحرب، سنفحص كل حالة على حدة. وفقاً للموقف الذي ستأخذه حكومتكم خلال النزاع.

بعبارة أخرى، إن قاتل اليابان إلى جانب ألمانيا، فوداعًا لمجموعة ماتسوكاتا. كان المنطق لا يرحم.

— وإن قررت نقل الأعمال إلى بلد محايد؟

ضحك كامبل ضحكة ساخرة صغيرة.

— يا عزيزي، أظن أننا سنسمح بتصدير ممتلكات ثمينة تعود لمواطنين يابانيين؟ في خضم أزمة دولية؟

— لكن لي الحق...

— كان لك الحق، سيد هيوكي. الأزمات تتغير. والحقوق معها.

نهض كامبل وسوّى معطفه بعناية.

— ثمانٍ وأربعون ساعة، سيد هيوكي. بعد هذه المهلة، سنتصرف وفق صلاحياتنا القانونية.

اتجه نحو الخروج، ثم استدار بهيئة متكلفة اللامبالاة لم تخذع أحدًا.

— آه، نسيت. فهمنا أنك تنوي رحلة إلى باريس في الأيام القادمة؟

— هذا ممكن...

— أنصحك بشدة بعدم ذلك. الرحلات الدولية قد تصبح... معقدة. معقدة جدًا.

ترك هيوكي وحيدًا مع يقينيّاته التي كانت تتهاوى واحدة تلو الأخرى.

عائدًا إلى غرفته، انهار هيوكي في المقعد. ثمانٍ وأربعون ساعة...

كيف يُحذّر أوبير؟ كيف ينظّم أي شيء في وقت قصير كهذا؟ كيف

يصنع معجزات وهو وحيد أمام حكومة قررت سحقه؟

أخذ دفتره وأضاف:

«22:30 - زيارة كامبل (وزارة الخارجية). إنذار مقبّع: 48 ساعة

لقبول المصادرة «الطوعية». رحلة باريس معرضة للخطر.

محاصرون من كل جانب».

أكانت لديه خيارات أخرى؟ أيمكنه الاتصال بسفارة اليابان؟ لكن وفقًا

لموريسون، كانت السفارة على الأرجح مراقبة هي الأخرى. وبعد

ذلك، ماذا كانوا سيفعلون؟ يحتجّون بضعف قبل الرضوخ للضغوط؟ في السياق الدولي الحالي، لم يكن لليابان أي نفوذ على الإمبراطورية البريطانية.

تاجر فني خاص، ربما؟ شخص يستطيع أن ينظّم بهدوء نقلًا... لكن من سيخاطر بذلك؟ وبأي مال يدفع للوسطاء؟ كانت ثروة ماتسوكاتا محجوزة بين البنوك اليابانية والحسابات الأوروبية التي تزدد مراقبة. تذكر فجأة اسمًا ذكره موريسون: هنري-بيير روشيه. التاجر الباريسي الذي يعرف كل جامعي التحف الأمريكيين. إن كان بوسع أحد أن يتخيل حلًا... على أي حال، إن رغب في ذلك وإن لم تكن المخاطر كبيرة جدًا عليه.

أخذ هيوكي ورقة جديدة وبدأ برقية لروشيه، يزن كل كلمة: «وضع عاجل مجموعة يابانية لندن وقف. البحث عن حل سري نقل أو حماية وقف. موريسون أعطاني اسمك وقف. هل ستكون متاحًا للقاء سري؟ وقف. هيوكي، فندق راسل لندن».

كان رهائنًا محفوفًا بالمخاطر. لم يكن روشيه يعرفه، ولا سبب لديه لمساعدته. لكنها ربما كانت فرصته الأخيرة. إلا إن كان روشيه على علم بالأمر بالفعل، ومنتظر بهدوء أن تسقط الأعمال في السوق بأسعار زهيدة.

نزل ليسلم هذه البرقية أيضًا للسيدة هندرسون. ثلاث برقيات في مساء واحد، إضافة إلى الزيارة الليلية لمبعوث من الوزارة... لا بد أنها كانت تطرح على نفسها أسئلة جديّة عن طبيعة أنشطته.

— هل كل شيء على ما يرام، سيد هيوكي؟ سألت بالفضول البريطاني النموذجي المختبئ خلف صيغ اللباقة.

— نعم، شكرًا. مجرد بعض الملفات العاجلة التي عليّ إنجازها.
— بالطبع. ليلة سعيدة.

لكن نبرتها كانت تقول بوضوح إنها لم تتخذ.

عائدًا إلى غرفته، لم يستطع هيوكي أن يجد النوم. من النافذة، كان ينظر إلى لندن النائمة ويتساءل إن كانت هذه آخر مرة يرى فيها المدينة بسلام.

غداً، سيتعين عليه اتخاذ قرار. أيقبل المصادرة المقنَّعة ويأمل استعادة المجموعة بعد الحرب؟ أم يحاول تنظيم نقل سري إلى فرنسا؟ في كلتا الحالتين، كان معرَّضاً لخسارة كل شيء. لكن على الأقل، بمحاولة شيء ما، يستطيع أن يقول لنفسه إنه حاول إنقاذ هدف ماتسوكاتا. لن يعوِّض ذلك الكثير، لكنه أفضل من لا شيء.

غفا أخيراً نحو الثالثة صباحاً، متسائلاً إن لم يكن اليابان القديمة محقة في حذرهما من الغرب. ربما أخطأ بلده في الانفتاح على العالم. ربما كانت العزلة في النهاية أكثر أماناً من الحضارة الغربية المزعومة.

في اليوم التالي، أيقظت هيوكي طرقات ملحّة على بابه. نظر إلى ساعته. السادسة صباحاً. من يمكن أن... لم تكن الساعة الباكرا تتبئ بخير.

— سيد هيوكي! سيد هيوكي! الأمر عاجل!

تعرّف على صوت السيدة هندرسون.

فتح الباب. كانت موظفة الاستقبال لا تزال بثوب النوم، وشعرها منسدل.

— سيد هيوكي، عليك أن تسمع هذا. إنه في الأخبار!

جرّته نحو الصالون حيث كان مذياع يُصدر خشخشة. كان صوت مذيع البي بي سي جاداً، مثقلاً بجلال ينذر بكارثة:

«...الحريق الذي دمر مستودع بانتيكنيكون في كامدن تاون. كافح رجال الإطفاء طوال الليل ضد النيران، لكنهم لم يستطيعوا منع تدمير المبنى بالكامل تقريباً. وفقاً للتقديرات الأولى، تُقدّر الأضرار بملايين الجنيهات. يُعتقد أن عدة مجموعات فنية ذات قيمة كبيرة قد دُمّرت».

انتهى كل شيء. تبخّر الجزء اللندني من المجموعة في ليلة واحدة. يا لها من مصادفة عجيبة. جاء كامبل لزيارته قبل اثنتي عشرة ساعة من الحريق، والآن يحترق بانتيكنيكون.

أحضرت له السيدة هندرسون فنجان شاي شربه آلياً، دون أن يشعر حتى. كان طعم الشاي كطعم الرماد.

— أنا آسفة، سيد هيوكي. كنت أخبرتني أن أغراضك مخزنة هناك... لم يجب. ماذا كان بوسعه أن يقول؟ كان الدخان الذي لا يزال يتصاعد في سماء لندن يحمل معه أربعين عاماً من الشغف.

وصلت برقية في الساعة التي تلت. من موريسون، بالطبع:

«كل شيء دُمّر وقف. تعازي وقف. الوضع واضح وقف. أنقذ باريس إن أمكن وقف. بالتوفيق».

من الآن فصاعداً، لم يبقَ سوى الأعمال المخزنة عند أوبير. إن كانت لا تزال هناك.

صعد إلى غرفته وحضر أمتعته بحركات آلية. باريس... كان عليه أن يذهب، رغم «نصائح» كامبل. كان ذلك واجبه تجاه ماتسوكاتا. وربما فرصته الأخيرة لإنقاذ شيء من الكارثة.

وهو يغلق حقيبتة، فكر في كامبل. تحدث هذا الأخير عن ثمان وأربعين ساعة للتفكير. لكن ما دام لم يعد هناك شيء يُصادَر في لندن، سقط العرض في الماء. حسم الحريق المشكلة بفعالية أكبر من كل المفاوضات.

بقيت باريس. وأوبير. والأمل الضئيل بأن تسير الأمور بشكل مختلف في فرنسا.

كان مخطئاً.

الفصل الثاني: مؤامرة 1944

باريس، أكتوبر 1944

نجت المجموعة طوال هذه السنوات، مخبأة في أقبية متحف رودان، بحماية مارسيل أوبير. اضطر هذا الأخير إلى مبارزة الحيلة بالحيلة ليمنع النازيين من الاستيلاء على هذا الكنز. والواقع أن رئيسه المباشر، جورج غراب، تعاون علناً مع نظام فيشي، ما جلب له إيقافاً، ثم عزلاً خلال حقبة التطهير. لكن في أكتوبر 1944، كانت الأمور على وشك أن تتسارع. كانت مكاتب ماتينيون لا تزال تحتفظ برائحة الاحتلال. في قاعة الاجتماعات ذات الألواح الخشبية المذهبة، كان أربعة رجال يستعدون لارتكاب سرقة بأصحاب ياقات بيضاء. في الواقع، لم تكن سرقة بالمعنى الحرفي. بل نهب متكرر في زي فعل وطني.

كان ديغول يترأس الاجتماع في بزته العسكرية الرفيعة. كان نظره يسمح الملفات المبعثرة أمامه. كان يتوقف بانتظام عند ذلك الملف الذي يحمل ختمًا أحمر: «مجموعة ماتسوكاتا». فضّل الجنرال دائماً العمل المباشر على الالتفافات الإدارية، وكانت هذه الدقائق القانونية تُثير غضبه بوضوح. غير أنه لم يكن يجهل أن شرعيته المستعادة حديثاً تتطلب مظهرًا من الشرعية لا تشوبه شائبة.

إلى يمينه، كان رينيه بليفن، وزير المالية في الحكومة المؤقتة، يراجع بنوتر تقديراته المالية. كان الخبير الاقتصادي المخضرم يحسب. في رأسه، كانت الأعمال اليابانية تتحول إلى فرنكات. فرنكات كثيرة. كان بليفن يحمل ثقل فرنسا المنهكة؛ وكان كل مصدر دخل محتمل يبدو له كطوق نجاة، حتى لو أثار تساؤلات فضّل ألا يتعمق فيها كثيرًا.

في المقابل، كان الأستاذ هنري توريس يقرأ تقاريره. كان المحامي البارز يبحث عن الثغرة. كيف يجعل شرعيًا ما ليس كذلك؟ بنى توريس سمعته على قدرته على التنقل في المناطق الرمادية للقانون.

أخيرًا، كان جاك جوجار يتأمل كتالوجات فوتوغرافية بحماس. كان مدير الفنون والآداب يدرك أهمية الأعمال المعنية. خلال الاحتلال، خاطر بحياته لإنقاذ المجموعات الوطنية. اليوم، وجد نفسه في موقع السارق.

دقّت ساعة لويس الخامس عشر الخامسة مساءً.

— أيها السادة، بدأ ديغول بصوته الجمهوري، لسنا هنا لمسألة روتينية. الأمر يتعلق بمستقبل فرنسا الثقافي. بقدرتنا على إعادة بناء تراث فني نُرَف حتى الرمق خلال أربع سنوات من المحن. لكن الأمر يتعلق أيضًا بالسيادة الوطنية. فرنسا التي تُبعث من جديد يجب أن تؤكد حقوقها. كل حقوقها. بما في ذلك تلك التي تمنحها إياها صفتها كأمة منتصرة.

أول من انطلق كان بليفن. أعدّ مداخلته بعناية دقيقة، مخفيًا توتره خلف سيل من الأرقام المطمئنة.

— أيها الجنرال، اسمح لي أن ألخص الوضع.

فتح ملفًا، باحثًا في تجريد الإحصائيات عن ملاذ ضد هواجسه الخاصة.

— القصف، النهب النازي، التدمير المتنوع... خسرت متاحفنا آلاف الأعمال. لإعادة بناء مجموعتنا، سيلزمنا ملياران من الفرنكات. أي عشرون عامًا كاملة من ميزانية الثقافة لما قبل الحرب.

— لكن، تابع بليفن، عثرنا على فرصة سانحة إلهية بمجموعة ماتسوكاتا اليابانية، المحفوظة بأعجوبة منذ ما قبل الحرب، في معظمها في أقبية متحف رودان. تقدّرنا مصالحنا بأكثر من أربعمئة مليون فرنك.

— أربعمئة مليون؟ صاح جوجار. أتمزح، أمل ذلك؟ غرفة فان غوخ في آرل وحدها تساوي عشرات الملايين!

كشف غضب جوجار عن اضطرابه: هو الذي كرّس حياته للحفاظ على الفن، وجد نفسه يناقش سعره كأنه بضاعة تافهة.

هزّ بليفن كتفيه.

— إذا تركنا هذه الأعمال تذهب إلى اليابان، نخسر فرصة فريدة. ومنمح بلداً عدواً فرصة استعادة براءته الثقافية.

رفع توريس، الذي كان يدوّن الملاحظات منذ البداية، رأسه أخيراً.

— أيها السادة، توصيف المجموعة يطرح مشكلة.

قطّب ديغول حاجبيه. كان الجنرال يكره أن يُقترح عليه وجود عقبات وقد اتخذ قراراته بالفعل.

— صحيح أن اليابان انضمت إلى دول المحور في سبتمبر 1940. لكن الظروف التي دخلت بها فرنسا الحرب مع هذه الدولة تبقى... لنقل... قابلة للتأويل.

تصلّبت نظرة الجنرال. لم يكن يحب أن تُشكّك قراراته. خاصة في نقاط تفصيلية يعتبرها ثانوية. كان لدى ديغول ميل لتجاهل الاعتراضات التقنية حين تعارض رؤاه السياسية.

— أستاذ توريس، وضّح فكرتك. ألا يكفي إعلان حربنا في ديسمبر 1941 لوصف اليابان بالعدو؟

سعل توريس بتوتر. أدرك خطورة معارضة الجنرال، لكن نزاهته الفكرية ألزمتة بإثارة الصعوبات.

— أيها الجنرال، المشكلة تأتي من عدة عناصر لا يمكن تجاهلها. أولاً، لم يُنشر إعلان الحرب قط في الجريدة الرسمية لفرنسا الحرة. مشكلة شكلية. ثانياً، صدر عن اللجنة الوطنية الفرنسية، التي كانت شرعيّتها... محل جدل في ذلك الوقت. حتى من بعض حلفائنا.

لم يعد يُسمع سوى دقات الساعة. تبادل بليفن نظرة قلقة مع جوجار.

— وهناك أسوأ من ذلك، تابع توريس. فيشي لم يعلن الحرب على اليابان قط. بل على العكس، حافظ على علاقات طبيعية مع طوكيو حتى أغسطس 1944.

رفع رأسه، مدرّكاً أنه يسير على أرض ملغومة.

— والحال أننا ورثة الدولة الفرنسية في استمراريتها. بما في ذلك العديد من أعمال نظام فيشي التي لا يمكن محوها بجرة قلم.

اعتدل ديغول، ووجهه متجههم. كان الجنرال يشعر بغضب متفجر كلما ذكرت أي استمرارية مع فيشي، هو الذي بنى شرعيته على القطيعة المطلقة مع الثورة الوطنية.

— أستاذ توريس! ألا تريد بالطبع أن تعترف فرنسا الديغولية بأدنى شرعية لأعمال بيتان؟

ارتفع صوته درجة.

— موقف لا يمكن الدفاع عنه!

— أيها الجنرال، لا يتعلق الأمر بإضفاء شرعية على فيشي...

— فبماذا يتعلق إذن؟

عاد توريس للسعال، مدرّكاً أنه يغرق أكثر فأكثر.

— يتعلق الأمر بالاعتراف بأن العديد من أعمال الدولة الفرنسية تحت الاحتلال لا تزال تُنتج آثارها. وهذا في الواقع سبب الإبقاء على العديد من المعاهدات المبرمة خلال تلك الفترة.

أخذ جوجار، العارف الدقيق بالمسائل الفنية، الكلمة لتهدئة الأجواء. شعر المدير بأن مزاج الجنرال يتحول إلى عاصفة وفضل إعادة النقاش إلى أرض أكثر ألفة.

— أيها الجنرال، المسألة... لنقل القانونية، رغم أهميتها، لا ينبغي أن تُفقدنا رؤية الرهان الاستثنائي.

فتح ألبوماً من الصور، مستعيداً في تأمل الأعمال عزاءً في مواجهة المعضلات الأخلاقية التي كانت تهاجمه.

— فحست بالتفصيل محتوى المجموعة. كنز ذو أهمية عالمية من الطراز الأول: غرفة فان غوخ في آرل، التي يحسدنا عليها الأمريكيون منذ سنوات. ثلاث لوحات لسيزان من فترة نضجه. جبل سانت فيكتوار بجمال أسر. لوحات رودان الفريدة في العالم. عدة نماذج جبسية من باب الجحيم لم يرغب المعلم قط في بيعها...

— كم عدد الأعمال إجمالاً؟ قاطعه بليفن.

— نحو ثلاثمائة وخمسين قطعة من الدرجة الأولى. إضافة إلى سلسلة من النقوش اليابانية. وحدها، يمكن للمجموعة أن تسمو بمتاحفنا الوطنية.

— بالضبط! صاح ديغول وهو يضرب الطاولة. هذا بالضبط ما لا يمكننا معه أن نُفَلت فرصة كهذه. أيها الأستاذ، أشاطرك تحفظاتك. لكن لا يجب أن ندع مشاعرنا الشخصية تشلّ الدولة. هل لديك حل؟

كان توريس يعرف كيف سينتهي الأمر. حسم الجنرال، كعادته دائماً.

— أعددت ثلاثة خيارات. لكل منها مزاياه وعيوبه. الأول بسيط. اعتماد مرسوم عام بشأن ممتلكات الأعداء. تدخل اليابان في القائمة، تلقائياً. تنتقل كل ممتلكاتهم على أراضينا تحت الحجز دفعة واحدة.

— المزايا؟

— السرعة. لا نقاش برلماني، لا نقاش عام. تُطبّق، انتهى الأمر. غير قابل للطعن قانونياً في القانون الداخلي.

— والعيوب؟

— واسع جداً. نخاطر باحتجاجات من الدول المحايدة، ومطالبات دبلوماسية محرّجة. قد تتحرك الولايات المتحدة من مثل هذه القسوة.

أزاح ديغول الاعتراض بإشارة من يده.

— هل يتصرف الأمريكيون بمثل هذه الحساسية تجاه الممتلكات الألمانية؟ ألم يجمد روزفلت نفسه كل الأصول اليابانية سنة 1941؟

— صحيح، أقرّ توريس، لكن مرسومًا عامًا سيلفت الانتباه إلى ممارساتنا. الخيار الثاني أكثر تكتماً. مرسوم موجّه، فقط على مجموعة ماتسوكاتا. نتذرع بدين الدولة الفرنسية على اليابان بسبب أعمال حربية.

— أي بمعنى؟

— الهند الصينية. رسميًا، استولت اليابان على مستعمراتنا الآسيوية. نُفدّر الأضرار بـ... لنقل... عدة مليارات. تصبح المجموعة تعويضًا طبيعيًا.

قطب جوجار حاجبيه.

— المشكلة هي أن فيشي أذن باحتلال اليابان للهند الصينية باتفاقيات دارلان-كاتو لسنة 1941. قانونيًا، لم تسرق اليابان شيئًا. حصلت على إذننا.

— لهذا السبب أنصحك بعدم اتباع هذا المسار، أجب توريس. يبقى الخيار الثالث، الأكثر دهاءً. لا نمسّ الملكية الرسمية. نجمد ببساطة المجموعة من أجل «حماية في زمن الحرب». ثم ننظم عملية تفاوض طويلة في إطار معاهدة السلام المستقبلية. طويلة إلى حد أنهم، بعد الملل من الانتظار، سيتخلون في النهاية عن حقوقهم مقابل بعض التنازلات الرمزية.

— كم من الوقت؟ سأل بليفن.

— خمس سنوات؟ عشر؟ من يدري؟ المهم أن الأعمال، خلال هذه المدة، تبقى في فرنسا. في متاحفنا. تحت سيطرتنا.

فكر الجنرال، أصابعه تطبل على الطاولة.

— الفكرة تعجبني. نهب متنكر في زي حماية. فرنسي جدًا، هذا. أستاذ توريس، اكتب لي مرسومًا يجمع بين الخيارين الأول والثالث. حجز فوري، ثم مفاوضات لا تنتهي.

— أيها الجنرال، يجب أن أحذرك...

— تحذرنني من ماذا؟

— أن هذا المرسوم، إن مرّ اليوم، سيخلق مشاكل غدًا. اليوم الذي ستطالب فيه اليابان بحساباتها، سنجد صعوبة كبيرة في تبرير موقفنا. خاصة إذا، كما أخشى، تبين أن إعلان حربنا هش قانونيًا. نهض ديغول، فارضًا قامته الفارعة.

— أستاذ توريس، أنت تقلق بشأن الغد. أما أنا، فعليّ أن أعيد بناء فرنسا اليوم. تمثل هذه المجموعة عدة سنوات من الميزانية الثقافية. يمكنها أن تعيد إلى باريس مكانتها كعاصمة عالمية للفنون. أظن حقاً أنني سأدع فرصة كهذه تفلت بسبب تحفظ قانوني؟

لم تترك النبرة مجالاً لأي رد. خفض توريس عينيه نحو ملفاته.

— حسناً، أيها الجنرال. سأصوغ المرسوم.

التفت الجنرال نحو بليفن.

— بليفن، أعتد عليك لإعداد مواقف تفاوضنا مع الحلفاء. يجب أن نصل إلى جعلهم يقبلون أن المعاهدة تمنحنا الحق في الاحتفاظ بهذه الأعمال كتعويضات حرب.

شعر بليفن بالعقبات القادمة من بعيد.

— أظن أن حلفاءنا سيقبلون بذلك؟

— لحلفائنا مصالح هائلة في اليابان. سيستعيد الأمريكيون مبالغ فلكية كتعويضات. لا يمكنهم أن يرفضوا علينا الحق في التعويض عن خسائرنا في الهند الصينية!

كان توريس يخربش كالمجنون، محاولاً مواكبة تسلسل أفكار الجنرال بينما يبني ذهنياً البنية القانونية اللازمة.

— أيها الجنرال، لكي تصمد استراتيجيتنا، سيتعين توثيق كل الأضرار التي لحقت بفرنسا بسبب التحالف الياباني-الألماني بالتفصيل. خسائرنا في الهند الصينية، بالطبع، لكن أيضاً كل الأضرار التي سببتها حرب المحيط الهادئ لمصالحنا الاقتصادية في المنطقة.

— ملاحظة ممتازة! وافق ديغول. سأكلف وزارة الخارجية بإعداد ملف. كلما كان أثنى، كانت مواقفنا أكثر منعة.

استمع جوجار إلى كل هذا التبادل، وهو يشعر بضيق متزايد.

— أيها الجنرال... اعدوني، لكن... ألا نُشوّه قليلاً صورة فرنسا؟ قد يبدو الأمر كنهب متتكر، أليس كذلك؟ بلدنا... حسناً، لنا سمعة معينة في احترام الملكية الخاصة على أي حال...

تحولت نظرة ديغول إلى جليد قطبي. هبطت حرارة الغرفة عشر درجات دفعة واحدة. كان الجنرال يُضمر غضبًا مكتومًا أمام أي تشكيك في قراراته، خاصة إذا صدر عن أقرب معاونيه.

— جوجار! أيجب أن أنعش ذاكرتك؟

نهض دفعة واحدة وبدأ يجوب الغرفة كسبع في قفص. علامة سيئة. حين كان الجنرال يبدأ الدوران، كان ذلك يعني أنه يتصاعد ضغطه، وإحباطه يبحث عن متنفس.

— خسرنا عشرات الآلاف من الأعمال، أتسمعي؟ نُهبت، دُمّرت، «اشتُرِيت» من النازيين بثمان بخس! أفرغ الألمان متاحفنا، ويسرق الأمريكيون كل أسواقنا الفنية، وتريد منا أن ندع فرصة كهذه تفلت؟ استدار على كعبيه، وعيناه سوداوان.

— لا! لفرنسا حقوق مشروعة. وستمارسها.

— لكن أخيرًا، أيها الجنرال... رصيد ماتسوكاتا كان موجودًا قبل الحرب بكثير. كان صاحبه صديقًا لفرنسا حتى، فيما أظن...

— بالضبط! انفجر ديغول. وأين هو، اليوم، متحفه الشهير للفن الغربي الذي كان سيُنشئه في اليابان؟

أصبحت حركاته أكثر مسرحية، وكأنه يخاطب جمهورًا خفيًا، كاشفة عن مزاجه الخطابى المعتاد على التأثيرات الكبرى.

— حوّلت اليابان العسكرية بلد جماليين إلى آلة حرب! جرفت النوايا الحسنة للسيد ماتسوكاتا تطورات بلده. نحن لا نفعل سوى حماية هذه الأعمال من الهمجية العسكرية! شعر توريس بالعاصفة الكهربائية تتصاعد في الغرفة. حاول إعادة الجميع إلى الأرض قبل أن يتفاقم الأمر، مستخدمًا خبرته كمحامٍ معتاد على نزاع قتيل التوترات.

— أيها الجنرال، إن مضيئنا كما هو مخطط، سيتوجب على مصالحنا بناء حجة متينة. أقترح تشكيل فريق من الخبراء لتقييم ما تحتويه المجموعة.

— فكرة ممتازة! وافق بليفن، مرتاحًا لإمكانية تحويل الانتباه نحو اعتبارات تقنية. سيتوجب أيضًا تحضير الرأي العام الفرنسي والدولي. يجب ألا تبدو العملية بأي حال مثل مصادرة انتهازية.

— كيف تنوي فعل ذلك؟ سأل جوجار، لا يزال تحت صدمة انفجار الجنرال.

كان بليفن قد حسب كل شيء في رأسه.

— بالتشديد على عدة نقاط أساسية. أولاً، جرائم الحرب اليابانية في آسيا. موثقة الآن جيداً، يستحيل إنكارها. ثم، تحالفهم مع ألمانيا النازية. وكل الأضرار التي سببها لنا في الهند الصينية. يجب أن يعلم الرأي العام أن المجموعة تمثل تعويضاً عادلاً عن أضرارنا الهائلة.

— وعلى الصعيد الثقافي؟ ألح جوجار، الذي لم يستسلم.

— على الصعيد الثقافي، سنشرح أن هذه الأعمال الغربية ستُحفظ بشكل أفضل في بلدانها الأصلية منها في اليابان. حيث قد تتعرض للإهمال في بلد خرب بفعل الحرب ومنشغل بإعادة إعمارها. أو ما دىغول برأسه.

— أيها السادة، أرى أنكم تدركون الوضع بكل تعقيدته. يبقى اجتماعنا سرّياً تماماً. لا أثر مكتوب لنقاشاتنا. أوضح ذلك؟

ثم وزّع الأدوار.

— أستاذ توريس، أريد مشروع المرسوم في غضون ثمانٍ وأربعين ساعة على الأكثر. لا دقيقة أكثر. بليفن، أعد لي مذكرة مفصلة عن التدايعات المالية مع تقييم دقيق للفوائد المتوقعة. جوجار، حدّد بهدوء الأعمال الأكثر أهمية وضع لي خطة توزيع بين متاحفنا الوطنية الكبرى.

— أيها الجنرال، ما التاريخ الذي تتوخاه للتوقيع؟ سأل توريس، وهو يضع بالفعل جدولته الزمني ذهنياً.

— بأسرع وقت ممكن. كل يوم يمر يزيد من خطر أن يحاول اليابانيون إعادة هذه الأعمال إلى بلد محايد. أو أن يجدوا وسائل أخرى ليُفلتوا منها.

جلس من جديد، بمظهر عازم، مخفياً خلف عزمه المعلن الخشية التي كانت تُلهمها له ردود الفعل الدولية.

— بمجرد توقيع المرسوم ونشره في الجريدة الرسمية، لن يكون لديهم أي طعن فعال.

— وإن طعن ورثة ماتسوكاتا مع ذلك أمام محاكمنا؟ ألح توريس، مفكراً في التعقيدات المحتملة.

أظهر ديغول عندئذ ملامحه في الأيام السيئة، كاشفاً عن البرود الذي كان يختبئ خلف اندفاعاته الوطنية.

— أستاذ توريس، اطرح على نفسك السؤال الحقيقي بدلاً من ذلك: من سيقبل الدفاع عنهم؟ أي محام فرنسي ستكون له الجرأة على الدفاع ضد المصالح العليا لفرنسا لصالح حلفاء سابقين للنازيين؟ قل لي قليلاً... وحتى لو وجدوا شخصاً جسوراً كفاية، على أي أساس سيطعنون؟ سيكون لمرسومنا قوة القانون.

وافق بليفن بإيماءة رأس مؤكدة: كان الخبير الاقتصادي فيه يتذوق أناقة عملية تُدرّ ربحاً وبيعاً دون أي تكلفة.

— سيكون موقفهم هشاً للغاية. واليابان المهزومة لن تملك أي وسيلة ضغط علينا. بل على العكس، هي من ستحتاج إلى رضانا من أجل تأهيلها.

— بل هناك أفضل، أضاف توريس. إن كان هناك طعن، فلن يأتي إلا من محامين يشكون في شرعية عملنا. سنستطيع أن نحتج بأن الطعن يشكّل عملاً مخالفاً للمصلحة الوطنية.

أصابته الملاحظة الهدف. حتى جوجار، رغم تردده في البداية، بدأ يقتنع بمتانة الآلية.

طال الاجتماع. فُحصت كل الجوانب العملية بعناية. كيف يُوضع الحجز، جرد مفصل مع نقل آمن نحو مستودعات المتاحف، تواصل محسوب بعناية. ذلك النوع من التفاصيل الذي يصنع الفرق بين مشروع ناجح وفشل ذريع.

قدّم توريس حتى جدولاً زمنياً محكماً. توقيع المرسوم في الأسبوع الأول من أكتوبر، الحجز فور ذلك، جرد كامل قبل نهاية نوفمبر، نقل نحو المتاحف قبل عيد الميلاد.

— والتكاليف؟ سأل بليفن.

— ستُخصم تكاليف النقل والتأمين من السعر التقديري للمجموعة، أجاب توريس. باختصار، ستموّل الأعمال مصادرتها الخاصة.

— ممتاز، علّق ديغول. عملية بتكلفة صفر تُدرّ لنا عدة مئات من ملايين الفرنكات من الأعمال الفنية.

حين أثار توريس مسألة الجرد، جرّب جوجار حظه. قال لنفسه إنه ربما يستطيع الحد من الأضرار، والحفاظ على شبه أخلاقيات مهنية في العملية.

— لتفادي أي طعن لاحق، أقترح إجراء جرد من طرف لجنة مختلطة. بخبراء فرنسيين وأجانب. سيتمّ ذلك مصداقية أكبر للعملية.

— قطعاً لا! ردّ ديغول بحدة، معبراً عن هذا الحذر تجاه أي رقابة خارجية. لن نمنح أي أجنبي الحق في مراقبة أعمالنا على أراضينا. سيكون الجرد فرنسياً حصرياً، يُجريه خبراءنا.

— لكن هذا قد يثير مشاكل مصداقية دولية، اعترض جوجار بتردد. البلدان الأخرى ستطرح أسئلة...

— لا تُقاس مصداقية فرنسا الدولية بمقياس ما يظنه بعض الخبراء الأجانب، ردّ ديغول. تُقاس بقدرتنا على الدفاع عن مصالحنا.

حين افترق الرجال الأربعة ذلك المساء، كان ظلام أكتوبر يهبط على باريس. كانوا قد وضعوا للتو أسس ما سيصبح واحداً من أفظع أعمال

النهب الفني في العصر الحديث. عاد كل واحد إلى منزله بحصته من المسؤولية وآلياته الخاصة لتبرير ما فعل.

نهب أكثر شراسة لأنه سيرتدي أثواب الشرعية الجمهورية. كلص يرتدي بذلة وربطة عنق حريرية.

في أروقة ماتينيون، كان السكرتيرون والحجّاب يمضون في أعمالهم المعتادة. لم يكونوا يعرفون شيئاً عن القرار الذي اتُخذ للتو. الجهل يحمي الضمير.

في الخارج، في شوارع باريس، كانت الحياة تستعيد مجراها الطبيعي شيئاً فشيئاً. أعادت المقاهي فتح أبوابها، والمسارح أيضاً. تنفس الناس أخيراً. لم يكن بوسع أحد أن يتخيل أن صفحة غير مشرفة كتبت للتو في المكاتب المخملية للجمهورية.

في 5 أكتوبر 1944، كما كان مقرراً، وقّع ديغول شخصياً على المرسوم. لم يترك النص أي مجال للتأويل. وُضعت كل الممتلكات العائدة لمواطنين يابانيين موجودة على الأراضي الفرنسية تحت الحجز التحفظي «تحقيقاً للمصلحة العليا للأمة».

أُلقيت النرد. دخل رصيد ماتسوكاتا للتو شباك آلية لا ترحم لن تُفرج عنه أبداً.

في أرشيف وزارة الخارجية، صُنِّفت نسخة من المرسوم في ملف يحمل عنوان «الشؤون اليابانية». ذهبت نسخ أخرى إلى الوزارات المعنية. تلقت كل إدارة تعليماتها الخاصة، مكتوبة باللغة المشفرة التي يعشقها البيروقراطيون. لأنه يجب أن يفهم الجميع دون أن يُقال شيء بوضوح.

بالتوازي، بدأت أجهزة الاستخبارات مراقبة كل المواطنين اليابانيين الذين لا يزالون في فرنسا. سُجِّلَت أدق تحركاتهم، اتصالاتهم، محاولاتهم للتواصل مع الخارج في بطاقات. الهدف؟ منع أي عمل قد يُبطئ الحجز المبرمج.

في صباح 8 أكتوبر، بعد ثلاثة أيام من التوقيع، حضرت فرق متخصصة من وزارة المالية إلى مكان التخزين الرئيسي. خُطِّطت العملية، التي حملت اسم «حصاد الخريف» داخلياً، بدقة عسكرية.

في متحف رودان، وفي غياب أمين المتحف الرئيسي جورج غراب الذي كان خاضعاً لتدبير إبعاد بسبب وقائع التعاون مع المحتل، استدعي مارسيل أوبير إلى مكتبه في الساعة صباحاً من قبل موظفين اثنين رافقهما حاجب. استيقاظ قاسٍ.

طوال مسيرته، عمل من أجل الصداقة الفرنسية-اليابانية، مقتنعاً بأن الفن يمكن أن يتجاوز الخصومات الوطنية. أغرقه رؤية جهوده تتلاشى بفعل هذا المخطط في انكسار كان يصعب عليه إخفاؤه.

— سيدي أمين المتحف المساعد، صرّح له رئيس البعثة، جننا لإجراء الجرد ووضع الممتلكات اليابانية المخزنة في مؤسستكم تحت الحجز. مدّ إليه وثيقة بثقة، مخفياً خلف عدم اكترائه ارتباكاً حقيقياً أمام يأس أوبير الواضح.

— ها هو المرسوم الذي يخولنا ذلك. كل شيء هنا، أسود على أبيض. حياة كُرسِت للفن وللصداقة الفرنسية-اليابانية تنهار في بضعة أسطر. تذكر أوبير الأمسيات التي أمضاها مع ماتسوكاتا يتحدثان عن الرسم. اجتاحه بآلم حنين إلى زمن بدا فيه أن الفن يستطيع أن يوحد البشر متجاوزاً اختلافاتهم الوطنية.

— أيها السادة، حاول بصوت أراحه حازماً، هذه الأعمال أودعت لدي من صديق شخصي. عاشق كبير للفن الفرنسي. لم يكن للسيد ماتسوكاتا يوماً أدنى نشاط معادٍ لبلدنا. أمضينا سنوات في بناء شيء معاً...

— سيد أوبير، قاطعه الموظف، لسنا هنا لمناقشة الخط العام للحكومة، بل لتطبيقه.

أغلق حقيبة مستنداته بصوت جاف، حركة آلية سمحت له بتجنب نظرة أوبير.

— هذه الممتلكات تعود لمواطن من بلد عدو. تسقط إذن تحت طائلة مرسوم 5 أكتوبر 1944.

أضاف الموظف الثاني، الأصغر سنًا والمحصّن بوضوح ضد الحجج الفنية، بنبرة قاطعة.

— سيدي أمين المتحف المساعد، لا يهم أصل الأعمال ولا النوايا الحسنة لصاحبها. ما يهم هو مالكةا الحالي. وهذا المالك ياباني. أتدرك الفارق؟ النفاش مغلق.

بدأ الجرد على الفور. لساعات، نشر الخبراء قوائمهم، صوّروا كل عمل، وضعوا أختامًا على كل الصناديق. عرض دقيق ولا يرحم. أوبير، المضطر لحضور العملية، رأى عمله الصبور يتبخر. كان كل ختم يوضع كمسماز يُدق في نعش أحلامه. فُكّر في كل مشاريع المعارض التي تخيّلها مع ماتسوكاتا، في الجامعة الثقافية التي كانا ياملان بناءها معًا.

نحو الظهر، جرّب خطوة أخيرة يائسة، مدفوعًا بوميض كرامة. — أيها السادة، عليّ أن أخبر السيد هيوكي، ممثل عائلة ماتسوكاتا في باريس. من حقه أن يعرف مصير الممتلكات التي هو حارس عليها. — أخبر السيد هيوكي هذا الصباح نفسه من قبل مصالحناء، أجاب رئيس البعثة بإيجاز، وهو يشعر بلمسة من الشفقة أمام سذاجة محدثه. لم يعد بإمكانه الوصول إلى هذه الأعمال.

بالفعل، في شقته الباريسية الصغيرة في شارع بابيلون، استقبل كوسابورو هيوكي زيارة شرطيّين فرنسيّين منذ الساعة الثامنة. كان يحتسي شايه، كما كل يوم، طقس كان يذكّره ببلده الأم ويمنحه القوة على مواجهة المنفى.

حمل هيوكي في داخله كل كرامة الجيل الياباني القديم، الذي تربّى على احترام الأشكال وضبط النفس. لكن أمام انهيار عمل حياته، شعر بضبط نفسه ينهار.

أصبح ممنوعاً عليه الآن الاقتراب من أماكن التخزين. أي محاولة اتصال بشخصيات يابانية أو دبلوماسيين أجانب ستُعتبر عملاً مشبوهاً. مشبوه. رنّت الكلمة بغرابة. هو، مشبوه؟ بعد كل هذه السنوات من خدمته كجسر بين الثقافتين؟

أدرك أن مهمته تقترب من نهايتها. بفرنسية اكتسبها خلال إقامات عديدة جداً في أوروبا، والتي كان يتقنها أفضل من بعض الباريسيين، حاول أن يدافع عن قضية كان يعلم مسبقاً أنها خاسرة.

— السيد ماتسوكاتا هو...

— سيد هيوكي، قاطعه الأكبر سنّاً من الشرطيّين، لا نفعل سوى تطبيق أوامر رؤسائنا. لسنا هنا للحكم على وجهة القرارات التي اتُخذت. آسف. ستُدْرَس وضعيتك الشخصية لاحقاً من قبل المصالح المختصة.

جمّدت الجملة الغامضة دمه. أدرك أنه يُعتبر أجنبياً غير مرغوب فيه. بل خطيراً محتملاً. كان الإذلال أشد وطأة لأنه تناقض مع الاحترام الذي حظي به في الأوساط الفنية الباريسية.

في بعد ظهر اليوم نفسه، بدأت الأعمال تُنقل نحو مستودعات اللوفر ومختلف المتاحف. جابت شاحنات عسكرية، ترافقها الدرك، باريس بهدوء وحمولتها الثمينة.

لم تخضع العملية لأي دعاية. الأفضل تجنب الأسئلة المحرّجة. كان لدى الصحفيين على أي حال ما يشغلهم، فتحرير باريس كان لا يزال يستحوذ على كل الأذهان.

في اللوفر، أشرف جاك جوجار شخصياً على وصول الصناديق الأولى. لم يستطع أن يمنع نفسه من الشعور بإحساس غريب، متناقض. من جهة، إثارة أمين المتحف أمام روائع نادرة ستثري المتاحف الوطنية. لوحات مونيّه، أعمال رودان! ومن جهة أخرى، ضيق خفي أمام الأساليب المستخدمة لاستعادة هذه الكنوز. رغم أن جوجار كان يقول لنفسه إن الغاية تبرر الوسيلة، لم يستطع إسكات ضميره.

أنفذ الكثير من الأعمال من النازيين خلال الاحتلال. ليال كاملة في إخفاء اللوحات في الأقبية، في القصور، لانتزاعها من مخالب غورينغ. تذكر الشاحنات التي كانت تنطلق في جوف الليل، والتواطؤات الصامتة. والآن؟ كان يشارك في شكل من أشكال النهب المنظم. الأزمنة تتغير، قال لنفسه بمرارة كان يحاول كبتها.

— سيدي المدير...

فتح مساعده بحذر صندوقاً يحتوي على لوحة لمونيه. كان يعرف ما كان يتعامل معه، لكن أيضاً غموض الوضع.

— ...كيف يجب أن نصنّف هذه الأعمال؟

كان السؤال حاسماً. كان يُقرّر مستقبل العملية بأكملها ويكشف عن الهواجس العملية التي كانت تشغل ذهن الإدارة.

— صنّفها كـ«ممتلكات تحت الحجز التحفظي»، مرسوم 5 أكتوبر 1944». لا ذكر لملكية نهائية في الوقت الحالي. سنرى لاحقاً، وفقاً لتطور الأمور.

— وبالنسبة للعرض للجمهور؟

بدا المساعد نافذ الصبر، ممزقاً بين الحماس والقلق. طبيعي، مع لوحات مونيه كهذه...

— لا عرض. تبقى الأعمال في المستودع حتى إشعار آخر.

تنهّد جوجار. تذكر الزمن الذي كان يستطيع فيه أن يعرض ما يريد دون طرح ألف سؤال. زمن مبارك من براءة مفقودة.

— يجب ألا نُعطي أي ذريعة لطعون محتملة. تكتم مطلق.

في هذه الأثناء، في وزارة الخارجية، كان الموظفون يُعدّون الحجج التي ستُستخدم خلال مفاوضات السلام المستقبلية مع اليابان. كان ملف قيد الإعداد يُسجّل بدقة كل الأضرار التي لحقت بفرنسا بسبب التحالف الياباني-الألماني.

قُدّرت الخسائر الاقتصادية في الهند الصينية بـ12 مليار فرنك، وأضرار المصالح الفرنسية في المحيط الهادئ بـ5 مليارات، وتكلفة إعادة احتلال الهند الصينية عسكريًا بـ3 مليارات. أما الأضرار المعنوية والثقافية، فكان تقديرها لا يُحصى. بلغ إجمالي التعويضات ما لا يقل عن أكثر من 20 مليارًا، أي أكثر بكثير من القيمة التقديرية للمجموعة.

كانت أعمال ماتسوكاتا على وشك أن تدفع ثمن بيرل هاربر والتحالف مع هتلر. حتى وإن لم يكن لصاحبها أي علاقة بذلك. حتى وإن كان يجمع التحف من أجل حب الفن، لا من أجل الحساب.

لم تكثرث المنطق المحاسبي للإدارة بالفروق النفسية الدقيقة.

وبعد ذلك، من كان سيراجع الحسابات؟

في مساء 8 أكتوبر 1944، تلقى ديغول تقريرًا مفصلاً عن سير العملية. مرّ كل شيء دون حادث يُذكر. كل شيء آمن في المتاحف الفرنسية، والحارس الياباني السابق تحت المراقبة، ولم يصل أي احتجاج بعد إلى وزارة الخارجية.

تصفح الجنرال الوثيقة. كان في رأسه شيء آخر. الأمريكيون، الشيوعيون...

— ممتاز. يجب تحضير المرحلة التالية. تحويل هذا الحجز المؤقت إلى اقتناء نهائي. بأكبر قدر ممكن من الشرعية، بالطبع.

في شفته الباريسية الصغيرة، علم كوسابورو هيوكي عبر الهاتف بخبر الحجز الكامل. شرح له صوت مجهول، مهذب، لكنه حازم، أن ممتلكات السيد ماتسوكاتا أصبحت الآن «تحت حماية الدولة الفرنسية».

شعر هيوكي بغضب مكبوت. متربّياً على احترام السلطة، لم يكن قادراً على تصوّر مقاومة علنية.

في المساء نفسه، حرّر برقية لطوكيو:

«المجموعة صودرت بالكامل من قبل السلطات الفرنسية وقف.
مرسوم حكومي مؤرخ 5 أكتوبر 1944 وقف. الوضع ميؤوس منه
وقف. أطلب تعليمات عاجلة وقف. هيوكي».

أعاد قراءتها ثلاث مرات. ثم أربعا. كانت كل كلمة تחדش حلقه. كانت
كل «وقف»، المستخدمة بدلاً من النقاط أو علامات الترقيم التقليدية،
تُصدر رنينًا كناقوس جنائزي لعمل حياته.

لن يأتي الرد أبدًا.

اليابان؟ مسحوقة، مُخرَّبة. من المستحيل الدفاع عن مصالح خاصة في
الخارج حين يعاني البلد بأكمله لإطعام سكانه. اختفت مجموعة
ماتسوكاتا في متاهة الإدارة الفرنسية.

كأشياء كثيرة أخرى في هذا العالم المنهار.

ما لم يكن هيوكي، ولا حتى الأبطال الفرنسيون، يتخيله، هو أنهم خلقوا
للتو سابقة متفجرة. لأول مرة، استخدمت دولة ديمقراطية قوانينها
الخاصة للاستيلاء على مجموعة خاصة بذريعة الحرب.
وُلدت قضية ماتسوكاتا للتو. كان أمامها مستقبل طويل.

بعد ثلاثة أشهر، في يناير 1945. كان البرد قارسًا. نزل جوجار إلى
مستودعات اللوفر، باحثًا في تأمل الأعمال عن عزاء أمام تساؤلاته.

في الأقبية المقببة، المهوأة بعناية، تكدست الآن روائع ماتسوكاتا.
مرتبة، مُعلّمة، مُصنّفة. كأنها كانت هناك دائمًا. لكن جوجار كان يعلم
جيدًا أن شيئًا لن يعود كما كان.

توقف جوجار أمام غرفة آرل. فان غوخ. كانت اللوحة تتنفس تحت
الإضاءة الاصطناعية، شبه حية في إطارها الذهبي. ستنتهي يومًا ما،
بعد ذلك بكثير، في متحف أورساي. سيعجب بها ملايين الزوار. كم
منهم سيعرفون أصلها المشبوه؟

خلال أسابيع قليلة، ستنهمر رسائل السخط من متخصصين في الفن الياباني. من جامعي تحف. بعض الفرنسيين أيضاً. سيصرخ الجميع بأنها سرقة متكررة.

«سيحكم الزمن»، قال لنفسه بقدرية لم تُقنعه إلا نصف اقتناع.

في ماتيونيون، كان ديغول يوقع مراسيم أخرى، وذهنه متجه نحو تحديات جديدة.

كان القلم يخربش الورق. إعادة إعمار البلد تفرض ذلك. كانت كل الوسائل مقبولة، حتى أكثرها إثارة للجدل. تعلم منذ زمن طويل أن عظمة أمة لا تُقاس بتحفظاتها، بل بقدرتها على الفعل.

التحفظات؟ لأوقات السلم. لم يكونوا هناك بعد، بعيداً عن ذلك. أما توريس، فكان يُعدّ ملفات أخرى. «تسويات» أخرى لممتلكات أعداء. في نهاية 1944، كانت لفرنسا أولويات أخرى غير مشاعر الضمير. في طوكيو، وسط الانقراض المتصاعد منها الدخان في العاصمة، لم يعد أحد يفكر في مجموعة ماتسوكاتا.

كان للبلاد اهتمامات أكثر إلحاحاً من البكاء على بضع لوحات ضائعة في باريس. أولاً النجاة. الأكل. إعادة الإعمار.

هكذا غيّرت ثلاثمائة وخمسون تحفة فنية مالکها. دون ضجيج، دون عنف. فقط بالقوة الهائلة للقانون الجمهوري.

الفصل الثالث: تضيق الخناق

باريس، نوفمبر 1944

نشوة التحرير. القلق الخفي من كل ما ينبغي إعادة بنائه. كانت باريس تضمّد جراحها كما استطاعت. كانت المباني المجروحة لا تزال تؤذي العينين. ألواح خشبية تسدّ واجهات المتاجر المكسورة. أمام البقالات، كانت الطوابير تمتد.

في شارع دي ريفولي، في مقر إدارة الأملاك، كان الغليان سائداً. المقر نفسه الذي شهد، قبل أشهر قليلة، عبور متعاوني فيشي وهم ينظمون بضمير حي نهب ممتلكات اليهود. جمهورية جديدة، أسياد جدد.

فحص برنار دوريفال الصناديق الأولى التي وصلت للتو إلى مستودعات المتحف الوطني للفن الحديث، حيث كان يشغل منصب أمين المتحف المساعد، تحت سلطة جان كاسو. كان يجسّد أولئك المثقفين الذين عبروا الحرب دون أن يفقدوا حبهم للفن، متبنّين في الوقت نفسه رؤية وطنية للثقافة.

خلف طلابه من العلم كانت تختبئ حدة كشفها الحرب. تعلّم أن يبرر ما لا يُبرّر حين تقتضي الظروف ذلك، محافظاً في الوقت نفسه على ضميره بخطاب حول المصلحة العليا للفن.

أمامه، كان بيير جاكوميه يشرف على العملية. كان مدير الأملاك يعرف كل الرموز. خريج المدرسة العليا للأساتذة، عرف دواليب إدارته عن ظهر قلب.

— سيد دوريفال...

أشار جاكوميه بيده نحو الصناديق المصفوفة. كانت القاعة الواسعة للجرد بأرففها المعدنية تمنحه هيئة كاتدرائية للتخزين. تجوّل بين الصناديق، بنظرة نهمة، يتذوق الاعتراف الذي ستمنحه إياه إدارته الفعالة للعملية.

— رأى خبراؤنا الكثير، صدقني. لكن هنا، يتحدثون عن جودة «مذهلة حرفياً».

— أتعلم، طوال كل سنوات الحرب هذه، شاهدنا مجموعتنا الوطنية تفتقر بشكل خطير. أنجز القصف الباقي. النتيجة: أمام المؤسسات الأمريكية أو البريطانية الكبرى، نبدو باهتين.

لم يُخَفِ دوريفال حماسه. في داخله، كان صوت يهمس بأن ظروف الاقتناء لا تهم كثيراً أمام جمال الأعمال.

— سيدي المدير...

توقف، بحث عن كلماته.

— هذا الاقتناء ينبوعي بالنظر إلى ثغراتنا الفاعرة في مجال الفن الحديث...

اقترب من صندوق، وضع يده عليه بإجلال شبه ديني، وكأنه يسعى إلى التطهر عبر الشراكة مع الفن.

— تخيل قليلاً. أخيراً، سنستطيع متاحفنا منافسة أكبر المؤسسات العالمية!

— نتحدث عن اقتناء، قاطعه جاكوميه بحذر. لنتذكر أن الأمر يتعلق رسمياً بحجز تحفظي. هذه الأعمال لا تعود بعد للدولة الفرنسية. لنبقَ حذرين في مفرداتنا.

ابتسم دوريفال ابتسامة عارفة.

— صحيح، أنت محق من حيث الشكل. لكن بيننا...

خفض صوته، متواطئاً. اجتاحتها قشعريرة متعة مذبذبة حين ذكر مخالفة مشروعهما.

— أنظن أن ديغول سيدع فرصة كهذه تفلت؟ سنُثري هذه الأعمال مجموعتنا الوطنية، سأراهن بيدي على ذلك. إنها مسألة وقت فقط.

وافق جاكوميه بإيماءة رأس صغيرة. اقترب من أحد الصناديق الأكثر ضخامة. بحركات جرّاح، كسر الأختام. احتياطات قصوى. عدة طبقات من قماش واقٍ.

— لنر... —

فكّ التغليف برقة لا نهائية.

حين ظهر العمل، بقيا فاغري الفم. غرفة فان غوخ في آرل. كانت اللوحة تشعّ بكثافتها اللونية المميزة جدًا لدى المعلم الهولندي. تناغم الأزرق الغامض للسريّر والجدران بشكل رائع مع أصفر الكراسي والأرضية.

خُلق صوت دوريفال.

— إنها أكثر... أكثر إبهارًا من كل ما تخيلته وأنا أدرس النسخ. انظر إلى هذه الطبقات السمكية على الوسائد! هذه الكثافة التي تمسك بأحشائك! والتكوين... بساطة ظاهرية، لكن بتطور مذهل. فان غوخ بهذا المستوى في المجموعات الفرنسية! أدرك ماذا يمثل هذا لمكانتنا الدولية؟

— وهذه القطعة وحدها، كم ستساوي في السوق؟

رفع دوريفال ذراعيه نحو السماء.

— عمل كهذا لا يُباع في السوق العادية، بل يُورث. إنه تراث عالمي. لو مرّت يومًا في مزاد — وهذا سيكون تدنيًا — لتجاوزت كل ما يمكن تخيله.

— هذا بالضبط الخطاب الواجب تبنيّه علنًا. هذه الأعمال ليست غنيمة حرب مبتذلة. إنها تراث ثقافي على فرنسا واجب أخلاقي في الحفاظ عليه وتعريف العالم به.

استمر الجرد. اكتشاف تلو اكتشاف. كانت الكنوز التي جمعها ماتسوكاتا بصبر خلال سنوات من التراكم الشغوف تتكشف.

— انظر!

تأمل دوريفال لوحة فكّ تغليفها للتو.

— جبل سانت فيكتور لسيزان. هذا الرسم الهندسي، تحليل الضوء البروفنسالي... وهذا الغوغان، نساء تاهيتي، بهذه الترابيات والحمراء التي تُنشد كلحن غرائبي...

بعد إغلاق آخر صندوق من السلسلة، عاد جاكوميه إلى نبرة أكثر سرية.

— دوريفال، عليّ أن أعلمك أنه في الأوساط العليا، ثمة قلق بعض الشيء من الطريقة التي... لنقل أننا تصرفنا بها.

— أي نوع من الهواجس؟

خفض جاكوميه صوته غريزياً، وكأنه يخشى آذاناً فضولية. كان يحب السرية والدسيسة — وسيلة كأى وسيلة للإفلات من رتابة وظائفه.

— حسناً، في وزارة الخارجية، يخشون ردود فعل قد يثيرها... استيلاؤنا. تعلو أصوات تلومنا على شكل من النهب المتكرر، مخالف للتقاليد الفرنسية.

— أي أصوات؟

تصلّبت نبرة دوريفال، وبدأ يجوب الغرفة، وغضبه يجد صعوبة في إخفاء توتر كامن.

— دبلوماسيون محترفون، بعض القانونيين المدققين، مثقفون على صلة بالوسط الفني... لا شيء منظم كثيراً في الوقت الحالي، لكن ذلك قد يتسع.

اعتدل دوريفال.

— انتظر، انتظر! نتحدث هنا عن بلد نفّذ سياسة توسعية عدوانية في كل أنحاء المحيط الهادئ، دمر أجزاء كاملة من الحضارة الغربية في المنطقة. والآن، يأتون ليلومونا لأننا نعوض أنفسنا من ممتلكاتهم؟

انفعل، وكأن السخط كان يحرره من شكوكه الخاصة.

— لكن أخيراً، إنه تعويض عادل!

— أتفق معك تماماً في الجوهر، هدأ جاكوميه من الأمور. لكنك تعرف كما أعرف أن الرأي العام، خصوصاً الأنغلوسكسوني، قد يكون حساساً لحجج عاطفية تحجب الحقائق.

— أي حجج عاطفية؟

كان الضيق واضحًا في صوت دوريفال.

أخرج جاكوميه من حقييته الجلدية حزمة كبيرة من المستندات. كان يحب هذه اللحظات حين يمتلك المعلومة، حين يستطيع أن يقيم تأثيره على الأحداث.

— تلقت مصالحنا في الأسابيع الأخيرة عدة رسائل من عائلة ماتسوكاتا، منقولة عبر الصليب الأحمر. ورسائل من شخصيات يابانية من الوسط الفني تدافع ب... لنقل بلاغة عن الاستعادة.

فتح رسالة مكتوبة بخط اليد بالفرنسية.

— بيرزون أن كوجيرو ماتسوكاتا كان عاشقًا كبيرًا للفن، راعيًا نزيهاً، وأنه شكّل مجموعته بهدف ثقافي وخيري بحت.

قاطع دوريفال بشكل مفاجئ.

— وماذا في ذلك؟ بأي شيء تغيّر هذه النوايا الحسنة شيئاً؟

— وماذا في ذلك، تابع جاكوميه بصبر، هذه الحجج الإنسانية والثقافية قد تجد صدًى مؤاثياً. فنانونا، نقادنا الفنيون، كتابنا متقبلون لأغانٍ سحرية كهذه. قد يرون في عملنا انتهاكاً للحقوق المقدسة للملكية الفنية.

— هل لديك أمثلة ملموسة؟

— ليس بعد علناً، لكن أبلغ عن محادثات مقلقة في عدة صالونات باريسية. شخصيات مثل رينيه غيمبيل أو جان كوكتو أعربت عن تحفظات.

أثارت المعلومة قشعريرة في دوريفال. غيمبيل وكوكتو... ليسا أي شخصين. شعر بيقينيّاته تتزعزع.

— في هذه الحالة، يجب أن نستبق الأمور. أن نتحكم في التواصل حول القضية.

قُطعت محادثتهما بوصول فرانسوا ماتى بهدوء. دفع دبلوماسي وزارة الخارجية الباب بحذر. بدا متوتراً قليلاً، ما كشف عن التوترات التي كانت تهزّ أروقة السلطة.

— أيها السادة...

انتظر أن يُدعى للاستمرار.

— جئت لأطلعكم على آخر التطورات المتعلقة بمفاوضات السلام مع اليابان التي لها تداعيات مباشرة على قضية ماتسوكاتا.

— أي أخبار؟

أشار له جاكوميه بمقعد بإيماءة متعبة. كان اليوم طويلاً، وكانت المسؤوليات تثقل كاهله.

جلس ماتي وأخرج عدة أظرف مختومة.

— يُعدّ الأمريكيون بالفعل للاستسلام. يريدون تنظيم مؤتمر سلام عام في مهلة قصيرة نسبياً يُحدد مصير اليابان المهزومة. من المتوقع أن يُعقد المؤتمر في السنوات القادمة، على الأرجح في سان فرانسيسكو أو واشنطن. سيتناول بالضرورة المسألة الحاسمة لتعويضات الحرب. انحنى دوريفال إلى الأمام، وعيناه تلمعان.

— وما الموقف الرسمي الفرنسي من هذه التعويضات؟

— هذا بالضبط الموضوع الرئيسي لزيارتي.

أخذ ماتي نبرة غامضة.

— يريد وزير الخارجية أن نُعدّ بسرعة قائمتنا الكاملة من المطالب. تندرج مجموعة ماتسوكاتا ضمن هذا الإطار الشامل.

— كيف تنوي تبرير إدماجها؟

— سنقدّم المجموعة كتعويض عيني عن الأضرار الجسيمة التي لحقت بفرنسا ومواطنيها بسبب العدوان الياباني وأعمال حلفائهم ضد مصالحنا. متخصصو وزارة الخارجية بصدد تقدير هذه الأضرار. يصلون إلى مبالغ هائلة.

— أيمكنك أن تعطينا فكرة عن حجمها؟

— التقديرات الأولى، لا تزال مؤقتة، تتعلق أساساً بالدمار الذي لحق بمواطنينا المستقرين في المحيط الهادئ، سفننا التي غرقت، منشأتنا التجارية المدمّرة...

أجرى ماتي حساباً ذهنياً صغيراً.

— تمثل المجموعة تعويضاً متواضعاً جداً مقارنة بالأضرار الحقيقية المتكبدة.

كان دوريفال يشعر بغبطة حقيقية، واجداً فيها تأكيداً لتبريراته الخاصة.
— ترى إذن! ليست نهياً اعتباطياً أو استيلاءً غير مشروع، بل تعويضاً عادلاً. تعود إلينا الأعمال بكامل الحق بموجب أضرار الحرب!

خَفَّفَ ماتي من الحماس بتحفظ الدبلوماسي المحنك. رأى الكثير من الانقلابات في المواقف ليتحمس، وحافظته حذره من خيبات كثيرة.

— انتبها مع ذلك، لم يُكتسب شيء بعد. سيتوجب التفاوض بحزم مع حلفائنا، خصوصاً الأمريكيين، الذين قد يكون لهم رؤاهم الخاصة بشأن توزيع الممتلكات اليابانية المتاحة للتعويضات.

— ماذا تقصد؟

بدت لمسة من القلق في صوت جاكوميه.

— أقصد أن الأمريكيين يميلون إلى اعتبار المحيط الهادئ بأسره منطقة نفوذهم الحصرية. لذا قد يعترضون على حقنا في تعويضات كبيرة في المنطقة، معتبرين أن مصالحنا فيها كانت ثانوية مقارنة بمصالحهم.

— وما خياراتنا لمواجهة الاعتراض؟

— أعددنا حجة متينة جداً.

استعاد ماتي ثقته.

— أولاً، يجدر إبراز حقوقنا القديمة واستثماراتنا الاقتصادية في مختلف أنحاء المحيط الهادئ. ثم يجب التأكيد على تضحياتنا البشرية والمادية في الحرب. جنودنا الذين سقطوا، مدنيونا الذين دُبحوا أو رُحِّلوا، منشأتنا المدمرة، تجارتنا المُباد.

— وعلى الصعيد الثقافي؟

لم يستطع دوريفال إلا أن يتدخل. مجاله المفضلّ منحه أرضية للتألق وتبرير موقفه.

— على الصعيد الثقافي، يتعلق الأمر بتقديم المجموعة كعنصر بارز من التراث الفني، الذي تتمتع فرنسا، بفضل تقليدها العريق ومتاحفها ذائعة الصيت عالمياً، بمؤهلات خاصة للحفاظ عليه ودراسته وإبرازه. بدا جاكوميه راضياً.

— تبدو لي الحجة مبنية بإحكام.

انحنى ماتي إلى الأمام، متأمراً، راضياً بوضوح عن أثره.

— بل هناك أفضل. يجب التأكيد على أن المجموعة، المكوّنة أساساً من أعمال فنانيين فرنسيين أو أوروبيين، تستعيد نوعاً ما أرضها الأم. فان غوخ، غوغان، سيزان، رودان... كل هؤلاء الفنانين وُلدوا وعاشوا وأبدعوا في أوروبا. أعمالهم في مكانها الأصح في المتاحف الأوروبية، وخاصة الفرنسية، منها في اليابان.

أثارت الملاحظة حماس دوريفال: كانت بالضبط الغفران الذي كان ينتظره.

— هذه حجة حاسمة! تعود الأعمال إلى بيتها، نوعاً ما. نحن فقط نُصلح خللاً.

استمر النقاش. عرض ماتي آخر المعلومات المتعلقة بالوضع الداخلي لليابان.

— البلد مُخرَّب بالكامل، ولم تعد لحكومته أي هامش للمناورة.

— والرأي العام الياباني؟

— الرأي العام الياباني منشغل خصوصاً ببقائه اليومي. المجاعة تهدد، المدن مدمّرة، الاقتصاد منهيار. لا تدرج مجموعة فنية أوروبية ضمن أولوياته المباشرة.

— والمثقفون اليابانيون؟ الأوساط الفنية؟

ألحّ دوريفال، ساعياً إلى إزالة أي عائق أمام مشروعهما.

— إما ماتوا في القصف، وإما مضطربون تمامًا. اجتاحت الصراع اليابان ما قبل الحرب. سيلزم سنوات ليعيد بناء نفسه.

نحو الساعة السابعة مساءً، بينما كان ليل نوفمبر يهبط على باريس، أنهى الرجال الثلاثة أخيرًا مشاورتهم الطويلة. كانوا قد وضعوا أسس استراتيجية شاملة ستحوّل الحجز التحفظي إلى استيلاء دائم، استراتيجية أشد خطورة لاستنادها إلى حجج تبدو غير قابلة للدحض.

— أيها السادة...

نهض جاكوميه، بمظهر راضٍ، مستمتعًا بمتعة العمل المُنجَز جيدًا.

— ...أظن أن لدينا كل العناصر اللازمة. ماتي، أعتمد عليك لتنسيق أعمالنا بدقة مع أعمال وزارة الخارجية. دوريفال، تابع الجرد وحضّر إدماج هذه الأعمال في مجموعاتنا الوطنية.

في الأسابيع التالية، بدأت الصحافة الفرنسية تذكر «المجموعة اليابانية» التي كانت تُثري مستودعات متاحفنا الوطنية. جرى تحضير الرأي العام لفكرة أن هذه الأعمال أصبحت الآن جزءًا من التراث الثقافي الفرنسي.

ظهرت مقالات مُحرّرة بعناية في المجالات المتخصصة. كانت تشرح أن فرنسا مقدّر لها استقبال وإبراز هذه الروائع. كان صحفيون معتمدون يزعمون أن هذه الأعمال ستُحفظ وتُدّرس بشكل أفضل في المتاحف الفرنسية منها في اليابان.

في طوكيو، في مدينة مدّمرة إلى حد بعيد، كان كوجيرو ماتسوكاتا، المريض بشدة، يتابع بقلق متزايد تطور الوضع الفرنسي.

في منزله في كاماكورا، الذي نجا بأعجوبة من القصف الأمريكي، كان البطيريك يتأمل الأعمال القليلة التي احتفظ بها في اليابان. كانت هذه اللوحات والمنحوتات، شواهد على شغفه الفني طوال حياة كاملة، تذكّره بقسوة بحجم الخسارة التي كان يتكبدها.

— أربعون عامًا من جمع التحف...

همس لابنته هانا، التي كانت تسهر عليه بإخلاص. كان صوته يرتجف قليلاً.

— ...أربعون عامًا من الأسفار في أوروبا، من اللقاءات مع الفنانين، من المفاوضات مع التجار... كل هذا لأرى أعمالي مصادرة من دولة تدّعي التحضر...

حاولت هانا، التي شاركت أباهما شغفه الفني، أن تواسيه. لكنها لم تصدّق ذلك إلا نصف تصديق. في أعماقها، كانت تعرف بالفعل.

— أبي، ربما هذا مؤقت. حين تعود السلام، حين تتطبع العلاقات، ستعترف فرنسا بأخطائها وتُعيد مجموعتك...

هزّ الرجل العجوز رأسه بحزن. كان دائماً بصيراً. بصيراً أكثر من اللازم.

— لا، يا ابنتي. أعرف جيداً كيف تعمل الدول. حين تمسك بشيء ثمين، لا تتركه أبداً. أعمالي ضائعة إلى الأبد بالنسبة لعائلتنا.

أصبحت أعماله، المقتناة بكل هذا الحب، بيداق في لعبة لا ترحم ستجعلها تختفي من تراث عائلته.

والأخطر من ذلك، أن القضية خلقت سابقة كبرى في القانون الدولي للأعمال الفنية.

كانت السابقة على وشك أن تصنع مدرسة وتُلهم الكثير من عمليات النهب الأخرى. كل مرة مرتدية الحجب المحترمة نفسها: العدالة، المصلحة الثقافية العليا، العودة إلى الجذور الفنية.

في وزارة الخارجية، أنشئت خلية خاصة، يقودها دبلوماسي محنك، لإدارة هذا الملف الحساس. هدفها واضح. تحويل الاستيلاء الفعلي إلى انتصار رسمي.

— فن الدبلوماسية...، شرح رئيس الخلية لمعاونيه،...يتمثل في إلباس مصالحنا الوطنية مظهر القانون الدولي. لا نأخذ، بل نستعيد. لا نصادر، بل نُصلح. لا ننهب، بل نُعيد إلى الفن الغربي أرضه الأم.

عبارة جميلة. كان فخورًا بها، يتذوق التفافته الدلالية التي حوّلت السرقة إلى عمل عدل.

سرعان ما تبّنى بلاغة كهذه كل الفاعلين الفرنسيين المعنيين. في التواصل، في مقالات الصحافة المُصرّح بها، كانت المفردات نفسها تعود باستمرار: «استعادة»، «تعويض»، «عودة مشروعة»، «عدالة».

الأكثر لفتًا للنظر، كانت السهولة التي فرضت بها المصطلحات نفسها في كل الأوساط المعنية. كان أمناء المتاحف يتحدثون عن «إعادة توطين» الأعمال. كان القانونيون يذكرون «تسوية» الوضع. كان الدبلوماسيون يذكرون «تطبيعًا» للعلاقات الثقافية.

لم يعد أحد ينطق كلمة «مصادرة»، التي أصبحت محرمة. لم يكن التحول الدلالي وليد الصدفة. نتج عن خطة تواصل مدروسة في أدق التفاصيل. أرسلت تعليمات دقيقة. حظر أي مفردات قد تُوحي باستيلاء قسري، تفضيل المصطلحات المحايدة، التركيز على البعد الثقافي والتعليمي للعملية.

خلال بضعة أشهر، أصبحت قضية ماتسوكاتا في الرأي العام الفرنسي قصة نجاح. عرفت فرنسا كيف تُدافع عن مصالحها وتُثري في الوقت نفسه تراثها الفني. غرقت الانتقادات المحتملة في حفل من التهاني.

لم يستمر سوى بضعة أرواح ساخطة، في الأوساط الفكرية الباريسية، في التعبير عن شكوكها. لكن أُسكتت أصواتها بسهولة بفعل الخطاب الرسمي، خاصة أن معظم الفرنسيين كانوا يجهلون كل تفاصيل القضية.

حتى رينيه غيمبيل نفسه، رغم ترده في البداية، انتهى إلى الانضمام إلى موقف الحكومة. تغلب الضغط الاجتماعي وطموحه الاجتماعي الخاص على تردداته: «تستعيد هذه الأعمال في فرنسا وطنها الروحي الحقيقي. لا وطن للفن، لكن له أرض مختارة».

أثار تصريحه في مؤتمر عام ضجة. كانت المقاومات الأخيرة تسقط واحدة تلو الأخرى.

تخلّى جان كوكتو، مسحورًا بفكرة رؤية روائع فان غوخ معروضة في اللوفر، عن اعتراضاته الأولى. تحول نقاد الفن، مغربين بإمكانية دراسة أعمال كانت حتى الآن غير مُتاحة عن قرب، إلى مؤيدين متحمسين.

إغراء فان غوخ. لا يُقاوم، حتى بالنسبة لأكثر الضمائر رهافة. في نهاية ديسمبر 1944، اكتملت العملية على الصعيد الداخلي. جُردت كل الأعمال، حُزّنت، أُدمجت إداريًا في المجموعات الوطنية. لم يعد يعلو أي صوت فرنسي للطعن في الاستيلاء. بقي تعزيز الانتصار على الصعيد الدولي. كان هذا هو التحدي الأصعب، إذ كان يجب إقناع الحلفاء بوجاهة الموقف الفرنسي. كانت الاتصالات غير الرسمية الأولى مع واشنطن مشجعة. الأمريكيون، المنشغلون بتحضير نهاية الأعمال العدائية وإعادة إعمار آسيا، لم يكن لديهم وقت كبير ليكرّسوه للمسألة. لم يروا اعتراضًا كبيرًا على أن تسترجع فرنسا أعمال فنانين فرنسيين اقتناها جامع تحف ياباني.

كان عرض الوقائع، رغم تحيزه، يتمتع بميزة الوضوح. فان غوخ أوروبي، غوغان ورودان فرنسيان... كان منطقيًا أن تُحفظ أعمالهم في أوروبا بدلًا من اليابان. أظهر البريطانيون، المهتمون تقليديًا بمسائل الملكية الخاصة، تحفظًا أكبر.

لكن اعتراضاتهم كانت تتعلق بالشكل أكثر من الجوهر. كانوا يرغبون في أن يحترم الإجراء الفرنسي المظاهر بدقة. «لا مشكلة...، أجاب الدبلوماسيون الفرنسيون بثقة. سنتصرف في الإطار الصارم لقانون تعويضات الحرب. كل شيء سيكون نظاميًا». كفت الثقة لطمأنة لندن، خاصة أن البريطانيين أنفسهم أجروا عمليات مشابهة مع الممتلكات الألمانية الموجودة على أراضيهم.

في بداية 1945، كان الموقف الفرنسي إذن راسخًا على كل الجبهات. داخليًا، تحقق الإجماع، ولم يعترض الحلفاء اعتراضًا حاسمًا. اليابان وحدها كان بإمكانها الاحتجاج، لكن اليابان لم تعد موجودة كفاعل مستقل.

أكانت قضية ماتسوكاتا قد انتهت إذن؟ بعيدًا عن ذلك. كانت تدخل فقط أطول مراحلها. مرحلة التبريرات اللاحقة والتكيف مع الواقع. لأنه سيتوجب، يومًا ما، شرح للعالم كيف ولماذا استولت الجمهورية الفرنسية على ممتلكات شخص خاص لم يرتكب جريمة أخرى سوى أنه وُلد يابانيًا.

لكن في الوقت الحالي، بينما كانت أوروبا تخرج ببطء من أشد حروبها تدميرًا، لم تكن الاعتبارات الأخلاقية تهم كثيرًا. تحقق الجوهري. امتلكت فرنسا واحدة من أجمل مجموعات الفن الحديث في العالم. أن تكون المجموعة قد شكّلها راع ياباني، أن تكون اقتُنيت بحسن نية كامل، أن تكون صودرت بالقوة، كل ذلك أصبح الآن جزءًا من الماضي. كتب التاريخ، كما دائمًا، المنتصرون.

وكان المنتصرون، في هذه الحالة، هم أمناء المتاحف الفرنسيون الذين رأوا متاحفهم تُثري بروائع، الدبلوماسيون الفرنسيون الذين عرفوا كيف يُدافعون عن المصالح الوطنية، القادة الفرنسيون الذين عرفوا كيف يحولون هزيمة عسكرية إلى انتقام ثقافي.

الخاسرون وحدهم، أرستقراطي عجوز مريض في منزله في كاماكورا وعائلته المفجوعة، كانوا يقيسون الثمن البشري الحقيقي لهذا «النهب».

في الصالونات الباريسية، بدأوا يتحدثون بشهية عن المعارض المستقبلية.

— أترى؟ فان غوخ في اللوفر!

كان أهل الطبقة الراقية يفركون أيديهم. كان نقاد الفن يُعدّون مقالاتهم المطربة. كان طلاب الفن يتخيلون إمكانية دراسة هذه الأعمال الأسطورية عن قرب.

لم يتساءل أحد من أين جاءت. أو بالأحرى، فضّلوا ألا يطرحوا السؤال كثيرًا.

أما دوريفال، فقد بدأ إعادة تنظيم قاعات متحف الفن الحديث. كان يتخيل ترتيب اللوحات، الإضاءة المثالية التي ستبرز ألوان فان غوخ، الموضوع الأمثل لمنحوتات رودان. كان حلمه كأمين متحف يتحقق.

لم يعد يتساءل عن الأصل. أو، لبرهة قصيرة جدًا، قبل أن ينتقل إلى أمر آخر.

أما جاكوميه، فكان من جهته يُنقّح آخر التفاصيل. كان يجب توثيق كل عمل، فهرسته، إدماجه في الجرد الوطني.

استمر ماتى في رحلاته المكوكية بين باريس وعواصم الحلفاء. كان يجب الحفاظ على الضغط، والتأكد من ألا يأتي أحد ليُشكك في المكتسب الفرنسي.

في اليابان، كان ماتسوكاتا يضعف يومًا بعد يوم. الأخبار التي كانت تصله من فرنسا أنهكت يأسه.

حاولت ابنته هانا الحفاظ على الأمل. كتبت رسالة تلو رسالة إلى السلطات الفرنسية، دافعت عن قضية أبيها، ذكرت بنواياه الحسنة، بحبه الصادق للفن الغربي. لكن رسائلها ضاعت في متاهات الإدارة الفرنسية. حين كانت تصل إلى وجهتها، كانت تُصنّف دون متابعة. أحيانًا حتى دون أن تُقرأ. لا وقت كافٍ لمشاعر اليابانيين.

كانت الآلية تعمل. لم يعد شيء قادرًا على إيقافها.

بعد بضعة أشهر، بضع سنوات على الأكثر، ستصبح مجموعة ماتسوكاتا فرنسية. سيكتب متخصصو الفن أطروحات عن هذه الأعمال «المكتسبة» بعد الحرب. ستشيد الأدلة السياحية بروائع

التراث الوطني الفرنسي. سيتعلم تلاميذ المدارس أن فرنسا تمتلك واحدة من أجمل المجموعات الانطباعية في العالم. ولن يتذكر أحد بعد الآن ذلك الياباني الذي جُنَّ بحب الفن إلى حد تكريس ثروته لجمعه. سيمحو الزمن كوجيرو ماتسوكاتا. لن يبقى سوى أعماله، التي أصبحت فرنسية إلى الأبد. أو تقريبًا.

الفصل الرابع: المفاوضات السرية

سان فرانسيسكو، صيف 1951

كان فندق فيرمونت في سان فرانسيسكو يعجّ بالنشاط في صيف 1951 هذا. استقبل القصر، المطلّ على تلة نوب هيل، منذ أسابيع وفود إحدى وخمسين دولة أتت للتفاوض على معاهدة السلام التي كان يُفترض أن تُنهي حرب المحيط الهادئ. رسميًا، على الأقل.

خلف الأبهة البروتوكولية والخطب الجميلة عن المصالحة، كان كل طرف يترصد نصيبه من الكعكة. بعد ست سنوات من هيروشيما وناغازاكي، كان يجب تقاسم أشلاء الإمبراطورية اليابانية. كان الشره ضاربًا، حتى لو لم يجرؤ أحد على قوله بصوت عالٍ.

في صالون لوريل، في الطابق الخامس، كانت النوافذ تفتح على منظر خلّاب للخليج وجزيرة ألكتران. استقر أربعة رجال حول طاولة طويلة. ما هو رهان اجتماعهم؟ «المسائل المتعلقة بتعويضات الحرب». كان الواقع أكثر فظاظة: إنهاء صياغة المادة 14 من المعاهدة المستقبلية التي ستحدد من سيسترد ماذا من الممتلكات اليابانية المبعثرة في العالم.

كان موريس شومان يرمز إلى طموح فرنسا لما بعد الحرب. وزير الخارجية، والمقاوم السابق، كان ينتمي إلى جيل رأى كل شيء وكان يعترم أن تستعيد فرنسا مكانتها. كانت وثائقه مغطاة بملاحظات بخط يده. كان يحمل جراح بلد مُدَلّ، وخلف طلائئه الدبلوماسي كانت تختبئ عطش للانتقام. عاش في ظل هزيمة 1940، وكانت كل مفاوضة تمنحه فرصة لإعادة تلميع شعار مُشوّه. كان تهذيبه يخفي بصعوبة عزماً لا يلين، صُقل في المقاومة حيث كانت التسويات غالباً ما تُدفع أرواحاً بشرية.

في المقابل، كان جون فوستر دالاس منشغل البال. عرف الممثل الخاص للرئيس ترومان، الذراع اليمنى المستقبلية لآيزنهاور، أن القرارات المتخذة في هذا الصالون ستكون حاسمة. محام بالتكوين، أتقن دقائق القانون الدولي. بالنسبة إليه، كان يجب أن تتراجع المعايير

الأخلاقية أمام ضرورات السياسة. تعلّم، في أروقة واشنطن، أن العاطفية لا مكان لها في شؤون الدولة. كان عدم اكتراثه يُخفي مع ذلك قلقًا خفيًا أمام صعود الشيوعية في آسيا.

كان السير أوليفر فرانكس، إلى يمينه، يدافع عن المصالح البريطانية بالود الذي اشتهرت به وزارة الخارجية. رجل من رجال المدينة المالية بقدر ما كان من وايت هول، كان يوازن بين التجارة والاستراتيجية الجيوسياسية. أراد البريطانيون في آن واحد مسيطرة اليابان، الحليف المستقبلي ضد السوفيت، والحفاظ على مواقعهم الاقتصادية في آسيا. كان فرانكس يعكس الفن البريطاني في التوفيق بين المتناقضات. كانت أناقته وأسلوبه الأنيق يخفيان حدة موروثه من سنواته في الأوساط المالية اللندنية. كان يعلم أن الإمبراطورية البريطانية تتآكل، وكانت كل مفاوضة تشكّل معركة تراجع للحفاظ على نفوذ لندن.

أمام الغربيين الثلاثة، بدا شيغيرو يوشيدا كمهزوم مستسلم. حمل رئيس الوزراء الياباني بكرامة عبء بلد محتل. سفير سابق، عرف قواعد اللعبة. لكن هامش مناورته لم يكن يعني تقريبًا شيئًا. اليابان تحت الوصاية الأمريكية لم يكن في موقع تفاوض. أخفى يوشيدا خلف أسلوبه المذهب مرارة حقيقة. دبلوماسي من المدرسة القديمة، آمن دائمًا بفضائل التفاوض. الآن، كان عليه أن يدفع ثمن أخطاء لم تكن أخطاءه، وأن يدافع عن بلد دمرّ قادته العسكريون كل آماله في العظمة السلمية.

كان كل واحد منهم يعلم أنهم، خلف العبارات الجوفاء، كانوا يتقاسمون آلاف الممتلكات اليابانية، وخاصة مجموعة ماتسوكاتا التي هيمنت على باريس منذ سبع سنوات.

كسر دالاس الصمت. عبّر صوته عن سأم، فقد أنهكت أسابيع من المفاوضات المتكررة صبره.

— سيد شومان، عليّ أن أعترف لك أن موقفك بشأن الممتلكات اليابانية الخاصة يطرح لنا بعض الصعوبات. تريد إدارة ترومان أن

تجعل من اليابان حليفًا موثوقًا في مواجهة الشيوعيين. مقارنة صارمة جدًا قد تخلق استياءً في الرأي العام الياباني. سيكون ذلك عكسيًا.

أجابه شومان بابتسامة لم تُفصح عن نواياه الحقيقية. تعلّم إخفاء أفكاره. — سيد دالاس، أصرّ على تذكيرك ببعض الحقائق التي يُنسى بعضها أحيانًا في نشوة المصالحة. تكبّدت فرنسا أضرارًا مادية وبشرية جسيمة بسبب العدوان الياباني في الهند الصينية. ناهيك عن التواطؤ الياباني مع ألمانيا النازية. تحترم مطالبنا القانون الدولي، ذلك القانون نفسه الذي ساهمت الولايات المتحدة في صياغته بعد 1918.

كان الوزير الفرنسي، في سرّ ضميره، يعلم أن على فرنسا أن تضرب بقوة أو تقبل بأن تبقى دولة من الدرجة الثانية. كان إذلال 1940 لا يزال يطارده، وكانت كل تنازل يُنتزع من الأعداء السابقين انتقامًا صغيرًا من الماضي.

فتح أمامه ملفًا كرتونيًا يحمل عبارة «سري - أضرار في الهند الصينية».

— قدّرت مصالحنا الأضرار بأكثر من عشرين مليار فرنك. تدمير بنى تحتية، خسائر في الإنتاج، مجازر بحق مدنيين فرنسيين... القائمة طويلة. من الطبيعي أن نسترد جزءًا من هذه المبالغ في شكل ممتلكات يابانية موجودة على أراضيها.

تدخّل السير أوليفر برصانة بريطانية تامة. لكن كلامه كان أقلّ براءة مما بدا.

— نريد جميعًا أن نجعل من اليابان حصنًا ضد التوسع السوفياتي في آسيا. يتضمن ذلك... سماعة معينة من جانبنا.

كان فرانكس يزن كل كلمة. خلف واجهته الودودة كان إحباط خفي يغلي. كانت الإمبراطورية البريطانية تتفكك، وكان يجب التعامل مع الأمريكيين الذين يُملون إرادتهم. هو الذي عرف عظمة الإمبراطورية الفكتورية شهد عاجزًا على انحدارها. كانت كل مفاوضة تذكره بأن لندن لم تعد سوى شريك ثانوي لواشنطن.

التفت نحو يوشيدا.

— وعلى كل حال، سيدي رئيس الوزراء، نودّ أن نعرف موقفكم بشأن مسألة الممتلكات الخاصة.

استمع يوشيدا إلى التبادل وهو يزن كل كلمة. أخذ الكلمة بحذر شديد كقائد بلد محتل. حمل صوته ثقل كل خيبات أمله. أمضى مسيرته وهو يؤمن بالحضارة الغربية، بقيمها في العدالة والنزاهة. كدّته الحرب، كاشفة أن الديمقراطية يمكن أن تكون قاسية بقدر الأنظمة الاستبدادية حين تكون مصالحها على المحك.

— أيها السادة، تفهم الحكومة اليابانية شرعية مطالبكم بشأن تعويضات الحرب. نحن مستعدون لتحمل مسؤولياتنا عن الأضرار التي سببتها السياسة العدوانية لبلدنا بين 1937 و1945.

سعى إلى التعبير عن اعتراض دون أن يبدو أنه يشكّك في إرادة المنتصرين. هو الذي دعا إلى الاعتدال شهد على تقطيع أوصال بلده على يد رجال تدثّروا بالفضيلة.

— غير أنه يجب التمييز بين ممتلكات الدولة اليابانية، التي يمكن مصادرتها بشكل مشروع بموجب التعويضات العامة، والممتلكات الخاصة لمواطنينا، التي تخضع لوضع مختلف وفقاً لتقاليد القانون الغربي.

أثارت الملاحظة، المصاغة بأدب، غضب إتيان فاسور. أتقن الممثل الفرنسي المساعد الملف عن ظهر قلب، اختير لذلك. كان لفاسور طموح خائب لشخص أمل في أعلى المناصب، لكنه اكتفى بأدوار ثانوية. كان يعوّض ذلك بحماس مفرط في تنفيذ مهامه.

— سيدي رئيس الوزراء، هذا التمييز ليس واضحاً كما تدّعي. توجد حالات عديدة استُخدمت فيها ممتلكات خاصة رسمياً لتمويل مجهود بلدكم الحربي، أو تشكّلت بفضل أرباح مستمدة من فتوحاتكم العسكرية. لنأخذ مثلاً ملموساً: مجموعة الفن الغربي الشهيرة التي شكّلها كوجيرو ماتسوكاتا توجد حالياً على الأراضي الفرنسية حيث وُضعت قانونياً تحت الحجز منذ 1944.

عبس يوشيدا. تسللت في صوته لمسة استياء لم يعد قادرًا على إخفائها. — سيد فاسور، هل تقترح أن كل الممتلكات اليابانية الخاصة تحمل طابعًا مشبوهًا ويمكن مصادرتها بحجة أنها ساهمت في مجهودنا الحربي؟

— لا، لسنا في منطق مصادرة عشوائية، أجاب فاسور بلطف مزيف لم يخدع أحدًا. لكن فيما يتعلق بمجموعة ماتسوكاتا، فقد شكّلها صناعي ساهمت مؤسساته للصلب والسفن بشكل كبير في المجهود الحربي الياباني. أدار ماتسوكاتا أحواض بناء السفن كاواساكي، التي بنت جزءًا مهمًا من أسطولكم الحربي. عدة بوارج وحاملات طائرات شاركت في بيرل هاربر وحملات المحيط الهادئ خرجت من أحواضه. من العادل إذن اعتبار أن ثروته الخاصة، وبالتالي مجموعته الفنية، تشكّلت بفضل أرباح صناعة الحرب.

كشفت الحجة عن كل السفسطة التي كان فاسور قادرًا عليها. برع في تحويل التقريبات إلى يقينيات والارتباطات إلى علاقات سببية. أثارت الحجة ضجة. رأى دالاس أنه يجب أن يتدخل، ليس عطفًا على اليابانيين بقدر ما هو حرص على الحفاظ على التوازن الإقليمي.

— المجموعة التي تذكرها، سيد فاسور، ما وضعها الحالي؟ التفت شومان، الذي رغب في الإجابة بدلًا من فاسور، إلى أحد مستشاريه الذي مدّ له مذكرة من أربع صفحات أعدت خصيصًا للمناسبة.

— سيد دالاس، وُضعت هذه المجموعة الفريدة قانونيًا تحت الحجز من قبل السلطات الفرنسية تطبيقًا لمرسوم 5 أكتوبر 1944 المتعلق بممتلكات الأعداء. تضم عدة مئات من أعمال الفن الغربي ذات قيمة لا تُقدّر.

— وأنتم تعتبرون أنه يجب مصادرتها بموجب تعويضات الحرب؟ سأل السير أوليفر.

— بالضبط، أكد شومان. تمثل تعويضاً مبرراً بالنظر إلى الأضرار الجسيمة التي تكبدتها فرنسا. وعلى أي حال، من المنطقي أن تبقى أعمال فنانين فرنسيين أو أوروبيين على قاررتها الأصلية.

نشر الوزير الفرنسي كل موهبته البلاغية. خلف حججه كان يختبئ رأي راسخ. كان لفرنسا الحق، بل الواجب، في استعادة ما جعلتها الحرب والاحتلال تخسره. بالنسبة إلى شومان، كانت الضرورات الأخلاقية ترفاً لا يستطيع تحمله سوى المنتصرين النهائيين.

احتج يوشيدا بحماسة غير معتادة عند هذا الدبلوماسي شديد الاعتدال. تهافت آخر أو هامه بشأن النزاهة الغربية.

— أيها السادة، عليّ أن أذكركم ببعض الحقائق الأساسية. كان ماتسوكاتا عاشقاً كبيراً للفن الغربي، راعياً مستنيراً شكّل مجموعته لغرض ثقافي بحت.

أدرك رئيس الوزراء الياباني أنه يشهد انتصار القوة على القانون، رغم كل الحيل القانونية التي أُلِبت به. هو الذي آمن طوال حياته بفضائل الدبلوماسية اكتشف طبيعتها الحقيقية: علاقة قوى متتكررة في زي نقاش أفكار.

عبس فاسور عبسة ساخرة تكشف الكثير عما كان يفكر فيه.

— سيدي رئيس الوزراء، النوايا الحسنة للسيد ماتسوكاتا، مهما كانت محترمة، لا تمحو للأسف الحقيقة الموضوعية بأن مجموعته تشكّلت بفضل أرباح صناعات ثقيلة خدمت بعد ذلك بشكل هائل جهازكم العسكري ضد الديمقراطيات الغربية.

انحنى نحو يوشيدا بتعبير تعاطف مزيف. تذوّق فاسور لحظة الهيمنة هذه. طوال مسيرته، اضطر إلى الانحناء أمام من هو أقوى منه. الآن، أمسك أخيراً بفرصة ممارسة هذه السلطة.

— لا تفعل فرنسا سوى استعادة ما يعود إليها بموجب التعويضات. لا وجود لأي عداً شخصي تجاه السيد ماتسوكاتا.

ظهرت الرهانات الحقيقية للمفاوضة على الملأ. حاول دالاس، الحريص على الحفاظ على توازن المؤتمر، إعادة توجيه النقاش. بدأ الأمريكي ينفذ صبره. بدت له هذه الخلافات الأوروبية حول مسائل الهيبة الثقافية تافهة أمام تحديات الحرب الباردة الناشئة.

— أيها السادة، أقترح أن نتناول المشكلة من زاوية أكثر واقعية. السؤال الحقيقي هو هل يجب أن تمنح المادة 14 من المعاهدة الدول الحليفة حق مصادرة كل الممتلكات اليابانية الموجودة على أراضيها، أم يجدر التمييز وفق طبيعة هذه الممتلكات.

اغتنم شومان الفرصة فوراً لتعميم النقاش لتمرير موقفه الخاص بشكل أفضل. عرف الوزير الفرنسي كيف يصوغ حالات فردية في مبادئ عامة.

— سيد دالاس، هذا ما نقترحه منذ البداية. يجب أن تنص المادة 14 بوضوح على أن لكل قوة حليفة الحق السيادي في الاحتفاظ بكل الممتلكات اليابانية الموجودة تحت اختصاصها الإقليمي، دون استثناء ودون قيد.

— لكن هذه الصياغة تبدو لي واسعة أكثر من اللازم، اعترض السير أوليفر. ستسمح نظرياً بمصادرات اعتباطية، دون رقابة أو طعن. عبّر فرانكس هنا عن قلق صادق. عرف المصرفي السابق أن الثقة تشكّل أساس أي نظام اقتصادي دولي. مصادرات منهجية أكثر من اللازم قد تُزعزع الاستقرار.

— لا، ردّ فاسور، لأن هذه المصادرات ستكون مؤطرة بتشريع كل بلد حليف. ستكون هناك إذن ضمانات للطعن أمام المحاكم الوطنية المختصة.

هزّ يوشيدا رأسه بمرارة لم يعد يسعى إلى إخفائها.

— سيد فاسور، الضمانات التي نتحدث عنها ستكون نظرية بحتة وبالتالي وهمية. عملياً، لن تُنصف أي محكمة وطنية مواطناً يابانياً ضد حكومته الخاصة.

أُخرجت الملاحظة الوفد الفرنسي للحظة. وضع يوشيدا للتو إصبعه على النفاق الجوهري للنظام المقترح. استعاد شومان زمام المبادرة بسرعة.

— سيدي رئيس الوزراء، أنت تُبالغ في تصوير الوضع. المحاكم الفرنسية مستقلة وتحترم حق الملكية بدقة. لكنها تحترم أيضاً شرعية الأعمال الحكومية المتخذة للمصلحة العليا للأمة.

— بعبارة أخرى، همس يوشيدا ببصيرة يائسة، لن يكون لمواطنينا في النهاية أي طعن فعال ضد قراراتكم بالمصادرة.

— أنت تُقدّم الأمور بطريقة سلبية أكثر من اللازم، دافع شومان عن نفسه. يتعلق الأمر ببساطة بتطبيق القانون الدولي التقليدي لتعويضات الحرب، كما وُجد منذ قرون في العلاقات بين الدول المتحضرة.

استخدم الوزير الفرنسي الحجة الكبرى للعصر: التذرع بـ«الحضارة» لتبرير ما لا يُبرّر. لم يكن شومان غافلاً عن مغالطاته الخاصة، لكن مصلحة الدولة كانت تسبق الاعتبارات الأخلاقية. كان يجب على فرنسا أن تستعيد مكانتها، مهما كانت الوسائل.

وزن دالاس، الذي أصغى بانتباه للتبادل الكاشف، كلماته. أدرك رجل الدولة الأمريكي أنه يشهد بناء آلية نهب مُقنّنة، لكن الضرورات غلبت على التحفظات الأخلاقية.

— أيها السادة، بعد التفكير المتأنّي في الحجج المقدّمة من الجانبين، أعتقد أننا نستطيع إيجاد اتفاق معقول يوفّق بين مصالح الأطراف المختلفة.

تُشاور مع مستشاريه قبل أن يتابع.

— يمكن أن تمنح المادة 14 الدول الحليفة الحق في الاحتفاظ بالملوكات اليابانية الموجودة على أراضيها بموجب تعويضات الحرب، لكن مع تحديد أن يُمارَس هذا الحق وفقاً لتشريعها الوطني الخاص وباحترام تقاليدها.

— هذا التوضيح لا يُغيّر شيئاً في جوهر المشكلة، احتج يوشيدا. بل يشكل تفاقماً لأنه يمنح مظهرًا من الشرعية لمصادرات ستبقى اعتبارية.

شعر رئيس الوزراء الياباني بالأرض تنزلق من تحت قدميه. كانت رؤيته الكاملة للعالم تنهار. هو الذي آمن بالمثل الغربية اكتشف أنها لم تكن سوى طلاء يغطي شهوات أرضية جدًا.

— ربما، أقرّ دالاس بصراحة فاجأت الجمع، لكنها تحمل ميزة الحفاظ على المظاهر والحفاظ على إطار أدنى. ستبقى كل دولة حليفة ذات سيادة في تطبيق تصورها الخاص للعدالة.

جسد الأمريكي هنا كل فلسفته. لا يهم ما هي القناعات ما دامت الأشكال محترمة.

وافق السير أوليفر بارتيك واضح.

— يبدو لي هذا الحل الوسط معقولاً ومتوازنًا. يحفظ مصالح الدول الحليفة مع الحفاظ على إطار يتجنب الاعتباطية المطلقة.

كان شومان يشعر بغبطة داخلية. حصل بالضبط على ما جاء يبحث عنه إلى سان فرانسيسكو. أساس دولي لا جدال فيه لإضفاء الشرعية على مصادرة مجموعة ماتسوكاتا وكل الممتلكات اليابانية الأخرى الموجودة في فرنسا.

— سيد دالاس، كل هذا يناسبنا تمامًا.

أدرك يوشيدا أنه في طريقه لخسارة المعركة. فشلت حججه الأخيرة في إضعاف عزيمة الغربيين. لم يعد لليابان المهزومة والمحتملة الوسائل لحماية الممتلكات الخاصة لمواطنيها في الخارج. كانت خيبة الأمل التي اجتاحتها متناسبة مع الآمال التي غداها بشأن هذا المؤتمر. آمن بسداجة أنه يستطيع الاستئناس بالضمير الغربي. اكتشف أن للضمير حدودًا جغرافية.

كُرسِت الأيام التالية لتنقيح آخر التفاصيل. كان يجب الحصول على الموافقة الرسمية لكل الوفود على النص النهائي. كانت كل فاصلة تُحسب. كل فارق دقيق قد يكلف ملايين.

في 8 سبتمبر 1951، تحوّل الأوبرا البلدية لسان فرانسيسكو إلى مسرح للنفاق. وقّعت ثمانٍ وأربعون دولة رسميًا على معاهدة السلام أمام مئات الصحفيين. نصّت المادة 14.2.1، ثمرة مساومات شرسة، في نسختها النهائية على أن لكل قوة حليفة الحق في «حجز، أو الاحتفاظ بـ، أو تصفية، أو استخدام بأي طريقة أخرى كل ممتلكات وحقوق ومصالح اليابان والمواطنين اليابانيين الموجودة على أراضيها».

جملة تبدو بريئة، غارقة في كتلة الأحكام المتعلقة بالتعويضات. في الواقع، ختمت مصير مجموعة ماتسوكاتا وآلاف الممتلكات اليابانية الأخرى المبعثرة في العالم. لن تعود هذه الممتلكات أبدًا إلى أصحابها، المحرومين الآن من أي طعن.

بعد التوقيع بوقت قصير، دبّرت الصحافة الفرنسية مهرجانًا حقيقيًا من سوء النية. أطلعت المصالح الرسمية جيدًا اتصالاتها. تصدرت لوفيفارو بثقة: «فرنسا تسترد روائع يابانية». شرح لوموند بتبجح أن «هذه الأعمال لفنانين فرنسيين تستعيد أرضها الأم». حتى الهومانيته صفّقت لـ «دمقرطة الوصول إلى الفن بنقل مجموعات خاصة نحو المتاحف الوطنية».

وافق الرأي العام الفرنسي، الجاهل إلى حد كبير للرهانات الحقيقية، بكثافة. من كان يستطيع أن يعترض على حق فرنسا في التعويض من أعدائها السابقين؟ جرّوت بعض الأصوات المعزولة، في الأوساط الفنية الأكثر اطلاعًا، على التساؤل بخجل عن الشرعية الأخلاقية لهذا الاستيلاء الواسع.

وصلت الآلية الموضوعية بمهارة كبيرة للتو إلى كمالها. ضاعت مجموعة ماتسوكاتا بالنسبة لورثتها، محاصرة في شباك نُسجت بإحكام إلى حد أنه سيلزم عقود لفكّ كل آلياتها الملثوية.

والأخطر من ذلك، أن القضية خلقت سابقة كبرى سئلهم العديد من عمليات النهب «القانونية» الأخرى. كل مرة ترغب فيها دولة في الاستيلاء على ممتلكات أجنبية، ستستطيع الرجوع إلى معاهدة سان فرانسيسكو والتفسير الفرنسي للمادة 14.

في الأشهر التالية، استشهد بهذا السابقة القضائية في كل مكان. استخدمه البريطانيون لمصادرة مزارع ألمانية في ماليزيا. استخدمه الأستراليون للاستيلاء على ممتلكات يابانية في جنوب المحيط الهادئ. حتى بعض بلدان أمريكا الجنوبية أشارت إليه لتأميم شركات أجنبية. خلقت قضية ماتسوكاتا، شبه بالصدفة، مفهومًا جديدًا، «التعويض الثقافي». وفقًا للنظرية التي بناها القانونيون الفرنسيون لاحقًا، كان بإمكان دولة ضحية عدوان أن تستولي على الممتلكات الثقافية للمعتدي، ليس فقط كتعويض مالي، بل أيضًا لـ «إثراء التراث الثقافي الوطني».

عقيدة منظمة في عدة أطروحات دكتوراه. مقالات علمية في المجالات المتخصصة. تدريس في دورات القانون الدولي العام. في غضون سنوات قليلة، أصبح ما كان في الأصل مجرد استيلاء انتهازية نظرية محترمة. كمن عبقرية العملية الفرنسية في تحويل عمل قوة إلى مبدأ قانوني.

في اليابان، كانت العواقب البشرية لهذه السرقة تُشعر بقسوة. شهدت عائلة ماتسوكاتا، المفجوعة بوفاة البطريرك في يونيو 1950، عاجزة تصفية إرثها الفني.

كانت هانا ماتسوكاتا، الابنة الكبرى للجامع الراحل، تجمع غالبًا أفراد العائلة الباقين على قيد الحياة في المنزل الأثري في كاماكورا. شهدت هذه اللقاءات، المشبعة بحزن لا حدود له، على ارتباك عائلة أمام قوة الآلية التي انطلقت ضدها.

— يا إخوتي الأعزاء، صرّحت في أحد هذه اللقاءات في خريف 1951، وهي تتصفح الصحف التي تحدثت عن توقيع المعاهدة، تشرح

الصحافة أن الحكومة قبلت شروط الحلفاء. يقولون إن ذلك من أجل إعادة إعمار البلد، من أجل مستقبلنا. لكننا نعرف جيدًا ماذا يعني ذلك: مجموعة آبيننا ضائعة. ضائعة نهائيًا.

تسللت في صوته استسلامية مريرة. ورثت هانا عن أبيها شغفه بالفن، لكن أيضًا بصيرته أمام موازين القوى الدولية. عرفت أن عائلتها تدفع ثمن أخطاء نظام عسكري لطالما رفضته.

كان هيروشي ماتسوكاتا، الابن الأصغر ووريث الشركات العائلية التي فككها المحتل، ينظر إلى الأعمال الغربية القليلة الناجية من الحرب التي لا تزال تزيّن الصالون. كان يمسك بين يديه رسالة مُجَعَّدة، إحدى آخر الرسائل التي كتبها أبوها قبل وفاته.

— كان أبونا محققًا في قلقه هذه الأشهر الأخيرة. أتنذكركين، هانا؟ لم يعد ينام، كان يدور في المنزل. توقّع أن الفرنسيين لن يُعيدوا أعماله أبدًا. كان يقول لي غالبًا، قرب النهاية: «وجدوا وسيلة لتحويل سرقة إلى عمل قانوني، يا هيروشي. إنها أناقة شيطانية». ظننت أنه يبالغ، أن المرض يجعله متشائمًا... حمل صوته ثقل ذنب خفي. لام هيروشي نفسه لأنه لم يأخذ قلق والده على محمل الجد. اعتقد أن المسائل الفنية كانت ثانوية أمام رهانات إعادة الإعمار الاقتصادية.

تدخّل كوسوكي، أصغر الإخوة، بسداجة مؤثرة تخص الأصاغر.

— لكن أخيرًا، ألا نستطيع أن نلجأ إلى المحاكم الفرنسية؟ نوظّف محامين؟ ندافع عن قضيتنا؟ لا بد أن هناك وسيلة... كان أبي محترمًا في فرنسا، كانت له علاقات، أصدقاء في الأوساط الفنية...

هزّت هانا رأسها بحزن. كانت قد استكشفت بالفعل كل هذه المسارات، اتصلت بهدوء ببعض المعارف في باريس. كانت خيبتها متناسبة مع الآمال التي غدّتها.

— بأي مال، يا كوسوكي المسكين؟ صودرت ممتلكاتنا، فُككت شركاتنا، دُمّرت عائلتنا. وحتى لو كانت لدينا الوسائل، وهذا ليس صحيحًا، صدّقي، هل تتخيل أن محكمة فرنسية ستُنصف يابانيين؟ أصبحنا منبوذين، أعداء سابقين يُتحمّلون بالكاد.

نهضت واتجهت نحو الشرفة المطلة على حديقة العائلة حيث كانت لا تزال بعض المنحوتات الغربية تشهد على شغف أبيهم. كان رؤيتها هناك، متروكة لتقلبات الطقس لعدم توفر وسائل صيانتها، يعصر قلبها. — يا إختوتي، لم تعد المجموعة هي ما يهمني حقًا. حسنًا، بالطبع أنها تؤلمني. لكن ما يُثير سخطي بشكل خاص هو فكرة أن بلدًا متحضرًا كفرنسا يمكنه الاستيلاء على ممتلكات جامع تحف خاص... كان أبي يُعجّب كثيرًا بهذا البلد. كان له فيه أصدقاء، عاداته. وهكذا يشكرونه. إنه موت الفن المتجاوز للحدود والأحقاد الوطنية.

جسدت المحادثة الدراما الإنسانية التي كانت تخبئ خلف ملف ماتسوكاتا. لكن من كان يهتم بها؟

لم يكن لدى السلطات الفرنسية، المنشغلة بإدارة الجوانب العملية لاستيلائها، وقت كبير لهذا النحيب. كانت الساعة ساعة تنظيم إدماج المجموعة في التراث الوطني. كان يجب فعل شيء ملموس، ظاهر.

منذ خريف 1951، أطلق جاك جوجار برنامجًا واسعًا لترميم وفهرسة الأعمال المصادرة. شكّلت فرق لتقييم حالة كل قطعة، وإعداد بطاقات مفصلة. بدأت آلية إدارية كبرى في العمل.

— أيها السادة، صرّح جوجار، لدينا مسؤولية، أصرّ على هذه الكلمة، في الحفاظ على هذا التراث وإبرازه. يجب أن نُظهر للعالم بأسره أن فرنسا كانت البلد الأفضل تأهيلًا لاستقبال هذه الروائع. لا مجال لتترك القول إننا استولينا على غنيمة حرب.

خلف ثقته العلنية، كان جوجار يُضمر تحفظات كانت تُقلقه ليلاً. مقاومًا خلال الاحتلال، خاطر بحياته لإنقاذ المجموعات الوطنية من شهوات النازيين. الآن، وجد نفسه في موقع الناهب الذي حاربه. لم تفته سخرية الوضع، لكنه كان يكتبها باسم المصلحة العليا لفرنسا.

كان برنار دوريفال، المكلف بالإشراف على العملية، متورطًا للغاية. كان يصفّل شغفًا نهمًا بالفن الحديث يقارب الهوس.

— لدينا هنا فرصة فريدة لإحداث ثورة في مقتنياتنا الوطنية! بهذه الأعمال، ستستطيع متاحفنا أخيرًا مضاهاة المتروبوليتان، والموما، والمعرض الوطني...

أخفى دوريفال إحباطاً شخصياً عنيداً. أمين متحف من الدرجة الثانية طوال مسيرته، رأى في قضية ماتسوكاتا فرصة لترك بصمته على الفن الفرنسي. وجد طموحه الخائب أخيرًا متنفساً في هذا المشروع الكبير.

في يونيو 1952، فتح اللوفر أبوابه على معرض بعنوان «روائع مُستعادة: الفن الغربي في خدمة الثقافة الفرنسية».

تنقل وزير التربية الوطنية شخصياً. عبرت كل النخبة الباريسية أروقة المتحف. نقاد الفن، أهل المجتمع الباحثون عن الثقافة، الرواد المعتادون على حفلات الافتتاح الفاخرة.

«إثراء رائع!» تصدّرت فرانس ديمانش. رددت الصحف الأخرى الصدى معاً. الحماس نفسه لدى الزوار الذين تراحموا أمام اللوحات. اكتشف كثيرون أعمالاً لم يكونوا ليأملوا يوماً رؤيتها على هذا الجانب من الأطلسي.

في المجالات المتخصصة، تنافس الخبراء في العلم. تحليلات معمّقة عن أهمية المجموعة، ملاحظات علمية عن إسهامها في التراث الفرنسي. سادها الإجماع.

أخيراً، تقريباً.

ذكَر بعض مفسدي الاحتفال، أساساً من صفوف اليسار المتطرف، بهدوء بالظروف المشبوهة لهذا «الإثراء». لكن ضاعت احتجاجاتهم في ضجيج التهاني الرسمية. وعلى أي حال، من كان يرغب في سماع مفسدي المتعة بينما يستطيع المرء الإعجاب بمونيه ورينوار؟

تبَنَّى الرأي العام الفرنسي بسرعة مجموعة ماتسوكاتا. كأنها كانت دائماً جزءاً من المشهد الثقافي الوطني. مهمة ناجحة إذن.

خلق الأمر الواقع شرعيته الخاصة.

لكن لكل آلية جميلة عيوبها. وكانت هذه الآلية تقوم على كذبة كبرى. خلافاً لتأكيدات الدعاية الرسمية، لم يكن كوجيرو ماتسوكاتا «مستفيداً من الحرب» بأي شكل. صحيح أن مؤسساته شاركت في المجهود الصناعي الياباني. لكن كأى مؤسسات في بلده، دون أن يكون له أدنى خيار أمام نظام عسكري استبدادي.

والأكثر إثارة للحرع، أن مجموعته تعود إلى ما قبل الحرب. بعيداً عن تجسيد العدوانية اليابانية، كانت المجموعة تُرمز إلى يابان منفتح على العالم، محترم لثقافات الآخرين.

ستبقى الحقيقة، مكتومة بفعل الرواية الفرنسية الرسمية، طويلاً في الظل.

في هذه الأثناء، في المستودعات المكيفة للوفر والمتاحف الفرنسية الأخرى، كانت الأعمال المصادرة تشهد بصمت على دراما إنسانية لم يرد أحد رؤيتها. ولا سماعها.

في الوقت الحالي، أواخر 1952، بدا الملف مغلقاً. لم يبقَ لعائلة ماتسوكاتا، المفجوعة والمُخرَّبة، سوى البكاء على ذكرى بطيركها. حرمت وفاة كوجيرو ماتسوكاتا العائلة من زعيمها الأكثر احتراماً. لن يحتفظ سوى أبنائه بالذكرى المريرة لكل هذه القضية.

سُكِّرس هانا ماتسوكاتا لها بقية حياتها. جامعة بصبر كل الوثائق المتعلقة بمجموعة أبيها. على أمل أن ينتصر الحق يوماً ما. أمل بدا واهياً جداً في 1952. سيتعين الانتظار حتى نهاية عام 1958 لتبدأ الأمور بالتحرك.

الفصل الخامس: مهزلة الاستعادة

لا بواسري، كولومبي لي دو إغليز، ديسمبر 1958

لم يُرضِ استيلاء الدولة الفرنسية على مجموعة ماتسوكاتا كلها بعد معاهدة سان فرانسيسكو أحدًا. صحيح أن الدولة الفرنسية استطاعت الاحتفاظ بكل شيء. لكن منذ بضعة أشهر بدت لفظة للحفاظ على علاقات جيدة مع اليابان مناسبة. كان يُنظر إلى استعادة جزئية. كان الأمر يتعلق بعمل طوعي، فُدم كعمل سخي...

كان الجنرال ديغول، الذي عاد إلى الحكم قبل بضعة أشهر عقب انقلاب الجزائر في 13 مايو 1958، رئيسًا لمجلس الوزراء الآن. أمضى نهاية الأسبوع في إقامته الخاصة «لا بواسري» في كولومبي لي دو إغليز. كانت الإقامة دراسية. كُرس يوم السبت بأكمله لقراءة ملفات عديدة، خصوصًا مشروع مرسوم متعلق بمجموعة ماتسوكاتا أعدّه ميشيل دوبريه، وزير العدل.

في صباح هذا الاثنين، كان الجنرال يستعد للعودة إلى فندق ماتينيون، حيث يقيم رئيس الحكومة.

نحو الساعة الثامنة، كانت سيارة الدي إس 19، التي يقودها سائقه فرنسيس مارو، جاهزة. صعد الجنرال وجلس في المقعد الخلفي الأيمن للسيارة. كان هذا عادة المقعد المخصص لزوجته إيفون. لكن هذه الأخيرة كانت مريضة، فلم تكن ضمن الرحلة ذلك اليوم. في المقدمة، أعطى معاون الميدان، الكولونيل غاستون دو بونفال، إشارة الانطلاق. خريج سان سير، خدم أولاً في المشرق قبل أن ينضم إلى المقاومة. اعتقلته الغستابو سنة 1943، رُجّل إلى معسكر ماوتهاوزن وأطلق سراحه سنة 1945. مؤتمن الجنرال، كان مرافقه المخلص خلال «عبور الصحراء»، تلك الفترة الصعبة التي لم يمارس فيها ديغول أي مسؤولية حكومية وانسحب من الحياة السياسية النشطة.

كان الجنرال يجد صعوبة في التعود على التعليق الهيدروليكي-الهوائي لسيارته الجديدة الذي كان يُسبب له غثائًا. كان يُفضل عليه

بكثير سيارة الدفع الأمامي ذات 15 حصاناً وستة أسطوانات التي كان يستخدمها سابقاً. لكن سيارة الدي إس 19 هذه هي التي ستقذ حياته بعد بضع سنوات في محاولة اغتيال بوتى كلامار. رغم إصابة إطارين بالرصاص، واصلت السيارة السيتروين طريقها حتى مطار فيلاكوبلاي، بفضل الضبط التلقائي لمستوى التعليق ونظام العجلات المستقلة.

كان الموكب، المكوّن من سيارة متابعة وشرطيّين على دراجتين ناريتين من الدرك، يسير منذ ما يقارب الساعة.

أشار الجنرال إلى بونفال، طالباً التوقف لتمديد ساقيه. لحظة العودة إلى الطريق، دعاه للجلوس بجانبه. كان بونفال مطرباً حين يُظهر له الرجل العظيم قربهِ على هذا النحو.

— بونفال، لديّ بعض الأسئلة أطرحها عليك بشأن قضية تشغل بالي. كان ديغول، الأكبر من معاونه بنحو عشرين عاماً، يستشيرهِ غالباً في رأيه. كان الفارق الجيلي ثميناً له لأخذ نظرة مختلفة.

— أيها الجنرال، أنا في تصرفك الكامل.

شرح ديغول بسرعة لبونفال ماهية الأمر. لخص له مشروع المرسوم الذي اقترحه دوبريه.

— بونفال، إذا كان علينا أن نُعيد لليابانيين جزءاً من الأعمال التي نحتفظ بها، هل تظن أن الرأي العام سيصدم؟ أن الصحافة سترد الفعل بشكل سلبي؟

— أيها الجنرال، لست مطلقاً متخصصاً في الموضوع. أخشى ألا تكون وجهة نظري ذات فائدة كبيرة لك. لكنني أظن أن السكان في هذه اللحظة أكثر انشغالاً بأحداث الجزائر. الأمهات قلقات لأن الجيش عباً المجندين. كل يوم يموت أو يُصاب عشرات الجنود في مناوشات. أما الصحافة، فهي معادية لك عموماً من حيث المبدأ. هذه القضية اليابانية لن تُثير حماس الكثيرين. للرأي العام أولويات أخرى كثيرة...

— نعم، لكن على الصعيد الدولي، ألا يخاطر ذلك بأن يضرنا؟

— أيها الجنرال، منذ نوفمبر الماضي، كل السفارات مضطربة بإنذار نيكيتا خروتشوف السوفياتي للقوى الغربية لسحب قواتها من برلين الغربية خلال ستة أشهر. من غير المرجح، في هذا السياق، أن تثير مسألة مجموعة ماتسوكاتا الثانوية ضجة.

— شكرًا لك بونفال. كعادتك، رؤيتك للأمور تحمل طابع الحس السليم...

كانت الساعة 11:30. قُطعت المسافة البالغة مئتين وثلاثة وستين كيلومترًا الفاصلة بين «لا بواسري» وفندق ماتينيون دون معوقات. التحق ديغول فورًا بمكتبه حيث كان اجتماع مُبرمجًا. في غرفة الانتظار، كان عدة معاونين ينتظرون منذ نصف ساعة. بعد التحيات المعتادة، أمكن للنقاش أن يبدأ.

— أيها الجنرال، صرّح دوبريه وهو يشير إلى الوثيقة المجلدة المنتشرة على المكتب، بهذا النص، الذي أطلعتك عليه الأسبوع الماضي، سنستطيع حل المسألة الشائكة لمجموعة ماتسوكاتا. مع الحفاظ، بالطبع، على مصالحنا الثقافية الأساسية.

كان دوبريه قانونيًا بالتكوين، لكن سياسيًا بالميل. كان ديغول، الذي تعامل شخصيًا مع هذا الملف الشائك سنة 1944 عند وضعه تحت الحجز، يتصفح مجددًا مواد مشروع المرسوم بالاهتمام الذي كان يوليه لمسائل السيادة الوطنية.

— سيدي وزير العدل، ذكّرني بشروط الاتفاق الذي تفاوض عليه رجالنا مع اليابانيين. أريد أن أتأكد من أننا لا نُعطي شيئًا قد يعرّض موقفنا للخطر.

— أيها الجنرال، الاتفاق الذي حصلنا عليه مؤاتٍ لمصالحنا. الجانب الأكثر أهمية هو التنازل النهائي واللارجعة الذي حصلنا عليه من ورثة ماتسوكاتا بشأن المجموعة بأكملها، بما في ذلك الأعمال التي نحفظ بها. يغطي الاتفاق أيضًا كل جوانب الشكل. سيُصادق عليه من

قبل السلطات اليابانية المختصة ويُسجّل وفق الإجراءات الدولية المناسبة.

أصغى أندريه مالرو، الوزير المنتدب المكلف بالإعلام، بانتباه. تحدث عندئذ بالإسهاب الذي ميّز كل خطابه عن الفن. كان الشغف الجمالي عنده يتعايش مع ذوق مفرط للفخامة الخطابية كان يقارب السخف.

— أيها الجنرال، يحفظ هذا الاتفاق بذكاء جوهر مقتنياتنا مع منحنا مظهر السخاء الدولي. تحتفظ فرنسا بالأعمال الثمانية عشر الأكثر أهمية. في المقابل، «نمنح» اليابان بقية المجموعة. أي نحو ثلاثمائة عمل أقل أهمية، لتُعرض في متحف يُبنى خصيصاً في طوكيو. نُحوّل بذلك استعادة مفروضة إلى لفّة مصالحة رائعة.

— أخبرني أكثر عن قبول الورثة بهذا الترتيب، سأل ديغول بريية رئيس الحكومة الذي تعلّم الحذر من الانقلابات.

أخرج موريس كوف دو مورفيل، وزير الخارجية والدبلوماسي الحذر، من حقيبتة الجلدية بشكل احتفالي عدة رسائل رسمية مزينة بأختام ثلاثية الأبعاد.

— أيها الجنرال، حصلنا على تنازل واضح وغير قابل للطعن من الورثة. ها هي الرسالة الرسمية الموقعة من ممثلهم سابورو ماتسوكاتا. في هذه الوثيقة، يتنازل صراحة ونهائياً عن كل الحقوق الحالية والمستقبلية على مجموعة أبيه الراحل بأكملها.

فتح الوثيقة بحذر.

— تفاوضنا لأشهر للحصول على هذه الورقة. تغطي ليس فقط الأعمال التي نُعيدها، بل أيضاً وخصوصاً تلك التي نحفظ بها. يمنع الورثة أنفسهم رسمياً من أي طعن لاحق، أمام أي جهة قضائية.

فحص ديغول الوثيقة بانتباه، متفحصاً كل كلمة. كان يكره هذه المساومات حيث كانت عظمتها المتخيّلة تصطدم بتفاهات اليوميات.

— أتبدو لك هذه التنازل متينة ونهائية؟ أتحققت مصالحنا القانونية من كل الجوانب؟

— بالتأكيد، أكد جورج بومبيدو، مدير مكتب الجنرال حينها. فحصنا كل الجوانب الشكلية. لا يمكن الاحتجاج بأي ثغرة.

كان بومبيدو، خريج المدرسة العليا للأساتذة وحائز على شهادة التبريز في الآداب الكلاسيكية، قد بدأ كأستاذ في ثانوية في مرسيليا قبل أن يلتحق بمجلس الدولة ثم ببنك روتشيلد. علّمه مروره بالبنك مهارة الصفقة المربحة، لكنه غدّى فيه أيضاً افتتاً مضطرباً بالمال يتناقض مع أذواقه الأدبية الرفيعة. أشرف شخصياً على الجوانب المالية للمفاوضة. عرف سعر السوق وعلم أن فرنسا تُجري هنا عملية مربحة.

— وعلى أي حال، أضاف، تمثل الأعمال الثمانية عشر التي نحتفظ بها وحدها أكثر من 80% من القيمة الإجمالية. نحتفظ بالزبدة ونُعيد اللبن، إن جاز التعبير.

عرض مالرو بشاعرية تصوره للعملية.

— أيها الجنرال، يجسّد هذا الملف عظمة فرنسا الخالدة وسخاها الثقافي! نحن لا نكتفي بالاحتفاظ الأناني بهذه الروائع في مستودعاتنا كجامعي تحف عاديين. نمناها للشعب الياباني ليكتشف الفن الغربي، مع الاحتفاظ بالقطع الأكثر تمثيلاً لإثراء تراثنا الوطني.

كان يتحرك بشغف، يرمش بعينه بشكل محموم، عادة تشتد حين يفعل.

— هذه دبلوماسية ثقافية بأعلى مستوى، أيها الجنرال! تتحمل فرنسا دورها كأمة حضارية بالكامل وتحوّل نزاعاً إلى أداة إشعاع!

— مالرو، تدخّل ديغول، تعرف كما أعرف أننا لا «نهب» شيئاً على الإطلاق. نكتفي بإعادة ما لم يعد بإمكاننا أخلاقياً الاحتفاظ به مع الاحتفاظ بما يهمننا أكثر.

أسكتت ملاحظة الجنرال الحادة مالرو للحظة، فاكتمى بالموافقة بإيماءة رأس مخرجة. كشف احمرار خفيف عن ارتبائه. حتى في أشد انفعالاته صدقاً، احتفظ بما يكفي من البصيرة لضبط حدود بلاغته. وافق دوبريه، الحريص على إعادة النقاش إلى الجوانب العملية، على

بصيرة ديغول معجباً في الوقت نفسه بقدرة الجنرال على الحسم الفوري.

— أيها الجنرال، أدركت الرهانات الحقيقية للعملية. لكن المهم، للتواصل الوطني والدولي، هو أن تبدو الاستعادة الجزئية كلفتة سخاء حقيقية من فرنسا تجاه اليابان. سيساهم ذلك بشكل كبير في التقارب بين بلدينا في لحظة نحتاج فيها إلى حلفاء في آسيا.

أوضح كوف دو مورفيل، الحريص على التداعيات طويلة الأمد، الرهانات التي كانت تُسند المفاوضة بأكملها.

— تدرج القضية في إطار سياستنا الآسيوية الجديدة الأوسع، أيها الجنرال. أصبحت اليابان شريكاً اقتصادياً بأهمية بالغة لأوروبا. لنا مصلحة كبرى في الحفاظ على علاقات ممتازة مع طوكيو أمام صعود القوة الصينية. يتوطّن مصدرّونا الفرنسيون بجدية في السوق اليابانية، يوقع صناعيون عقوداً مهمة مع نظرائهم اليابانيين، تفتح بنوكنا فروعاً في طوكيو. في هذا السياق، سيكون من الغباء ترك خلاف ثقافي يُسمّم علاقاتنا الثنائية. من أجل بضع لوحات لا نُخرجها أبداً من مستودعاتنا... اتصلت بهدوء بروبير شومان، عضو لجنة الشؤون الخارجية في الجمعية الوطنية. يعرف الملف جيداً لأنه مثّل فرنسا خلال مفاوضات معاهدة السلام في سان فرانسيسكو سنة 1951. رأيه واضح: تفرض مصالحنا الحالية إعادة معظم المجموعة إلى اليابان.

— حسناً، صرّح ديغول. لكن لنعد إلى الجوانب الدستورية للعملية. لماذا نمضي بمرسوم بدلاً من الطريق التشريعي العادي؟

أثار السؤال المباشر والمُخرج ضيقاً واضحاً حول الطاولة. تبادل دوبريه نظرة محرّجة مع بومبيدو. دفعه طموحه الشخصي إلى إرضاء ديغول، لكن خلفيته كقانوني كانت تهمس له بمخاطر الانزلاق الاستبدادي.

— أيها الجنرال، كان الطريق التشريعي العادي سيتطلب أشهراً، بل سنوات من المناقشات البرلمانية. مع كل الاحتمالات التي يحملها ذلك. يسمح لنا المرسوم، الذي يندرج ضمن السلطة التنظيمية، بالمضي

أسرع بكثير وتجنب نقاش عام قد يصبح محرجًا للحكومة. أتنخيل النواب الشيوعيين يستولون على الملف؟ أو الأسوأ، الديغوليين من الساعة الأولى الذين سيلومونا على «التفريط بالتراث الوطني»؟

— محرج؟ بأي معنى بالضبط، سيدي وزير العدل؟ ألح ديغول بفضوله الذي لا يرحم. كانت له تلك الموهبة الخاصة في الشعور بأنه يُخفى عنه شيء.

تردد دوبريه. كان المحامي فيه يصارع المتملق.

— حسناً، أيها الجنرال... قد يرغب نواب المعارضة في التنقيب. وربما حتى بعض نواب أغليبتنا. قد يتساءلون عن الظروف الدقيقة التي استولينا فيها على المجموعة سنة 1944. من الأفضل تجنب إيقاظ هذه الجدالات القديمة التي لا تؤدي إلى شيء.

تدخل كوف دو مورفيل بهدوء، وقد غلب تحفظه مؤقتاً على ولائه.

— وعلاوة على ذلك، سيمنح نقاش برلماني بالضرورة منبراً لورثة ماتسوكاتا. ولكل من يرغب في الطعن في روايتنا للوقائع.

تجهّم ديغول. بشكل خطير. عرف من كانوا يعرفونه ما يعنيه ذلك. لم تكن أنه تحتمل أن تُشكك قراراته الماضية، خصوصاً تلك المتخذة في فوضى التحرير.

— أيها السادة، أمل صادقاً ألا تقترحوا عليّ أن استيلاء 1944، الذي قررته وتحملت مسؤوليته بنفسه، كان مهزوزاً؟ أو قابلاً للنقد أخلاقياً؟

— لا، بالطبع، أيها الجنرال! أجاب دوبريه. مطلقاً لا! لكنك تعرف جيداً كيف تكون المناقشات البرلمانية... غالباً ما تتجرف نحو اعتبارات ثانوية. ويحب خصومنا ذلك.

شعر مالرو أنه يجب تهدئة الأجواء. كان وزير الثقافة يُتقن إعادة النقاشات إلى أرضية أكثر مواتاة، وكانت غروره الفكري تخدم بشكل متناقض المصالح الجماعية.

— أيها الجنرال، يحمل المرسوم أيضًا ميزة كبيرة. لا يتعلق الأمر بإجراء إداري روتيني، بل بعمل سياسي كبير. يندرج في رؤيتك لعظمة فرنسا وإشعاعها الثقافي في العالم.

بدا ديغول مطمئنًا. كان للإطراء المصاغ جيدًا هذا التأثير عليه دائمًا، مُغذّيًا حاجته للاعتراف التي كانت تتعايش بغرابة مع احتقاره المعلن للرأي العام.

— حسنًا، أيها السادة. لكن هل يحترم المرسوم أحكام دستورنا؟ أدرك الجميع أنهم يسيرون على أرض زلقة من الناحية الدستورية. لكن لم يجرؤ أحد على الاعتراف بذلك علنًا أمام الجنرال. خاض بومبيدو المياه بمهارة. علّمه تكوينه كمصرفي كيف يتجاوز العقوبات القانونية دون أن يُورط نفسه.

— أيها الجنرال، الدستور نص حي. يجب أن يتكيف مع متطلبات العمل الحكومي الملموسة. يندرج المرسوم في روح مؤسساتنا.

— بومبيدو، ردّ ديغول، الدستور ليس أكورديونًا يُمدّد وفق الظروف. صيغ بدقة لضبط عمل السلطات العامة.

أدرك دوبريه أن الوضع أصبح حرجًا. قرر أن يكشف أوراقه.

— أيها الجنرال، نرغب جميعًا أن توقّع، لأن ذلك سيحل مشكلة تُزعجنا. وبدأت تثقل على علاقتنا مع اليابان. من الناحية الدستورية الصرفة... قد لا يكون المرسوم أرثوذكسيًا تمامًا، لكنه يخدم بلا شك المصالح العليا لفرنسا.

طمأن هذا الصديق الصريح ديغول بشكل متناقض. قدّر أن يُحدّث دون مواربة، مُفضّلًا الحقيقة الخام على الالتفاتات الدبلوماسية التي كانت تُزعجه.

— سيدي وزير العدل، أقدر صدقك. حسنًا. لكن لا تطلب مني بالطبع أن أصدّق أن الإجراء خالٍ من المآخذ على الصعيد الدستوري. نعم جميعًا أن الأمر ليس كذلك.

اغتنم دوبريه الفرصة فورًا.

— أيها الجنرال، هل يعني هذا أنك توافق على التوقيع؟
كان ديغول يزن إيجابيات وسلبيات قراره. انتصرت واقعيته المصقولة
في المحن في النهاية على مثله.

— نعم، سيدي وزير العدل، أوافق على التوقيع. لكن بشرط مطلق
وغير قابل للتفاوض: يجب أن يُصاغ المرسوم بطريقة تحفظ شرف
فرنسا وكرامتها بالكامل. يجب ألا نبدو أبدًا كناهيين مبتذلين أو
مصادرين اعتباريين.

سارع مالرو لطمأنة ديغول بشأن هذه النقطة الحاسمة، وكان حسه
الوطني يهتز بانسجام مع حس الجنرال.

— أيها الجنرال، تُصرّ ديباجة المرسوم على عظمة فرنسا التقليدية
ودورها الحضاري. نؤكد صراحة أن الاستعادة الجزئية تتم «بروح
المصالحة والتعاون الثقافي بين فرنسا واليابان». تشهد على سخاء
فرنسا تجاه خصم سابق.

— وفيما يخص تحديدًا الأعمال الثمانية عشر الكبرى التي نحفظ بها؟
— نُوضّح رسميًا أنها مُخصّصة لـ«إثراء التراث الثقافي الفرنسي
لأعظم فائدة للجميع». وأنها ستُعرض «في أرقى متاحفنا الوطنية
للتربية الفنية لمواطنينا وزوار العالم بأسره». لن يستطيع أحد أبدًا أن
يلومنا على التصرف بروح ضيقة أو أنانية.

أومأ ديغول برأسه، مقتنعًا بالصياغة التي تحفظ صورة فرنسا. وجد
الوسيلة للتوفيق بين مصالحه السياسية وتصوره لعظمة فرنسا.

— هذا يناسبني، أيها السادة. سُويت قضية ماتسوكاتا.
أخذ قلمه الذهبي المزخرف بشعار الجمهورية ووقع المرسوم بحركة
حازمة ونهائية.

لكن على بُعد بضع مئات الأمتار من ماتينيون، في ملحق صغير من
القصر الملكي، كانت الأجواء أقل انتصارًا بكثير. كان أندريه
بوغيفال، مستشار وزارة الثقافة، يُعيد قراءة نص المرسوم للمرة

العاشرة. منعه ضمير مهني دقيق، موروث عن تكوينه كقاضٍ، من غض الطرف عن أكثر المخالفات وضوحًا. أمامه، في الغرفة ذات الجدران المغطاة برفوف مثقلة بالملفات، كان بيير موينو، المفتش العام للمتاحف، يشاركه هواجسه علنًا. بنى سمعته على نزاهة تقارب الصرامة، لكنها كسبته احترام كل زملائه.

— أندريه، صرّح موينو، هذا المرسوم يُشعّرنِي بضيق شديد على الصعيد الأخلاقي المهني. نحن، موضوعيًا، بصدد التصديق على إجراء مشكوك في دستوريته لتغطية استيلاء كان مشكوكًا فيه بالقدر نفسه.

وافق بوغيفال بمرارة، وقد نحتت أسابيع الأرق ملامحه.

— هذا ما أفكر فيه منذ أسابيع، بيير. لا يمكن للمادة 92 من الدستور بشكل لائق أن تكون أساسًا قانونيًا لعملية منح فنية كهذه. سيلزم قانون يُصوّت عليه بشكل نظامي من قبل البرلمان، بنقاش عام وإمكانية تعديلات.

— وماذا نخاطر به فعليًا إذا طُعن في المرسوم يومًا ما أمام مجلس الدولة؟ من قبل الورثة أو قانونيين مستقلين؟
فكّر بوغيفال طويلاً.

— بصراحة، بيير، لا أعرف ماذا سيحدث. وهذا بالضبط ما يقلقني. يعتاد مجلس الدولة على احترام صلاحيات الحكومة في مجال السياسة الخارجية. يتجنب التدخل في تفاصيل دبلوماسيتنا. لكنه أيضًا متمسك عمومًا باحترام الإجراءات الدستورية. ولا يتردد في إدانة تجاوزات السلطة. المشكلة هي أننا نجد أنفسنا في منطقة رمادية. يخلط هذا الملف بين جوانب قانون الملكية، والقانون الدستوري، والقانون الدولي... لا وجود لاجتهاد قضائي واضح بشأن هذا النوع من الأوضاع الهجينة.

— ومن وجهة نظر قانونية، ما هو، برأيك، أضعف موقف لدينا؟ ذلك الذي يُرجّح أن يُسبب لنا أكبر المشاكل على المدى الطويل؟
لم يتردد بوغيفال لثانية واحدة.

— دون أدنى شك، المسألة الجوهرية لإعلان الحرب على اليابان. كلما درست الوقائع بانتباه أكثر، كلما أدركت أن حالة الحرب الرسمية بيننا وبين اليابان تقوم على أسس هشة للغاية. بل معدومة.

فتح مواينو أمامه مجلدًا سميًا مليئًا بوثائق أرشيفية وبرقيات مصفرة. قاده حس التفاصيل إلى اكتشافات مقلقة.

— أجريت بعض الأبحاث. تؤكد الثغرات المحددة المتعلقة بغياب النشر الرسمي لإعلان الحرب.

أخرج عدة أوراق.

— والأخطر، لم يُبلّغ الإعلان رسميًا أبدًا إلى السلطات اليابانية المختصة. لا بشكل مباشر ولا عبر وساطة دولة ثالثة. في القانون الدولي الصارم، إعلان حرب لا يُنشر ولا يُبلّغ لا قيمة له أبدًا.

— ما يعني أننا لم نكن أبدًا في حرب قانونية مع اليابان؟ سأل بوغيفال بذهول متزايد.

— بالضبط، أندريه. وإن لم نكن أبدًا رسميًا في حرب مع اليابان، فرسوم 1944 الذي يصف اليابانيين بـ«مواطنين دولة عدوة» يفتقر تمامًا إلى الأساس القانوني. سينهار كل صرح المصادرة.

نهض بوغيفال واتجه نحو الشرفة المطلة على حدائق القصر الملكي.

— ببير، نشهد بناء سقالة تبدو متينة، لكنها تقوم على أسس مهزوزة.

— ماذا تقصد؟

عاد بوغيفال ليجلس ونشر ملفاته على الطاولة.

— ففكر جيدًا في التسلسل المنطقي. يستند مرسوم 1944 إلى حالة حرب مع اليابان لم توجد قانونيًا أبدًا. تنطبق معاهدة سان فرانسيسكو لسنة 1951 على «ممتلكات الأعداء»، لكن إن لم نكن أبدًا في حرب مع اليابان، فإن الممتلكات اليابانية الموجودة في فرنسا ليست «ممتلكات أعداء» بمعنى القانون الدولي. يُصادق المرسوم على منح أعمال فنية كان يجب أن يندرج ضمن الاختصاص الحصري للمشروع...

— أظن جدًّا أن كل هذا الصرح قد ينهار يومًا كبيت من ورق؟
 — أظن أننا بنينا هيكلًا غير مستقر. سيكون أن يجد أحد يومًا، خلال عشر أو عشرين أو ثلاثين سنة، الشجاعة والوسائل المالية والدعم اللازم للطعن جدًّا في هذا التركيب أمام المحاكم المختصة. وسينهار كل شيء.

قُطعت محادثتهما فجأة بوصول برنار أنطونيوز. حفيد الجنرال بالمصاهرة — المكلف بمهمة في مكتب أندريه مالرو للشؤون الثقافية — وصل بآخر تعليمات رئيس الحكومة. بدا مستعجلًا وليس في مزاج للنقاش حقًا.

— أيها السادة، يجب إغلاق قضية ماتسوكاتا. لا يريد الجنرال أن يسمع بعد الآن عن طعون، بأي شكل من الأشكال.
 تحدث أنطونيوز كمن لا يتحمل أن يُعارض. شعر بوغيفال أنه يجب المضي بحذر.

— سيد أنطونيوز، لدينا بعض... التحفظات بشأن متانة كل هذا التركيب على المدى الطويل.

— أي تحفظات؟

بدا نفاذ الصبر في صوته. انطلق مواينو في شرحه، مفصّلًا كل ثغرة، كل تناقض لاحظته. أصغى أنطونيوز. لكن وجهه لم يُبشّر بخير.

— أيها السادة، هذه الأمور التافهة مثيرة للاهتمام فكريًا بالتأكيد. لكن لا ننسَ الرهانات الكبرى والمصالح العليا لفرنسا.

آه، «المصالح العليا»... لم يكن بوغيفال ساذجًا.

— أي رهانات؟

— أولاً، شرح أنطونيوز بتعالي أصحاب الامتيازات في البلاط، تمثل مجموعة ماتسوكاتا إثراءً كبيرًا لثرائنا. تساوي الأعمال الثمانية عشر الكبرى التي نحفظ بها عشرات ملايين الفرنكات. ربما أكثر إذا اعتبرنا طابعها الفريد. ثم، ستجذب متاحفنا عددًا كبيرًا من الزوار الأجانب بفضل هذه الروائع. إشعاع ثقافي، هبة دولية...

- وعلى صعيد العلاقات الخارجية؟ سأل موابينو.
- تُظهر الاستعادة الجزئية سماحتنا تجاه عدو سابق. تُسهّل تقاربنا مع اليابان، الشريك الاقتصادي المتزايد الأهمية لأوروبا.
- سرد أنطونيوز حجته كدرس محفوظ عن ظهر قلب. سماحة... كانت الكلمة لذينة حين نحتفظ بأجمل القطع.
- صحيح، سيد أنطونيوز، لكن إن كانت أسس العملية كلها هشة...، ألح بوغيفال بشجاعة لم يكن يعرفها في نفسه.
- سيد بوغيفال، عليّ أن أذكر بحقيقة. وقّع الجنرال ديغول المرسوم هذا الصباح. له إذن قوة القانون على كل الأراضي الفرنسية. لا يستطيع أحد أن يُشكك فيه.
- كانت إشارة أنطونيوز قطعية. لكن موابينو لم يترك نفسه يُخيف.
- لا يمكننا مع ذلك تجاهل القواعد الدستورية لجمهوريتنا!
- سيد موابينو، يجب أن يخدم الدستور عظمة فرنسا، لا أن يُعيقها باعتبارات شكلية. يخدم المرسوم مصالح الأمة.
- أدرك الرجلان أنهما يصطدمان بمنطق يتجاوز بكثير هواجسهما. تصور بونابرتي حيث كانت مصلحة الدولة تعلو على أي قاعدة.

في 18 ديسمبر 1958، نُشر المرسوم رسميًا في الجريدة الرسمية. بحديثاته الفخمة عن المصالحة الفرنسية-اليابانية والسخاء الثقافي الفرنسي. انطلقت الدعاية دون تأخير.

خلافًا لما توقعه الكولونيل دو بونفال، حيّت الصحافة الفرنسية، المُستوحاة إلى حد كبير من المصالح الحكومية، «المبادرة الرئاسية السخية». تصدرت لورور بأكملها: «ديغول يمنح بسخاء روائع لليابان». شرحت لأكروا في افتتاحية على نصف صفحة أن «المبادرة النبيلة تشهد على الرسالة العالمية لفرنسا ودورها الحضاري». وافقتها فرانس-سوار، متحدثة عن «دمقرطة الوصول إلى الفن». ذهبت ليكو الدالجي إلى نشر تحقيق مصوّر بصور ملونة ومقابلات أبرزت في

الصفحة الأولى «عظمة فرنسا». جرّوت بعض أصوات المعارضة بخجل على التساؤل عن ظروف الاقتناء الأولية للمجموعة. لكن غرقت هذه الانتقادات الخافتة سريعاً في الحفل المنظم من قبل التواصل الحكومي.

في طوكيو، في أجواء صالون شاي تقليدي في حي غينزا، كان شينغيهارو ماتسوموتو، صهر كوجيرو ماتسوكاتا والمفاوض الياباني الرئيسي، يُعيد قراءة شروط التنازل الذي أرغم على توقيعه. كان غضب كامن يستهلكه. معتاداً على الرقي، اكتشف حدود اللباقة أمام وحشية موازين القوى. حاول الأستاذ تاكيشي ياماموتو، أحد أكثر المحامين احتراماً في النقابة، طمأنته. كانت له شكوكه أيضاً بشأن صحة هذه الصفقة القسرية، لكن حكمته دفعته نحو الواقعية.

— سيد ماتسوموتو، لم يكن أمامك موضوعاً أي خيار آخر في هذه المفاوضة. كانت لفرنسا كل الأوراق، وكنا في موقف ضعف مطلق. شرب ياماموتو شايه الأخضر ببطء.

— أستاذ ياماموتو، أخشى أنني فرّطت في الإرث الثقافي لحي. هذه الأعمال الثمانية عشر التي يحتفظون بها هي قلب المجموعة كلها. أخرج القائمة المفصلة من حقيبته.

— فان غوخ، غوغان، سيزان، رودان... كل ما يمنح المجموعة أهميتها الدولية يبقى في فرنسا. نسترد ثلاثمائة عمل، صحيح، لكنها قطع ثانوية، دراسات تحضيرية، أعمال لفنانين أقل شهرة...

— أنفهم حزنك، تعاطف ياماموتو. لكن لنواجه الأمور. بدون هذا الاتفاق، مهما كان ناقصاً، لم تكن ستسترد شيئاً على الإطلاق. على الأقل، ستعود البقية لليابان ويمكن عرضها في متحف الفن الغربي المستقبلي في طوكيو.

— في ظل ظروف مُدّلة كهذه! يجب أن نبني نحن أنفسنا متحفاً خصيصاً لهذه الأعمال، ومنتازل عن حقوقنا في القطع التي تحتفظ بها

فرنسا، ونقبل أن تُقدّم هذه الاستعادة الجزئية كلفتة سخية من السلطات الفرنسية...

وضع كوبه بعنف، وقد غلب غضبه على تربيته الرفيعة.

— إنها إهانة، أستاذ ياماموتو! نُرغم على شكر ناهيينا لأنهم أعادوا لنا جزءًا مما سرقوه منا!

أوما ياماموتو برأسه، مدرّكًا الظلم. علّمته خبرته الطويلة بالقانون حدود النظام الدولي أمام القوة الغاشمة.

— سيد ماتسوموتو، نجد أنفسنا عاجزين عن الطعن بفعالية في القرارات الفرنسية. تمنحهم معاهدة سان فرانسيسكو ظاهريًا كل الحقوق على الممتلكات اليابانية الموجودة على أراضيهم.

— لكن هل تنطبق هذه المعاهدة حقًا على وضعنا؟ سأل ماتسوموتو فجأة بأمل متجدد.

فاجأ السؤال المحامي، الذي رفع رأسه باهتمام.

— ماذا تقصد؟

— حسنًا، جعلت بعض معاوني الأكفاء يُجرون أبحاثًا حذرة. يبدو أن فرنسا لم تكن أبدًا رسميًا في حرب مع اليابان. في هذه الظروف، لا ينبغي أن تنطبق المادة 14 من معاهدة سان فرانسيسكو على الممتلكات الخاصة لحي.

انحنى ياماموتو بحماس إلى الأمام. مسار لم يستكشفه من قبل.

— أيمكنك توضيح تحليلك؟ على أي وثائق تستند؟

أخرج ماتسوموتو ملفًا من حقيبته. كانت يداه ترتجفان قليلًا — ليس من التوتر، بل من الإثارة.

— انظر إلى هذا، أستاذ. أمضينا أشهرًا نُنقّب في الأرشيف الياباني والوثائق الأمريكية المرفوعة السرية عنها.

انطلق ماتسوموتو في شرح مفصّل للثغرات التي ظنت السلطات الفرنسية أنها مؤهتها جيدًا. أصغى ياماموتو. حسب ذهنياً الفرص — الضئيلة — لطعن محتمل ضد الآلة الفرنسية.

— سيد ماتسوموتو، مواجهة كهذه ستدوم سنوات. والأهم، سيتكثّر جهاز الدولة الفرنسي بأكمله ضدنا. هل أنت متأكد من رغبتك في خوض مغامرة كهذه؟

حدّق فيه ماتسوموتو مباشرة في عينيه. تصلّب صوته، كاشفاً عن عزم كانت أساليبه المهذبة تُخفيه عادة.

— من أجل شرف حمي، نعم. من أجل ذكرى مجموعته أيضاً. ثم... من أجل الحقيقة، أستاذ ياماموتو. أنا مستعد لخوض المعركة حتى النهاية. حتى لو خرّبني ذلك.

بدأت هذه الفكرة تنمو ببطء في ذهن ورثة ماتسوكاتا. بدأوا أخيراً يُدركون أن النهب — المؤه ببراءة كبيرة — يقوم على أسس أشد هشاشة بكثير مما أريد لهم أن يصدّقوا.

لكن، في 1958، لم يكن لديهم لا المال، ولا الدعم، ولا شبكة العلاقات اللازمة. ديغول في السلطة، فرنسا منتصرة، عظمة فرنسا في أوجها...

في مستودعات اللوفر ومعابد الفن الفرنسي الأخرى، واصلت الروائع الثمانية عشر التي احتفظت بها فرنسا حياتها الصامتة.

ختم مرسوم 18 ديسمبر 1958 رسمياً مصير مجموعة ماتسوكاتا. غير أن المرسوم حمل في داخله بذور التشكيك في نفسه. برسمنة «استعادة» بضع أعمال ثانوية مع الاحتفاظ بالأجمل، اعترف بأن فرنسا ربما لم يكن لها حق مطلق على المجموعة كلها. ثغرة صغيرة في الصرح الفرنسي الجميل. شق سيستغله آخرون، أكثر إصراراً وأفضل تسليحاً، بعد سنوات طويلة.

بإعلان «سخاء» فرنسا، لفت المرسوم الانتباه إلى قضية كانت باريس تفضّل رؤيتها تختفي في نسيان التاريخ. دعاية غير مقصودة لنزاع كانت السلطات تأمل أنها دفتته.

أخيرًا، باستنادها إلى إجراء أكثر من مشكوك فيه دستوريًا، خلقت سابقة هشة. لعبة ميكادو قد تنهار عند أدنى تغيير في الاجتهاد القضائي.

أفلتت كل عناصر الضعف هذه تمامًا من المسؤولين الفرنسيين. كانت قضية ماتسوكاتا بعيدة عن الانتهاء. كانت تدخل فقط مرحلة جديدة. مرحلة الهضم والنضج. طويلة، طويلة جدًا. سيختفي أبطال 1958 واحدًا تلو الآخر — إذ يقوم الموت بعمله — لكن قراراتهم ستستمر في تسميم وجود خلفائهم.

طرح الملف أسئلة تتجاوز بكثير العصور والأنظمة. أيمن الاستيلاء على ممتلكات ثقافية للآخرين باسم مصلحة الدولة؟ أتبرر الغاية كل الوسائل حين يتعلق الأمر بسياسة ثقافية؟ للدولة التي تدعي الديمقراطية الحق في انتهاك مبادئها الخاصة بمجرد أن تكون مصالحها على المحك؟

أسئلة محرجة، بالطبع. لكن من كان يهتم بها سنة 1958؟

نجحت «مهزلة الاستعادة» على نحو رائع.

سيتمتعون بانتظار اضطرابات نهاية القرن العشرين — سقوط جدار برلين، العولمة، ظهور معايير دولية جديدة بشأن الممتلكات الثقافية — لتعود قضية ماتسوكاتا إلى الظهور.

لكن هذه ملحمة أخرى. ملحمة ستتكشف في عالم مختلف جدًا عن عالم 1958. عالم لن تستطيع فيه الدول أن تستولي بعد الآن بهذه السهولة على كنوز جيرانها متدركة بمصالحها المقدسة.

الفصل السادس: سنوات النسيان

باريس، 1975

كان دوي المطارق الهوائية يرن في الردهة الضخمة لمحطة أورساي القديمة. كانت سحب من غبار الجص تحوم في الهواء. كان المكان يشبه ساحة معركة معمارية: عوارض معدنية ملتوية، جدران مجروحة، أرضيات محطمة. كان هناك، في هذه الفوضى، أن يُفترض أن يولد معبد الفن الفرنسي المستقبلي.

كانت فرانسواز كاشان، أمينة المتحف الرئيسية والمديرة المستقبلية لمتحف أورساي، تتخطى بحذر الأنقاض، وكعبا حذائها يصدران صوتًا على الخرسانة المتشققة. كانت ترتدي بدلتها السوداء الأبدية، تلك التي كانت تحتفظ بها للاجتماعات المهمة، وتحمل ملقًا أصفر يحمل عنوان «مجموعة ماتسوكاتا» مشدودًا إلى صدرها. إلى جانبها، كان ميشيل لاكلوت، مدير متاحف فرنسا، يتقدم بببطء. كانت بدلته الأنيقة تتناقض مع المشهد المروع المحيط بهما.

كانت كاشان ترأب الأعمال بافتتان ممزوج بالقلق. ابنة جراح مشهور وحفيدة المناضل الشيوعي الشهير مارسيل كاشان، درست في معهد الفن والآثار، مطوّرة منذ سن مبكرة شغفًا نهماً بالفن.

— ميشيل، انظر إلى هذا، قالت فرانسواز كاشان مشيرة بحركة واسعة نحو الصحن المركزي الضخم. يمكننا وضع كل المجموعة الانطباعية هنا. لوحات مونييه في مواجهة رينوار، ديغا في التجويف الخلفي... وهذا الضوء! هذا الضوء الطبيعي المتساقط، هذا بالضبط ما نحتاجه للباستيلات.

وافق لاكلوت بشرود، ونظره يتجول في المخططات التي يحملها بيده. كان منشغل البال. رجل مؤسسة بامتياز، تسلّق كل درجات الإدارة الثقافية بفضل مزيج ماهر من الكفاءة الحقيقية والانتهازية المعلنة. برع في فن التسوية، تلك الرياضة الفكرية التي تسمح بالتوفيق بين المتناقضات.

— فرانسواز، يجب أن نتحدث بجدية عن عرض أعمال ماتسوكاتا. تلقيت مكالمة هاتفية من مكتب الوزير مساء أمس. إنهم... كيف أقول... قلقون بشأن الظهور الذي قد منحه لهذا الأصل.

— قلقون؟ كررت كاشان بلمسة سخرية. ما الذي يُقلقهم؟ أن يكون لدينا في مجموعتنا أجمل فان غوخ وغوغان في العالم؟

مرّ عامل بالقرب منهما، يدفع عربة يد مليئة بالحطام. انتظر لاكلوت حتى ابتعد قبل أن يتابع، خافضًا صوته غريزيًا.

— تعرفين جيدًا عما أتحدث، فرانسواز. هذه المجموعة قنبلة موقوتة. إذا بدأ الصحفيون بالتنقيب في ظروف اقتنائها...

— اقتنائها؟ تقصد مصادرتها، ميشيل. لنسمّ الأشياء بأسمائها.

تجهم لاكلوت. كان يكره حين تصبح كاشان مباشرة إلى هذا الحد. في وسطهم، كانوا يفضلون التلطيفات، الالتفاتات، كل ما يسمح بعدم تسمية الأشياء بفظاظة. كان ميل زميلته إلى العصيان اللفظي هذا يُزعجه.

— بالضبط، تابع وهو يُلقي نظرة عصبية حوله. هذا نوع الكلمة الذي يجب تجنبه. اسمعي، أعددت مذكرة خدمية. سأقرأها لك.

أخرج من حقيبته وثيقة مطبوعة على الآلة الكاتبة وبدأ يقرأ بصوت رتيب.

— «توجيه بشأن عرض الأعمال المنبثقة عن مجموعة ماتسوكاتا القديمة. تماشيًا مع تعليمات وزارة الثقافة، يُوصى باعتماد تسمية محايدة فيما يتعلق بأصل هذه الأعمال. العبارات التالية هي المفضلة: «مجموعة وطنية»، «اقتناء الدولة الفرنسية»، «تبرع مجهول». أي إشارة صريحة إلى مجموعة ماتسوكاتا يجب أن تخضع لمصادقة مسبقة من إدارة متاحف فرنسا».

قاطعته كاشان بضحكة متوترة.

— تبرع مجهول؟ أتمزح، أمل؟ نتحدث عن مجموعة تضم عدة مئات من الأعمال الكبرى، وليس لوحة أهدتها عمة عجوز!

— أعرف، تنهّد لاكلوت وهو يُرتّب وثيقته. إن بدأنا بسرّد كل شيء
— الحجز أثناء الحرب، المفاوضات الهشة لما بعد الحرب، مهزلة
1958 — سجد أنفسنا أمام جدل ضخم. والمتحف الجديد ليس بحاجة
إليه إطلاقًا.

مشيا، متجاوزين سفالة كان عمال يُتقنون تدعيم قوس فيها. كان
الضجيج مُصنّماً، لكنه منح بشكل متناقض حميمية لمحادّثتهما. شعرت
كاشان بذلك الغضب الذي كان يجتاحها أمام تسويات مهنتها ترتفع
فيها. غضب ممزوج باشمئزاز من نفسها، لأنها كانت تعرف أنها
ستستسلم في النهاية.

— أتعرف ما يُزعجني أكثر في كل هذا؟ قالت كاشان أخيراً. أننا نفعل
بالضبط ما نلومه على الألمان بشأن النهب النازي. نُخفي، نُقلّل من
شأنه، نتصرف وكأن شيئاً لم يحدث.

— المقارنة مبالغ فيها، فرانسواز. الظروف مختلفة تماماً.

— حقاً؟ جامع تحف أجنبي يُشكّل مجموعة في فرنسا. تندلع الحرب.
تحجز الدولة ممتلكاته. تنتهي الحرب. تحتفظ الدولة بالممتلكات. اشرح
لي الفارق الجوهرى، أنا أستمع.

توقف لاكلوت فجأة والتفت نحوها. أيقظت هذه المحادثة فيه شكوكًا
كان يُفضّل إبقاءها مطمورة. كانت مسيرته بأكملها تقوم على قدرته
على خدمة الدولة بإخلاص، مهما كانت تناقضاتها. أخافه التشكيك في
هذا الولاء أكثر مما كان يرغب في الاعتراف.

— الفارق هو أن ماتسوكاتا كان يابانيًا، وأن اليابان كانت العدو، وأنه
كانت هناك معاهدة دولية بشكل نظامي. معاهدة سان فرانسيسكو،
أيقول لك ذلك شيئاً؟ كل شيء قانوني.

— قانوني، ربما. أخلاقي، بالتأكيد لا.

— منذ متى تُوجّه الأخلاق السياسة؟ ردّ لاكلوت.

وصلا إلى ما سيصبح القاعة الكبرى للانطباعيين. كان الفضاء شاسعًا،
مغمورًا بضوء ذهبي متسرب. توقفت كاشان في مركز الغرفة، تدور

ببطء حول نفسها لتحتضن بنظرها الحجم بأكمله. في لحظات كهذه، كان شغفها بالفن يعود إلى السطح.

— هنا أريد أن أضع غرفة آرل، صرّحت. في وسط القاعة تمامًا، بإضاءة سماوية. سيكون تحفة المجموعة.

— فكرة ممتازة، وافق لاكلوت. هذا الفان غوخ استثنائي. اهتزاز الأصفر، المنظور الملتوي للغرفة... إنه تحفة فنية مطلقة. سيتزاحم الزوار لرؤيته.

— ولن نذكر في أي مكان أنه من مجموعة ماتسوكاتا؟

— سنذكر ما يجب ذكره «زيت على قماش، 1888، مجموعة متحف أورساي». هذا كل شيء.

قطع ضجيج جاف حديثهما. كان عامل يثقب الجدار على بُعد أمتار قليلة منهما، مثيرًا سحابة من الغبار الأبيض. ابتعدا وهما يسعلان. شعر لاكلوت بثقل أكاذيب الدولة هذه التي كان يُساهم في إدامتها. كان سام أخلاقي يتجلى في حركاته، في صمته، في تلك اللحظات التي كان فيها قناع الموظف المتحمس يتشقق بشكل خفي.

— الأسبوع الماضي، التقيت كولونج، أمين قسم اللوحات، تابعت كاشان بعد أن أصبحا في مأمن. روى لي حكاية طريفة. يبدو أنه في الستينيات، جاء أحد ورثة ماتسوكاتا إلى اللوفر لرؤية أعمال المجموعة.

— وماذا حدث؟

— بكى. بكى حرقًا أمام لوحة لسيزان كانت تعود لجده. لم يعرف كولونج، أمين المتحف المساعد حينها، كيف يتصرف. قدّم له منديلًا ورافقه إلى الخروج واعدًا إياه بأن الأعمال ستُصان جيدًا.

— هذا مؤثر، علّق لاكلوت. لكن هذا لا يُغيّر شيئًا في الوضع. هذه الأعمال فرنسية الآن.

على بُعد آلاف الكيلومترات من هناك، في حي دايكانياما السكني في طوكيو، كان سابورو ماتسوكاتا يتأمل حديقة زن من شرفة منزله

التقليدي. كان يُمسك بين يديه صورة فوتوغرافية مصفرة. أبوه، كوجيرو ماتسوكاتا، يتخذ وضعية أمام مجموعته الباريسية في عشرينيات القرن. كان يُرى فيها، معلقة على الجدار خلفه، عدة لوحات كانت تُزيّن المتاحف الفرنسية. كان سابورو من أولئك اليابانيين الذين وسمتهم الهزيمة، ممزقين بين الفخر الأجدادي والإذلال الوطني. رجل شرف وفقًا للتقاليد التقليدية، اضطر مع ذلك لتعلم فن التسوية أمام الواقع. كانت هذه الازدواجية تلتهمه. الحفاظ على كرامة العائلة مع قبول العجز. كانت خسارة مجموعة أبيه ترمز بالنسبة إليه إلى كل استسلامات عصره. اقتربت زوجته ميتشيكو بصمت ووضعت كوب ساكي دافئ بجانبه. كان استسلامها المؤلم استسلام الزوجات اليابانيات، المعتادات على تضميد جراح كبرياء أزواجهن دون أن يحكمن عليهم أبدًا. غير أنه، أحيانًا، كان اليأس يتسلل في نظرتها أمام هواجس سابورو الذكورية.

— لا تزال تنظر إلى هذه الصور، همست بحنان. لا فائدة سوى إحياء الألم.

— كيف أنسى، يا ميتشيكو؟ أجاب دون أن يرفع عينيه عن الصورة. كرّس أبي حياته لهذه المجموعة. أراد إنشاء متحف في اليابان، تثقيف شعبنا بالفن الغربي.

— سابورو، يجب أن تطوي الصفحة.

هزّ رأسه ببطء. كان هذا الإصرار على الاجترار يشي عنده بعجز عن إتمام الحداد.

— أطوي الصفحة؟ بينما كل عام، يُعجب ملايين السياح بلوحاتنا في باريس دون أن يعرفوا حتى أنها سُرقَت منا؟ لا، ميتشيكو. لا أستطيع أن أطوي الصفحة. ليس ما دامت العدالة لم تتحقق.

وضع الصورة وأمسك كوب الساكي بين يديه المتغضنتين، متذوقًا الدفء المنتشر في راحتيه.

— تلقيت رسالة من أمين متحف رودان أمس، تابع. ينظمون معرضًا عن النحت الفرنسي في القرن التاسع عشر. يريدون استعارة عدة أعمال «أعادوها بسخاء» إلينا سنة 1958. يحتفظون بالروائع ويطلبون منا أن نُعيرهم الفتات الذي رأوا أن يُعيدوه لنا.

— بماذا ستُجيب؟

— لا شيء. لن أُجيب بشيء. ليتدبروا أمرهم مع ضميرهم، إن كان لديهم ضمير على الإطلاق.

استقر الصمت بينهما، لا يُزعجه سوى خريز النافورة الصغيرة من الخيزران في الحديقة. جلست ميتشيكو أخيرًا بجانب زوجها، واضعة يدها برفق على يده. كانت هذه الحركة، المُكررة ألف مرة على مر السنين، تشي في آن واحد بحبها الثابت وإرهاقها أمام اجترار سابورو.

— كينجي يكبر، لاحظت. يطرح أسئلة أكثر فأكثر عن جده الأكبر. سألتني في اليوم الآخر لماذا لا نملك أي لوحة غربية في المنزل رغم أن كوجيرو كان جامع تحف كبيرًا.

— ماذا قلت له؟

— الحقيقة. أنها في فرنسا. لكن لم تكن لديّ الشجاعة لأشرح له كيف وصلت إلى هناك. عليك أنت أن تفعل ذلك، إنه تراثك العائلي.

أنقلت عليه مسؤولية النقل هذه. كيف يحفظ الذاكرة دون أن يُلَوِّث البراءة؟ كيف يُنقل الحقيقة دون أن يُلَقِّح الكراهية؟

— كيف يُشرح لطفل في العاشرة أن العالم تحكمه شريعة الأقوى؟ أن المفاهيم الجميلة التي تُعلِّمها في المدرسة — العدل، الإنصاف، الاحترام — ليست سوى كلمات فارغة حين يتعلق الأمر بالعلاقات بين الدول؟

— سيفهم. يفهم الأطفال أشياء أكثر مما نظن.

— ربما. لكنني أرغب في أن أجنِّبه هذا الألم أطول فترة ممكنة. لندعه يُصدِّق قليلًا بعد أن العالم عادل.

باريس، إدارة متاحف فرنسا، 1976

كانت قاعة اجتماعات إدارة متاحف فرنسا، في شارع دو فالوا، تحمل مظهر مجلس حرب. كان عشرة من كبار الموظفين وأمناء المتاحف يُصغون بانتباه إلى ليون تويليه، المدير، وهو يعرض الخطة التي أعدّها مع الأمين العام للوزارة.

كان تويليه ينتمي إلى ذلك النوع من كبار الموظفين الذين جعلوا من الدولة دينًا لهم. خريج المدرسة العليا للأساتذة وحائز على التبريز، كان يُقدّس المؤسسة بحماسة مؤمن. قادته هذه العبادة المطلقة إلى القمة. في قضية ماتسوكاتا، لم ير سوى مشكلة تواصل يجب حلها، متجاهلاً عمداً الجوانب الأخلاقية.

— سيداتي وسادتي، بدأ بصوته الجهير الرزين، نواجه تحديًا شائكًا. لدينا في مجموعتنا الوطنية أعمال تفخر بها متاحفنا. لكن علينا إدارة الإرث المعقد لاقتنائها. طلب منا مكتب الوزير تحديد خط سير واضح ومتناسك.

نهض وبدأ يجول جيئةً وذهابًا. كان طقس التجوال هذا يشي عنده بتوتر كان يبذل جهدًا لإخفائه.

— تمثل مجموعة ماتسوكاتا أعمالاً كبرى، تابع. نتحدث عن مجموعة ذات قيمة سوقية كبيرة. لكن أبعد من الجانب المالي، سمعنا الدولية هي ما على المحك.

رأى جاك كونيام، المفتش العام للمتاحف، أن عليه أن يتدخل. عبر عدة أزمات وتبنّى فلسفة سمحت له بتنسيب الرهانات الأخلاقية.

— إن سمحت لي، أظن أننا نُبالغ دراميًا في الوضع دون داعٍ. ما هي توصية المكتب؟

عاد تويليه ليجلس، متبنيًا تلك الوضعية الرسمية التي كان يحتفظ بها للإعلانات المهمة.

— يقترح الأمين العام مقاربة واضحة: المحو التدريجي. سنقوم، على مدى فترة عشر سنوات، بإزالة كل إشارة إلى مجموعة ماتسوكاتا من

وثائقنا العامة. ستبقى الأعمال معروضة، بالطبع، لكن أصلها سيتم... لنقل... تهيئده تدريجياً.

— بمعنى؟ سأل أمين متحف من اللوفر.

— بمعنى أننا سندمجها بالكامل. لا ذكر خاص بعد الآن، لا تمييز. ستصبح «أعمالاً من متحف اللوفر» أو «من متحف أورساي». كأنها كانت هناك دائماً.

— لكن الأرشيف؟ الكتالوجات الموجودة؟ اعترض كونيام.

— سيبقى الأرشيف متاحاً للباحثين المتخصصين، بالطبع. لسنا في الاتحاد السوفياتي. أما الكتالوجات، فستُستبدل بإصدارات جديدة... منقّحة.

أخذ لويس بازان، رئيس قسم سابق في اللوفر، دُعي كمستشار، الكلمة. كان في الثمانينيات من عمره، وكان تقدمه في السن يمنحه حرية كلام لم يكن يجرو عليها الأصغر منه.

— كنت هناك سنة 1951 خلال مفاوضات المعاهدة. كنت أصغر سناً حينها، لكنني حضرت بعض الاجتماعات. ما فعلناه كان... كيف أقول... إبداعياً من وجهة نظر قانونية. استغللنا ضعف اليابان المهزومة لإضفاء الشرعية على ما كان، لنكن صادقين، مصادرة صرفة ومباشرة.

— سيد بازان، قاطعه تويلبيه، لسنا هنا لإعادة كتابة التاريخ، بل لإدارة الحاضر.

— بالضبط، ردّ بازان بذلك الوقاحة التي يمنحها العمر. إدارة الحاضر تعني فهم الماضي. والماضي يخبرنا أننا نُبحر في مياه عكرة. اليابانيون ينهضون اقتصادياً. لن يبقوا صامتين إلى الأبد.

— سبب إضافي للتصرف بينما هم لا يزالون كذلك، خلص المدير.

تابع الاجتماع سيره. نوقشت الطرائق العملية. كيف تُعدّل بطاقات الأعمال، كيف تُوجّه موظفي المتاحف، كيف نُجيب على الأسئلة المحتملة من الصحفيين أو الباحثين. أدار تويلبيه النقاشات بسلطة

أخفت بصعوبة تساؤلاته الخاصة. احتفظ، في لحظات وحدته، بضمير واضح بالتزوير الذي كان يساهم في تنظيمه.

متحف أورساي، 1978

كان المتحف لا يزال قيد الأشغال، لكن عدة قاعات بدأت تتشكل. في القاعة المستقبلية لما بعد الانطباعيين، كان فريق من التقنيين يعمل حول صندوق خشبي ضخم. في الداخل، غرفة آرل لفان غوخ، القادمة من مستودعات اللوفر.

أشرف جان-بيير موزان، أمين المتحف المعين حديثاً، على العملية بتوتر ملموس. كانت المرة الأولى التي يتعامل فيها مع عمل بهذه الأهمية. ابن تجار صغار، تسَلَّق كل الدرجات بفضل موهبته وعزيمته، مُعِزّاً في الطريق عن تلك الحساسية الخاصة بالطبقات الصاعدة.

— بهدوء! كان يصيح بعمال النقل. إنه فان غوخ، وليس خزانة إيكيا! واصل الرجال، المعتادون على نزوات أمناء المتاحف، عملهم برباطة جأش الخبراء. ببطء، وبحذر، أخرجت اللوحة من صندوقها ووضعت على حامل مصمَّم خصيصاً.

اقترب موزان، مفتوناً. عنف الأصفر، غرابة المنظور، الانكماش الملموس المنبعث من هذه الغرفة الفارغة... كل شيء كان هناك، سليماً، مؤثراً.

— سيد موزان؟

النفث. كانت شابة ترتدي مريولاً أبيض تقف خلفه.

— نعم؟

— شارلوت شونيه، قسم التوثيق. أحتاج إلى التحقق من المعلومات لبطاقة هذا العمل.

فتحت ملفها وبدأت تقرأ بذلك الاجتهاد الذي يميز أرشيفي المبتدئين.

— إذن... فنسنت فان غوخ، غرفة آرل، أكتوبر 1888، زيت على قماش، 57.3 × 73.5 سم. للأصل، لديّ «مجموعة ماتسوكاتا، باريس، اقتُنيت نحو 1921؛ صادرتها الدولة الفرنسية، 1944؛ متحف اللوفر، 1951؛ أودعت في متحف أورساي، 1978». أهذا صحيح؟

احمرّ موازان بشكل واضح، محرّجًا. كانت شارلوت شونبيه المثالية الشابة تُمثّل كل ما كان عليه قبل أن يتعلم قواعد لعبة المتاحف. — في الواقع، تُلقينا توجيّهات جديدة بخصوص الأصول. لهذا العمل، يجب الإشارة إلى «مجموعة متحف أورساي». نظرت إليه موظفة التوثيق بدّهشة.

— لكن... هذا خطأ. لهذا العمل أصل، تسلسل زمني موثّق. لا يمكننا محوه!

— هذه ليست أوامري، أنسة شونبيه. تأتي من فوق. من فوق جدًّا. — لكن هذا سخيف! احتجت. يعرف أي طالب فن أن هذه اللوحة تأتي من مجموعة ماتسوكاتا. توجد عشرات المنشورات التي تذكر ذلك! اقترب منها موازان وخفض صوته.

— اسمعي، أفهم إحباطك. أنا أيضًا يُزعجني هذا. لكن لدينا تعليمات واضحة جدًّا. مجموعة ماتسوكاتا، رسميًا، لم تعد موجودة. هذه الأعمال كانت دائمًا ملكًا للمتاحف الفرنسية. هذه هي الحقيقة الجديدة. — الحقيقة الجديدة؟ كررت، غير مصدّقة. أنحن في رواية 1984 لأورويل أم ماذا؟

— أنسة شونبيه، إن كنت تُقدّرين وظيفتك، أنصحك باتّباع التعليمات دون طرح أسئلة. هذه نصيحة صديق. أغلقت الشابة ملفها، وتشققت مثاليّتها تحت صدمة هذه المواجهة الأولى مع النفاق المؤسسي.

— حسنًا جدًّا. «مجموعة متحف أورساي». لكن لا تطلب مني أن أفخر بهذه الكذبة.

أدارت كعبيها وابتعدت بخطوة غاضبة. راقبها موازان وهي تبتعد. تذكر سخطه الخاص حين علم بالحقيقة عن هذه الأعمال. لكن مع الوقت، يعتاد المرء. ربما كانت هذه القدرة على التكيف الأخلاقي هي ما كان يُخيفه أكثر في نفسه. هذا هو الدرس الحقيقي لعالم المتاحف.

طوكيو، 1981

أصبح كينجي الآن في السادسة عشرة من عمره. طويل القامة بالنسبة إلى ياباني، بنظارات مستديرة تمنحه هيئة مجتهدة، كان يقضي معظم وقت فراغه في مكتبة شيبويا البلدية. في ذلك اليوم، كان يتصفح كتابًا عن الانطباعية حين وقع على نسخة من غرفة آرل. أشار التعليق إلى «متحف أورساي، باريس».

مفتونًا بشيء لم يستطع تحديده، واصل تصفح الكتاب. بعد ذلك، في فصل عن جامعي التحف في بداية القرن العشرين، وجد صورة فوتوغرافية بالأبيض والأسود. توقف قلبه عن الخفقان. كان جده الأكبر، كوجيرو ماتسوكاتا، متخذًا وضعية أمام مجموعة من اللوحات. ومن بين هذه اللوحات، ظاهرة بوضوح، غرفة آرل.

نظر مجددًا إلى تعليق النسخة. «متحف أورساي، باريس». لا ذكر لماتسوكاتا. لا شيء. كأن جده الأكبر لم يوجد قط.

في المساء نفسه، واجه جده. كان لدى كينجي ذلك النفاد الصبر الخاص بالشباب أمام المسكوت عنه العائلي، لكن أيضًا ذلك الحدس الخاص الذي يسمح باكتشاف أكاذيب الكبار. ورث عناد جده الأكبر، لكن دون أن يعرف بعد دوافعه الخفية.

— أوجي سان، وجدت شيئًا غريبًا في المكتبة.

رفع سابورو ماتسوكاتا عينيه عن صحيفته. كان يخشى هذه اللحظة منذ سنوات، متأرجحًا بين الرغبة في الحفاظ على براءة حفيده وواجب نقل الذاكرة العائلية.

- آه نعم؟ ماذا وجدت؟
 وضع كينجي الكتاب مفتوحًا أمامه.
- هذا جدي الأكبر بالفعل في هذه الصورة، أليس كذلك؟ مع كل هذه اللوحات؟
 شحب قليلاً، لكنه حافظ على هدوئه.
- نعم، هذا هو.
- وهذه اللوحة، هنا، هي فان غوخ الموجود في متحف أورساي؟
 — نعم.
- فلماذا لا يذكر المتحف أنها كانت لنا؟
 طوى سابورو صحيفته ببطء. جاءت اللحظة التي كان يترقبها. كان يجب أن يقول الحقيقة لحفيده. مثل هذا النقل المؤلم في أن واحد عبئه ومسؤوليته.
- اجلس، كينجي. إنها قصة طويلة. قضية مؤلمة.
- طوال ساعتين، روى كل شيء. كان صوته يرتجف، كاشفًا عن ثقل عاطفي في هذه الرواية التي اجتزها ألف مرة في رأسه.
- أصغى كينجي، قبضته مشدودتان. اكتشف هذا المراهق بقسوة أن العالم لا تحكمه العدالة، بل القوة. مثل هذا الاكتشاف نهاية براءته، لكن أيضًا ولادة إرادة ستحملة طوال حياته.
- لكن... لكن هذه سرقة! صاح حين انتهى جده.
- نعم. لكن سرقة أضفت عليها الشرعية معاهدة دولية. ما يجعلها منيعة عن الطعن.
- منيعة عن الطعن؟ لا شيء منيع عن الطعن! يمكننا أن نستأجر محامين، ننّب الصحافة الدولية، نُثير فضيحة!
- هزّ سابورو رأسه بحزن. جعلته سنوات عديدة من الإخفاقات مصيريًا، ربما مصيريًا أكثر من اللازم أمام طاقة الشباب.

— حاولت، كينجي. لسنوات. لكن الفرنسيين محوا الآثار، أعادوا كتابة الحدث. بالنسبة إليهم، هذه الأعمال كانت دائماً فرنسية.

— فنستسلم إذن؟ نتركهم يفوزون؟

نظر سابورو في عيني حفيده. رأى فيهما حماسة ذكّرت به بأبيه نفسه. كانت هذه الشعلة في آن واحد أمله وخوفه: أمل في رؤية العدالة تتحقق أخيراً، خوف من رؤية كينجي يحترق في مسعى سمّ بالفعل وجوده الخاص.

— لا، لا نستسلم. ننتظر. نُحضر. سيأتي يوم تسنح فيه الفرصة. وذلك اليوم، سيجب أن نكون مستعدين. لهذا يجب أن تدرس، كينجي. تتعلم القانون، اللغات الأجنبية، تكتشف كيف يعمل العالم. القوة لا تكفي لاسترداد ما سُرق منا. يلزم الذكاء، الصبر، وقبل كل شيء، يجب أن نعرف العدو أفضل مما يعرف نفسه.

باريس، القصر الكبير، 1985

كان معرض «قرن من الفن الفرنسي: 1885-1985» في القصر الكبير الحدث الثقافي للعام. كان الرئيس فرانسوا ميتران نفسه سيفتتحه. خلف الكواليس، كان الغليان سائداً. أشرفت فرانسواز كاشان، مديرة متحف أورساي الآن، على آخر التحضيرات مع فريقها.

بلغت كاشان قمة مسيرتها المهنية. كان كل نجاح مهني يُذكرها بالتنازلات التي قبلتها للوصول إليه.

بلورت قضية ماتسوكاتا تناقضاتها الداخلية. عاشقة الفن أمام صاحبة الطموح الوظيفي، المثقفة أمام الموظفة.

— ماذا تقصد ببطاقة غوغان غير جاهزة؟ صاحت وهي تُوبّخ مساعدتها بنظرها.

— يعني... لدينا مشكلة صغيرة، يا سيدتي المديرة. في كتالوج 1979، صنّف هذا الغوغان كقادم من مجموعة ماتسوكاتا. لكن في

وثائقنا الجديدة، لم يعد هناك أي ذكر لهذا الأصل. قد يطرح الصحفيون أسئلة...

أصبح ملف ماتسوكاتا هذا ثقیلاً. عند كل معرض، عند كل إعاره، كان يعود إلى الظهور كشبح متهم. شعرت بنظرة الأعمال نفسها، كأنها تُطالب بالعدالة.

— اسمع، الأمر واضح. كتالوج 1979 تضمّن خطأ. هذا كل شيء. إن سئلت، تقول إن أبحاثاً أكثر تعمقاً سمحت بتحديد الأصل الحقيقي للعمل.

— لكن سيدتي، يعرف صحفيون متخصصون هذه القضية. بول جوردان من لوفينغارو، مثلاً، كتب عدة مقالات عن مجموعة ماتسوكاتا في السبعينيات...

— سيفهم إذن أن من مصلحته ألا يُحيي جدالات قديمة، أجابت. لمتحف أورساي علاقات ممتازة مع لوفينغارو. تُعيرهم بانتظام أعمالاً لفعالياتهم. سيكون مؤسفاً أن يتغير ذلك، ألا تظن؟

كانت الرسالة واضحة: الجزيرة والعصا. سيُكافأ من يلعب اللعبة. أما الآخرون... أظهرت هذه الطريقة في ممارسة السلطة عند كاشان قسوة لم تكن دائماً لديها. حوّلها النظام دون أن تدري.

في مساء الافتتاح، حضر كل النخبة الثقافية الباريسية. وزراء، سفراء، جامعو تحف، نقاد فن... في خطابه، احتفل فرانسوا ميتران بـ«العبقريّة الفرنسية» و«باريس، عاصمة الفن العالمية». ولا كلمة واحدة عن الأعمال الأجنبية المصادرة التي شكّلت جزءاً كبيراً من المعرض.

في الحشد، كان رجل يُراقب المشهد بابتسامة مريّة. كان يوكيو تاناكا، مراسل صحيفة أساهي شيمبون في باريس، يُدوّن ملاحظات. أتقن الفرنسية، وعرف قضية مجموعة ماتسوكاتا بأدق تفاصيلها. عمل عمه لأمه لدى كوجيرو ماتسوكاتا في ثلاثينيات القرن. كان تاناكا من هؤلاء الصحفيين اليابانيين المتغذين على احترام للثقافة الفرنسية وضعينة أمام الظلم الذي تعرضوا له. كانت هذه الازدواجية تنعكس في عمله:

إعجاب بالفن الغربي، سخط أمام النهب. جعل من الحقيقة عن ماتسوكاتا حملته الشخصية.

بعد الخطابات، اقترب من فرانسواز كاشان خلال حفل الاستقبال.

— سيدتي المدير، أعرف عن نفسي، يوكيو تاناكا، أساهي شيمبون. معرض رائع. مفتون بشكل خاص بقسم ما بعد الانطباعية.

— شكرًا، سيد تاناكا. يفخر متحف أورساي بامتلاك واحدة من أجمل المجموعات في العالم.

— بالفعل. لعدة من هذه الأعمال مسار مثير. هذا الغوغان، مثلًا، ألم يكن جزءًا من المجموعة التي شكّلها مواطني كوجيرو ماتسوكاتا؟

تجمّدت ابتسامة كاشان بشكل خفي. تعرّفت على هذه المناورة الصحفية. الاقتراب بلطف قبل الضربة القاضية.

— أظن أنك مخطئ، سيد تاناكا. كان هذا الغوغان دائمًا جزءًا من المجموعات الوطنية الفرنسية.

— حقًا؟ لكن، لديّ هنا نسخة من كتالوج معرض 1927 في صالة جورج بوتّي، حيث حُدّد هذا العمل بوضوح على أنه يعود لماتسوكاتا...

أخرج من جيبه نسخة مصورة مدّها للمديرة. ألقت عليها نظرة عابرة بالكاد، متبينة ذلك التعبير المتعالي الذي كانت تحتفظ به للمزعجين.

— غالبًا ما كانت كتالوجات ذلك الزمن تتضمن أخطاء، سيد تاناكا. أبحاثنا الحالية أكثر موثوقية بكثير.

— أرى، أجب الصحفي بابتسامة لا تُنذر بخير. أخطاء. كم هو مريح. أخبريني، سيدتي المدير، كم عملاً من مجموعة ماتسوكاتا يُزيّن حاليًا جدران متاحفكم؟

تصلّبت كاشان. بدأ هذا الصحفي يُزعجها بجدية، وشعرت بذلك الغضب المألوف يتصاعد كلما تجرّأ أحد على التشكيك في سلطتها.

— سيد تاناكا، لا أعرف ما تحاول الإيحاء به، لكن...

— لا أُوحي بشيء، سيدتي. أطرح سؤالاً صحفياً واضحاً. سؤال تُفضّلين ألا تُجيبني عنه. هذا حقك. لكنه أيضاً حقي في التحقيق فيما يُشبه بشدة نهباً منظماً.

— أنصحك بأن تكون معتدلاً جداً في كتاباتك، سيد تاناكا. القذف يُعاقب عليه القانون الفرنسي.

— والسرقه؟ هل تُعاقب السرقه القانون الفرنسي، سيدتي المديرة؟
على هذه الكلمات، انحنى بأدب وابتعد، تاركاً فرانسواز كاشان تغلي غيظاً. أشارت إلى ميشيل لاكلوت الذي كان يتحدث مع السفير الإيطالي.

— ميشيل، لدينا مشكلة. ذلك الصحفي الياباني، هناك. ينبش في قضية ماتسوكاتا.

قطّب لاكلوت جبينه. جعله اقتراب التقاعد أقل قتالية أمام الجدالات. تاق لإنهاء مسيرته بهدوء.

— تاناكا؟ نعم، أعرفه بالسمعة. مُزعج من الدرجة الأولى. ماذا يريد؟
— يبدو أنه يريد إثارة فضيحة. لديه وثائق من ذلك الزمن، يطرح أسئلة...

— سأتولى الأمر. لديّ اتصالات جيدة في سفارة اليابان في باريس. ليس لهم أي مصلحة في أن تعود هذه القضية إلى الظهور. العلاقات الفرنسية-اليابانية ممتازة حالياً، لن يُخربوها من أجل بضع لوحات.

بعد بضعة أيام، تلقى يوكيو تاناكا مكالمة من رئيس تحريره في طوكيو. كانت الرسالة واضحة: لا مقال عن مجموعة ماتسوكاتا. سادت «العلاقات الثنائية» على الصحافة الاستقصائية. أدرك تاناكا أنه لامس وترّاً حساساً. لم تفعل هذه الرقابة سوى تعزيز عزمه، لكنه اضطر لتأجيل كشوفاته إلى أوقات أكثر موافاة.

كاماكورا، 1990

أصبح كينجي الآن في الخامسة والعشرين. متخرجًا في القانون من جامعة طوكيو، قُبِلَ للتو في هارفارد. لكن قبل المغادرة إلى الولايات المتحدة، أراد محادثة أخيرة مع جده، الذي كانت صحته تتدهور.

كان هذا الأخير طريق الفراش في غرفته. بقيت نظرتة حادة وحازمة. شعر سابورو بقواه تخذله، لكن هذا الضعف الجسدي كان مصحوبًا بتحرر نفسي. قريبًا من الموت، لم يعد يخشى نقل حقيقته، مهما كانت مريرة.

— كينجي، اقترب، همس بصوت ضعيف.

ركع الشاب بجانب الفتون. حمل كينجي في داخله نفاذ صبر العمر الذي يريد كل شيء، فورًا. لكن أمام جده المحتضر، تعلّم الصبر. ستكون هذه الدرس في الاعتدال ثمينة للمعارك القادمة.

— نعم، أوجي سان؟

— في الخزانة، هناك... يوجد صندوق من اللاك الأسود. أحضره لي.

امتثل كينجي. كان الصندوق ثقيلًا، مُزِينًا بزخارف ذهبية تمثل كركيات طائرة. فتحه سابورو بصعوبة، كاشفًا عن جزم من الوثائق.

— هذا كل ما استطعت إنقاذه بخصوص المجموعة. الجرود الأصلية، المراسلات مع التجار الباريسيين، الصور... وقبل كل شيء، هذا.

أخرج وثيقة رسمية تحمل ختم الحكومة الفرنسية.

— وثيقة الحجز لسنة 1944. موقعة من شخص يُدعى بول دومون، مدير مؤقت. تُثبت هذه الوثيقة أن فرنسا صادرت المجموعة بالفعل. يمكنهم أن يقولوا ما يريدون، هذه القطعة لا تُدحض.

— أوجي سان، بهذا، نستطيع...

— انتظر. ليس هذا كل شيء.

أخرج حزمة أخرى من الأوراق.

— محاضر سرية للمفاوضات في 1951 و1958. نقلها لي دبلوماسي ياباني متعاطف في الستينيات. يُرى فيها بوضوح كيف تلاعب الفرنسيون بالمفاوضات، كيف استغلوا ضعفنا بعد الحرب لإضفاء الشرعية على سرقاتهم.

تصفح كينجي الوثائق، مذهولاً. مثل هذا التوثيق أكثر بكثير من إرث عائلي. كانت ترسانة قانونية كاملة لخوض معركة الحقيقة. لكن أيضاً عبئاً رهيباً لشاب في الخامسة والعشرين.

— لكن هذا هائل! يمكننا إثارة فضيحة دولية!

— ربما. لكن يجب أن نكون فعالين. الفرنسيون أقوياء، اعتادوا على هذا النوع من الجدالات. سيتوجب اختيار اللحظة المناسبة. وقبل كل شيء، سيلزم حلفاء. وحدنا، لا نستطيع شيئاً.

أمسك بيد حفيده. حملت هذه الحركة البسيطة كل ثقل النقل الجيلي: آمال، ندم، مسؤوليات.

— كينجي، لن أرى على الأرجح نهاية هذه القضية. لكن أنت، لديك الوقت. لديك الذكاء. لديك العزم. عدني ألا تستسلم أبداً. عدني بأن تُنصف ذكرى كوجيرو.

— أعذك، أوجي سان. سأسترد مجموعتنا. أو على الأقل، سأفصح الحقيقة.

توفي سابورو ماتسوكاتا بعد ثلاثة أسابيع. كانت جنازته بسيطة، وفقاً لوصاياه. لكن في قلب كينجي كانت تحترق شعلة لا تنطفئ...

باريس، متحف أورساي، 1993

كانت صوفي مارتينييه طالبة دكتوراه شابة في الفن، متخصصة في المجموعات المتحفية الفرنسية. لأطروحتها، اهتمت بأصول الأعمال ما بعد الانطباعية. يوماً ما، أثناء الاطلاع على أرشيف متحف أورساي، وقعت على شذوذ مثير للقلق.

كانت صوفي، المنحدرة من عائلة من الطبقة الوسطى، تتعامل مع الفن بشغف صادق، خالٍ من الحسابات الاجتماعية التي كانت تُحرّك من سبقوها.

— عفواً، سألت الأرشيفية، سيدة في الستينيات بكعكة شعر صارمة. أبحث عن ملفات الاقتناء لهذه المجموعة من الأعمال، لكنني لا أجد سوى وثائق لاحقة لسنة 1960. أين النسخ الأصلية؟

أُلفت الأرشيفية نظرة على القائمة. أمضت ثلاثين عاماً في هذه المؤسسة، تنقلت بين متطلبات البحث والقيود الإدارية. جعلتها هذه الخبرة حذرة.

— آه، هذه الأعمال... النسخ الأصلية في مستودع خاص.

— في مستودع خاص؟ لماذا؟

— إنها وثائق حساسة. يلزم إذن من الإدارة للاطلاع عليها.

— حساسة؟ كيف يمكن لوثائق اقتناء عمرها خمسون عاماً أن تكون حساسة؟

ترددت الأرشيفية، ثم انحنت نحوها خافضة صوتها. احتفظت، رغم سنوات من الامتثال، بضمير مهني يشرفها. عرفت التمييز بين مصلحة المؤسسة ومصلحة الحقيقة.

— اسمعي، آنسة، نصيحة، لا تُصرّي على هذه الأعمال. ركّزي على شيء آخر لأطروحتك. سيُجنّبك ذلك المتاعب.

— متاعب؟ لكن عمّ تتحدثين؟

نظرت الأرشيفية حولها لتتأكد من أنهما وحدهما.

— رُفضت أطروحة آخر طالبة دكتوراه أرادت النّيش في هذه الملفات. رسمياً بسبب «منهجية غير كافية». وغير رسمياً... لنقل إنها وضعت أنفها حيث لا يجب.

— أتقولين لي إن هناك رقابة نشطة على مواضيع معينة في هذا المتحف؟

— لا أقول شيئاً على الإطلاق. أقدم لك نصيحة صديقة، هذا كل شيء. إن أردت الاطلاع على هذه الوثائق، قدمي طلباً خطياً للإدارة. لكن لا تتفاجئي إن رُفض.

غادرت صوفي الأرشييف، مضطربة. هي التي اعتقدت أنها تعمل في معبد المعرفة والثقافة اكتشفت واقعاً أكثر ظلاماً بكثير. في المساء نفسه، تحدثت عن ذلك مع مشرف أطروحتها، الأستاذ برنار دروين. كان دروين من هؤلاء الأكاديميين الذين عبروا مايو 1968 محتفظين بمثلهم سليمة. نزيهاً، تأرجح بين شك مرير وأمل متبقٍ في رؤية الحقيقة تنتصر يوماً ما.

— آه، صوفي، وضعت إصبعك على أحد الألغاز الأفضل حفظاً في عالم المتاحف الفرنسي: مجموعة ماتسوكاتا.

— أنت على علم؟

— بالطبع أنا على علم. كل المتخصصين يعلمون. لكنه موضوع محرّم. لا نتحدث عنه.

— لكن هذا فضيحة! مخالف لكل أخلاقيات المهنة!

نظر إليها الأستاذ بارهاق. سنوات عديدة من رؤية طلاب موهوبين ينكسرون على وقائع النظام الجامعي...

— صوفي، أنت شابة، مثالية. هذا جيد. لكن دعيني أشرح لك كيف يعمل عالمنا الصغير. المتاحف الفرنسية هيكل قوية. لها روابط وثيقة بالسلطة السياسية، الاقتصادية، الإعلامية. من يجرؤ على التشكيك في ممارساتها يجد نفسه سريعاً مهمّشاً. لا منح، لا وظائف، لا نشر. الموت الأكاديمي، باختصار.

— فنصمت؟ نقبل الكذبة؟

— نتكيف. نلثف. ندرس شيئاً آخر. أو، إن كنا شجعاناً، ننتظر. نجمع الأدلة، ويوماً ما، حين يصبح السياق مواتياً، نضرب. لكن هذا اليوم لم يأت بعد، صدقيني.

— ومتى سيأتي؟

ابتسم دروين بحزن. كان يطرح على نفسه هذا السؤال منذ زمن طويل. — حين يصبح اليابانيون أقوياء اقتصاديًا بما يكفي للضغط. حين يصبح الرأي العام الدولي حساسًا لهذه المسائل. حين يموت أمناء المتاحف القدامى الذين بنوا مسيرتهم على هذه الكذبة. الصبر، يا صوفي. الحقيقة تنتصر دائمًا في النهاية. لكنها أحيانًا تأخذ وقتها.

بوسطن، كلية الحقوق بجامعة هارفارد، 1995

أصبح كينجي الآن في السنة الأخيرة من الدكتوراه.

تناولت أطروحته «استعادة الأعمال الفنية في القانون الدولي: دراسات حالة». رسميًا، كان موضوعًا محايدًا. وغير رسميًا، كانت آلة حرب ضد فرنسا.

حوّلت جامعة هارفارد كينجي. أصبح الطالب الخجول استراتيجيًا محنًا، يُتقن تمامًا رموز السلطة الغربية. لكن رافق هذا التحول فقدان مؤلم للبراءة. تعلّم إخفاء مشاعره، حساب تأثيراته، استغلال علاقاته. كان مشرف أطروحته، الأستاذ روبرت كروفورد، متخصص معروف في القانون الدولي، قد حدّره. كان جزءًا من تلك النخبة الجامعية الأمريكية، اللامعة، لكن الجبانة، الحريصة على الحفاظ على سمعتها أكثر من الدفاع عن العدالة.

— كينجي، عملك وجيه. لكنك تسير على بيض. فرنسا حساسة جدًا بشأن هذه المسائل. إن أردت نشر أطروحتك، سيتوجب أن تكون معتدلاً جدًا في صياغاتك.

— أستاذ، بكل الاحترام الذي أكنّه لك، التحفظ لم يُقدّ عائلتي إلى أي مكان منذ خمسين عامًا.

— بماذا تقترح؟

— مقارنة غير مباشرة. بدلاً من مهاجمة فرنسا مباشرة على مجموعة ماتسوكاتا، سارسي سوابق. سأظهر كيف أعادت بلدان أخرى أعمالاً صودرت أثناء الحرب.

ابتسم كروفورد، معجبًا بمهارة طالبه.

— هذا جيد. لكن سيستغرق وقتًا.

— لديّ الوقت. وقبل كل شيء، لديّ شيء لم يكن لدى جدي. الوصول إلى الشبكات الدولية. هارفارد جواز سفر إلى العالم بأسره. الخريجون من هنا في كل مكان: في مكاتب المحاماة، في الإعلام...

— أتريد إنشاء شبكة؟

— نعم. شبكة من المتعاطفين، الحلفاء المحتملين. أشخاص، عند حلول الوقت، يستطيعون نقل قضيتنا.

خلال الأشهر التالية، وضع كينجي استراتيجيته موضع التنفيذ بعزم. شارك في كل الندوات حول قانون التراث، ناسجًا علاقات، زارعًا بهدوء بذور حملته المستقبلية. التقى صحفيين، محامين، أكاديميين. لكل واحد منهم، روى قضية مجموعة ماتسوكاتا، دون إلحاح، بما يكفي فقط لإيقاظ فضولهم.

في أحد الأمسيات، خلال مؤتمر في نيويورك، تعرّف على سارة فيلدمان، محامية متخصصة في استعادة الأعمال المنهوبة خلال الهولوكوست.

حملت سارة في داخلها ذلك الذنب الخاص بالناجين، المتحول إلى طاقة نضالية من أجل العدالة التعويضية. تعرّفت فورًا على كينجي في ذلك الجرح المنقول نفسه، ذلك العطش نفسه للتعويض الذي كان يحركه.

— تُذكّرني بمعاركنا الخاصة، قالت له بعد أن عرض عليها قضية ماتسوكاتا. الفارق هو أن لدينا تعاطف الرأي العام. الهولوكوست، يُدرك الجميع ظلمه. لكن مجموعة يابانية مصادرة... أتعلم، لديّ اتصالات في الإعلام الأمريكي. إن أردت، يمكنني البدء بتداول هذه القصة. بهدوء، في الوقت الحالي. فقط لتحضير الأرضية.

— شكرًا، أقبل مساعدتك.

شكّل هذا التحالف بداية مرحلة جديدة في معركة عائلة ماتسوكاتا.

باريس، إدارة متاحف فرنسا، 1997

في مكتبه المُكسوّ بالألواح الخشبية في إدارة متاحف فرنسا، كان لوي مونييه، المدير الجديد، يُصغي بانتباه إلى تقرير مستشاريه. خلف تويلييه بطموح التحديث، لكنه وجد نفسه يواجه العضلات نفسها التي واجهها سلفه. إلى جانبه، كانت فرانسواز أرمان، الأمانة العامة المساعدة للوزارة، تُدوّن الملاحظات بتطبيق.

كان مونييه ينتمي إلى هؤلاء كبار الموظفين المدربين على الأساليب الإدارية الحديثة، لكن يواجهون ثقل الماضي الموروث. تأرجح بين إرادة الشفافية وانعكاسات النقابية، بين حادثة معلنة ومحافضة مُتنبّاة.

— لدينا مشكلة محتملة. رصدت خدمات المراقبة الإعلامية لدينا صعود موضوع «مجموعة ماتسوكاتا» في الصحافة الأنغلوسكسونية. نُشرت عدة مقالات هذه الأشهر الأخيرة في مجلات متخصصة أمريكية وبريطانية.

— ما الأمر؟ سألت فرانسواز أرمان، التي عُيّنت للتو في هذا المنصب.
أخذ مونييه الكلمة.

— إنه ملف قديم، سيدتي الأمانة العامة. مجموعة يابانية صُودرت خلال الحرب وأدمجت في مجموعاتنا الوطنية. قانونياً، كل شيء نظامي. تمنحنا معاهدة سان فرانسيسكو لسنة 1951 كل الحقوق. لكن...

— لكن؟

— لكن من وجهة نظر أخلاقية وإعلامية، الأمر أكثر تعقيداً. إن اتسعت القضية، قد نجد أنفسنا في الوضع نفسه للمتاحف السويسرية مع الذهب النازي. كارثة لصورتنا. مكتب الوزير قلق.

كانت فرانسواز أرمان، القادمة حديثاً من الإدارة المركزية، تكتشف مناطق الظل هذه التي لم تُعلّمها إياها المدرسة الوطنية للإدارة.

أزعجها هذا التلقين لحقائق السلطة أكثر مما كانت ترغب في الاعتراف.

— ما هي خياراتنا؟

— الخيار الأول. لا نفعل شيئاً ونأمل أن يمر الأمر. محفوف بالمخاطر، لكنه ممكن. الخيار الثاني. نستبق الأمور. نتواصل بشأن الموضوع، نتحمل مسؤوليتنا، نشرح السياق. الخيار الثالث. نتفاوض بهدوء مع اليابانيين. نُعيد لهم بعض الأعمال الرمزية مقابل صمتهم عن البقية.

— ما توصيتك؟

تردد مونييه.

— شخصياً، أميل إلى الخيار الثالث. لكنه قرار يتجاوز مستوانا. سيتطلب موافقة المكتب.

— من هم الورثة الحاليون؟ أهم متمسكون بالإجراءات القانونية؟

— الوريث الرئيسي يُدعى كينجي ماتسوكاتا، حفيد كوجيرو ماتسوكاتا لحفيد. محامٍ تدرَّب في هارفارد، شريك حالياً في مكتب محاماة كبير في طوكيو. وفقاً لمعلوماتنا، هو من يحاول تنظيم حملة إعلامية بصوت خافت.

— أيمكننا مقابله؟

— نستطيع أن نُحاول. لكن وفقاً لما نعرفه عنه، لن يكفي بالفتات. يريد استرداد كل شيء. أو على الأقل اعترافاً علنياً بالضرر.

— لنبدأ بتقييم ما لدينا من هذه المجموعة. عدد الأعمال، قيمتها، أهميتها لمتاحفنا. بعد ذلك، انظروا إن كان لقاء بهدوء ممكناً. لكن قبل كل شيء، أعدوا خطة تواصل دفاعية. إن انفجرت القضية، يجب أن نكون جاهزين للرد. سأبلغ المكتب بذلك.

— حسناً، سيدتي. لكن هذا الملف يكشف مشكلة أوسع. متاحفنا مليئة بأعمال ذات أصل مشبوه. إن تنازلنا في قضية ماتسوكاتا، نخلق ثغرة سيندفع الجميع فيها.

— أعلم. لكننا في 1997، لسنا في 1951. تغيّر العالم. يجب أن نتكيف أو نُعاني. الوزير مدرك لذلك.

طوكيو، مكتب ياماموتو وشركاه، 1998

استدعى كينجي ماتسوكاتا، الشريك الآن في أحد أشهر مكاتب المحاماة في اليابان، اجتماعاً. حول الطاولة، فريقه المكوّن من محامين يابانيين شبابين، متخصص في الفن، وسارة فيلدمان، القادمة خصيصاً من نيويورك.

كان تحول كينجي مذهلاً. أصبح الشاب المتحمس قانونياً محنكاً.

— أين نحن؟ سأل كينجي.

أخذ متخصص الفن، الأستاذ ياماده، الكلمة.

— أنهيت الجرد الكامل للمجموعة وفقاً لوثائق جدك.

— السعر التقديري؟

— بسعر السوق الحالي، تُقدّر الأعمال التي لا تزال في فرنسا بين 800 مليون و1.2 مليار دولار. غرفة آرل وحدها تُقدّر بأكثر من 100 مليون.

تدخلت سارة فيلدمان.

— ليست مسألة مال فقط. إنه الإرث الثقافي لصاحب رؤية تُهب.

— بالضبط، وافق كينجي. هذه الزاوية هي التي يجب إبرازها. ليس الجانب المالي، بل الجانب الأخلاقي، الثقافي، الإنساني.

سأل أحد المحامين الشبابين، نوكاغا، بتلك الجرأة التي تمنحها قلة الخبرة.

— أستاذ، درست معاهدة سان فرانسيسكو. تبدو المادة 14 كأنها تُنصف الفرنسيين. كيف نتجاوز هذه العقبة القانونية؟

ابتسم كينجي. عمل على هذا السؤال لسنوات في هارفارد، صاقلاً حجته باستمرار.

— فكرت فيه كثيرًا. لا نستطيع مهاجمة المعاهدة نفسها، هذا صحيح. لكن نستطيع أن نحتج بأن فرنسا تجاوزت ما سمحت به المعاهدة. تحدثت المعاهدة عن «تعويضات حرب». والحال أن مجموعة ماتسوكاتا لم تكن ممتلكات حرب. كانت مجموعة خاصة، شكّلت قبل النزاع بكثير، بمشتريات مشروعة. لم يكن لفرنسا أي حق في اعتبارها «تعويضات».

— هذا رائع! صاحت سارة. لا تطعن في المعاهدة، بل في تطبيقها التعسفي.

— ولديّ شيء آخر. انظروا إلى هذه الوثيقة.

عرض على الشاشة رسالة رسمية مؤرخة سنة 1946.

— إنها رسالة من الحكومة الفرنسية إلى جدي، تعترف بأن المجموعة كانت «تحت حماية مؤقتة». تُثبت هذه الرسالة أن فرنسا نفسها اعترفت في البداية بأن المجموعة كان يجب أن تُعاد.

— فلماذا لم تُعد؟ سأل نوكاغا.

— انتهائية. بين 1946 و1951، أدركت فرنسا قيمة ما كانت تحتفظ به وغيّرت موقفها. هذا سوء نية واضح.

أضاف الأستاذ ياماده.

— اكتشفت أيضًا شيئًا مثيرًا في أرشيف وزارة الخارجية. مذكرات داخلية يعترف فيها الدبلوماسيون الفرنسيون بأن حجز مجموعة ماتسوكاتا «هش قانونيًا»، لكن «مناسب سياسيًا». عرفوا أنهم يسرقون، لكنهم فعلوا ذلك على أي حال.

— ممتاز، خلص كينجي. لدينا الأدلة. سارة، كيف ترين الخطوة التالية؟

فكرت سارة لبضع لحظات.

— يجب مواصلة بناء الضغط الإعلامي. لديّ اتصالات في النيويورك تايمز ستكون مهتمة جدًا بمقال كبير. لكن يجب أيضًا حدث محقّر.

شيء يُجبر الفرنسيين على الرد.

باريس، متحف أورساي، 2000

كان صباح نوفمبر. فتح المتحف أبوابه للتو وبدأ الزوار الأوائل بالتوافد. من بينهم، زائر أنيق في معطفه الأسود، يتقدم بخطوة حازمة. توقف كينجي ماتسوكاتا أمام غرفة آرل. للمرة الأولى في حياته، رأى بعينه اللوحة التي كانت تعود لجده الأكبر. اجتاحه العاطفة. الأصفر المتوهج، المنظور المائل، العزلة المنبعثة من هذه الغرفة الفارغة... كل ذلك كان يجب أن يوجد في متحف في طوكيو، متاحًا للشعب الياباني.

بقي هناك، ساكنًا، لدقائق طويلة.

— مؤثر، أليس كذلك؟

التفت كينجي. كانت امرأة، أنيقة، تنظر إليه بابتسامة خفيفة. تعرّف فورًا على فرانسواز كاشان، المديرية السابقة للمتحف. أبلغت أن كينجي ماتسوكاتا كان في باريس لثمانٍ وأربعين ساعة وأملت أن يأتي إلى متحف أورساي. أرادت مقابلته بأي ثمن، بلا شك لتخفيف ضميرها المتعب. كانت ترصد زيارته منذ ساعات.

— سيده كاشان، أفترض؟

— تعرفيني؟

— أعرف من أنت. كما تعرفين من أنا، على ما أظن.

تلاشت ابتسامة كاشان. جعلها العمر والتقاعد أقل قتالية.

— سيد ماتسوكاتا. كنت أتوقع أن تأتي يومًا ما.

— وماذا تشعرين، سيدتي، وأنت ترينني أمام هذه اللوحة التي سُرقت من عائلتي؟

تصلبت كاشان، لكن ضعفًا جديدًا تسلل في نظرتها.

— سُرقت كلمة مبالغ فيها، سيدي. اقتني هذا العمل قانونيًا...

— جنّبيني الخطاب الرسمي، قاطعها كينجي. نعرف كلانا ما حدث.

سؤالي هو: كيف تعيشين مع هذا؟

بقيت كاشان صامتة للحظة، ثم أجابت بصوت أرق.

— سيد ماتسوكاتا، كرّست حياتي للفن. لصونه، عرضه، جعل الناس يحبونه. هذه الأعمال، مهما كان أصلها، جزء لا يتجزأ من التراث الثقافي الفرنسي. رآها ملايين الأشخاص، درسوها، أحبوها. أليس هذا أيضًا شكلاً من أشكال العدالة؟

— عدالة مبنية على ظلم تبقى ظلمًا، سيدتي. أراد جدي الأكبر إنشاء متحف في اليابان. دمّرت حلمه.

— لم أدمّر شيئًا، سيدي. ورثت وضعًا خلّق قبلي بكثير.

— بمحو كل إشارة إلى مالكة الحقيقي؟

كانت لكاشان نزاهة أن تبدو محرّجة.

— كان ذلك... توجيهًا. لم أكن موافقة، لكن...

— لكنك طبّقته. كما فعل كل الآخرين. بجن، بمصلحة، لا يهم. أنتم جميعًا متواطئون.

التفت مجددًا نحو اللوحة.

— يومًا ما، سيدتي، سيعود هذا الفان غوخ إلى اليابان. ربما ليس في حياتي، لكن يومًا ما.

— ربما، سيد ماتسوكاتا. لكن في هذه الأثناء، هو هنا. أليس ذلك أفضل من خزنة خاصة؟

— معضلة زائفة، سيدتي. يمكن أن يكون في متحف في طوكيو، متاحًا لليابانيين الذين لن تكون لديهم أبدًا الوسائل للمجيء إلى باريس. لكن هذا، لا تستطيع رؤيتكم الأوروبية المركزية تصوره، أليس كذلك؟ على هذه الكلمات، أدار كعبيه وابتعد، تاركًا فرانسواز كاشان وحيدة أمام اللوحة. شعرت بشيء لم يكن بعيدًا عن الذنب. شقّت هذه المواجهة المباشرة مع إحدى الضحايا دفاعاتها الأخلاقية.

في المساء نفسه، اتصلت بميشيل لاكلوت.

— ميشيل، التقيت كينجي ماتسوكاتا هذا الصباح. في المتحف.

— وماذا؟

— لن يتراجع، ميشيل. إنها مسألة شرف بالنسبة إليه. عدالة. سيمضي حتى النهاية.

— بماذا تقترحين؟

— ربما حان الوقت لـ... إعادة النظر في موقفنا. القيام بلفتة. قبل أن تنفجر الفضيحة.

— تصبحين عاطفية مع العمر، فرانسواز. لن نُعيد شيئاً. هذه الأعمال فرنسية. لا نقاش ممكن.

أغلقت كاشان الهاتف، مضطربة. كانت تشك. أكانوا قد اتخذوا الخيار الصحيح طوال هذه السنوات؟ أم لم يكونوا سوى حراس جريمة مؤهت كاقتناء مشروع؟

مرّ الوقت. لم يتحرك شيء. حافظت ضغوط خفية لكن فعّالة على قضية ماتسوكاتا تحت الغطاء. شيئاً فشيئاً، تأكل عزم كينجي ماتسوكاتا الضاري رغم ذلك بشكل لا رجعة فيه. بعد سنوات من النضال، سينتهي كينجي ماتسوكاتا، بقلب منكسر، إلى الاستسلام، منهكاً أمام هول المهمة. لم يستطع الوفاء بالقسم الذي قطعه لجده: تكريس كل طاقته لتعود المجموعة أخيراً إلى اليابان. لم يكن العصر ناضجاً بعد لتصبح مسألة النهب قضية مجتمعية كبرى... سيتعين الانتظار حتى عقد العشرينيات من هذا القرن ليعود الملف إلى الظهور... أخيراً.

الفصل السابع: بعث معركة

سيريت، مكاتب المنظمة غير الحكومية عودة واستعدادات، أغسطس
2024

في مقر منظمة عودة واستعدادات غير الحكومية، كان الهواء يفوح بعذوبة متوسطة. أسس بيير بيرتييه هذه المنظمة سنة 2019 بهدف يتلخص في سطر واحد، وهو استعادة ما سُرق.

مع الوقت، صقل فريقه أساليبه. تعرّز المجلس العلمي: متخصصون في الفن، محامون، خبراء في أصل الأعمال...

حكم بيير بيرتييه هذا العالم الصغير بشغف المتحوّل. أستاذ متبرّز متقاعد حديثاً، استبدل دروسه بحملة صليبية شخصية أعطته أخيراً إحساساً بأنه موجود بالكامل.

كان تناقضاً حياً. من جهة، كانت صرامته الفكرية وقدرته على العمل تفرض الاحترام — كان يستطيع أن يقضي ليالي كاملة يُنقّب في الأرشيف، مدفوعاً بفضول لا يشبع جعله لامعاً في تخصصه. جعلته ذاكرته الاستثنائية وموهبته في تلخيص كميات معقدة من المعلومات خصماً مخيفاً. لكن هذه الشدة نفسها كانت تُخفي ثغرات. كمالية تتحول إلى هوس، وريبة غريزية تجاه من لا يتبنى وجهات نظره، وقبل كل شيء ذلك الميل لا اعتبار نفسه المالك الوحيد للحقيقة.

كان بيرتييه يحمل نوعاً من الغطرسة الفكرية كانت تظهر في علاقاته الإنسانية. كان يُصغي بشكل سيئ، يقاطع غالباً، ويُظهر نفاذ صبر واضح بمجرد ألا يتبع أحد فوراً استدلاله. كان معاونوه يُقدّرون كفاءته، لكنهم كانوا يخشون تقلبات مزاجه حين يفوته تفصيل. كان يُصحح أخطاء الآخرين بمتعة لم يُخفها جيداً، وكأنه يجمع أدلة على تفوقه. متناقضاً، كانت هذه الصرامة نفسها التي جعلته مزعجاً يومياً تُشكّل أيضاً قوته. لم يكن شيء يفوته، ولم تكن أي كذبة رسمية تصمد أمام تحليله.

كان مكتبه يشبه مكتب عسكري يُحضّر للهجوم الأخير. على الجدران، خرائط للعالم مزروعة بدبابيس ملونة. أحمر للنهب النازي غير المُسوّى بعد، أزرق لما حمله المستعمرون في أمتعتهم، أخضر للمصادر الحكومية، أصفر لـ«الافتقادات المشبوهة» للمتاحف الكبرى. جغرافيا للنهب العالمي تُسبب الدوار.

على المكتب، أكوام من الملفات مُصنّفة بعناية. جاورت معاهدات القانون الدولي كتالوجات معارض مُدوّنة بخط يده. أثبتت مراسلاته مع باحثين حول العالم أنه نسج شبكته بصبر. على الجدار، بدت نسخة من غرفة آرل تراقب أبحاثه. تذكير يومي بأن خلف كل ملف كان هناك رجال، نساء، وجمال منهب. كان بيرتنيه يتأمل هذه اللوحة غالباً، مستمداً منها شكلاً من العزاء عوّضه عن وحدته الشخصية — لأن معركته قطعه شيئاً فشيئاً عن حياة اجتماعية طبيعية.

رفع بيرتنيه رأسه حين طرقت سكرتيرته الباب. مُوظّفة منذ البدايات، شاركته شغفه بالقضايا الخاسرة. قدّر فيها ذلك الولاء الذي لا يتزعزع. — سيد بيرتنيه، تارو هاغيودا من طوكيو على الخط. بخصوص قضية ماتسوكاتا.

كان ينتظر هذه المكالمة منذ أسبوع. اجتاحه مزيج من نفاد الصبر والترقب.

— ممتاز، صليها لي.

أمسك بيرتنيه بالسماعة. كان هاغيودا، دكتور في التاريخ ومتخصص بارز في الثقافة اليابانية الحديثة، جزءاً من تلك الشبكة من الباحثين الذين رفضوا النسيان. كان الرهان يتجاوز بكثير استشارة عادية.

— دكتور هاغيودا، مرحباً. شكراً لاتصالك.

حمل الصوت الذي أجابه ثقل إحباطه. لم يُخفف التأخر الطفيف للاتصال الفضائي شيئاً.

— سيد بيرتنيه، أنا من أشكرك. نعرف أبحاثك عن النهب جيداً هنا. نتابع معاركك باهتمام كبير... وأمل، يجب أن أقول.

كشفت نبرة هاغيودا عن حجم الصدمة. لم يكن ماتسوكاتا مجرد اسم في كتالوج. كانت جرحًا وطنيًا يرفض أن يلتئم.

— بخصوص المجموعة، يجب أن أقول لك الحقيقة. إنها جرحنا النازف. بعد ثمانين عامًا، لا يزال يؤلمنا. كان كوجيرو ماتسوكاتا عبقرًا، صاحب رؤية أراد التقريب بين ثقافتينا. ما فعله له الفرنسيون...

تصدّع صوته قليلًا.

— ...عشناه كطعنة في الظهر.

خلف الجوانب القانونية كانت تختبئ مصائر مكسورة. أراد ماتسوكاتا أن يبني جسورًا، سرقوا منه حجارته.

— أفهم الجانب العاطفي. لكنني بحاجة إلى عناصر ملموسة. وإلا، لن نفعل سوى تحريك الهواء أمام المحاكم.

تعلّم بيرتنيه على حسابه أن السخط لا يكفي أمام المتاحف. كان يلزم شيء صلب، قابل للتحقق، لا يُدحض. فرضت عليه ريبته الطبيعية، المشحوذة بسنوات من المعارك الخاسرة، هذه الصرامة.

— ماذا يحتوي أرشيفكم الوطني بالضبط؟ وثائق أصلية غير منشورة؟ والأهم — سؤال حاسم — هل نجحتم في إيجاد الورثة؟

وصله تنهد من طوكيو. إن كان الظلم واضحًا، فإن تعويضه اصطدم بحقائق الزمن العابر.

— هذه هي المأساة، سيد بيرتنيه. عائلة ماتسوكاتا... تلاشت. تناثرت في كل الاتجاهات بفعل كوارث القرن العشرين.

كشف الشرح الذي تلا كل قسوة المصير. حرب المحيط الهادئ، هزيمة 1945، الاحتلال الأمريكي الذي دام سبع سنوات طويلة، الاضطرابات الاجتماعية. تصافر كل ذلك لتبديد العائلات اليابانية كأوراق ذابلة في الريح.

— لا يزال بعض النسل يعيشون في اليابان، لكن في محافظات مختلفة. غيرت الزوجات أسماءهن، ما يُعقّد كل شيء. فرّ آخرون إلى

أمريكا في الخمسينيات-الستينيات، حين كان البلد لا يزال منهكًا. يوجد أيضًا في أوروبا، بعضهم في فرنسا وألمانيا. لكن الأسوأ، سيد بيرتبيه، أن كثيرين يجهلون حتى أن لهم حقًا في شيء ما.

كان الوضع وضع شتات لا إرادي، ثمرة صدمات اليابان الحديث. تناثرت العائلات بضرورة، ناجية كما استطاعت من أنقاض عالمها.

— جهل طبيعي أم فقدان ذاكرة طوعي؟ سأل بيرتبيه، وفضوله يتقدم على تعاطفه.

— كلاهما، للأسف. كسرت الحرب الروابط العائلية، هذه حقيقة. في الولايات المتحدة، يُعرّف بعض النسل جيدًا وتحركوا نحو أواخر التسعينيات، خصوصًا شخص يُدعى كينجي ماتسوكاتا يعيش اليوم في اليابان، لكنه يبدو أنه لم يعد نشطًا في هذا الملف. مع ذلك لجأ إلى الصحافة، عقد مؤتمرات، كتب مقالات، حرّك كل الجهات... لكن منذ خمس عشرة سنة لا شيء بعد ذلك. اختار كثيرون آخرون أيضًا النسيان. طي الصفحة، التركيز على المستقبل، دفن ماضٍ ثقيل جدًا على الحمل. أتعلم، بعد 1945، كانت النجاة تهم أكثر من المطالبة.

عرف بيرتبيه هذه الآلية. لاحظها في حالات نهب أخرى. فضل الضحايا فقدان الذاكرة على المواجهة مع ذكريات مؤلمة أكثر من اللازم. إنكار كان يُريح الناهيين جيدًا. أزعجه هذا الواقع وأحزنه في آن واحد — هو الذي لم يستطع نسيان أصغر ظلم قط.

— عمليًا، هل يُعطّل ذلك كل شيء؟

— ليس بالضرورة، لكنه يُعقّد الأمور. كيف يُطالب باسم أشخاص يجهلون حقوقهم؟ كيف نُحرّك ورثة لا يعرفون حتى أن لديهم إرثًا؟ يمكن للسلطات الفرنسية أن تقول: «لا أحد يُطالب بشيء، فكل شيء على ما يرام».

— لديّ ربما مسار. في القانون الفرنسي، وهنا، سامحني على مصطلحاتي، يوجد مفهوم يُسمى «إدارة الشؤون». المواد 1301 وما يليها من القانون المدني.

موروثة من القانون الروماني ومصقولة بقرنين من الاجتهاد القضائي، تسمح لشخص بالتصرف بشكل مفيد لحساب آخر، حتى دون علمه. آلية يمكن أن تتجاوز بأناقة عقبة تشتت الورثة. باختصار، يمكن التصرف دون تفويض، لكن لمصلحة من يُمثّل. بشرط إثبات أن ذلك في مصلحة نسل ماتسوكاتا، حتى لو كانوا يجهلونه... يمكن أن يسمح ذلك نظرياً لمنظمتي غير الحكومية بالتصرف قانونياً باسم الورثة. حتى دون موافقتهم الصريحة، ما دام العمل يحمل طابع فائدة لهم، شرح بيرتنيه.

استقبل الاقتراح صمت متأمل. عاد هاغيودا في النهاية بفضول واضح في صوته.

— المقاربة مثيرة للاهتمام، أقرّ بذلك. لكنني أرحب في طرح سؤال يشغلني شخصياً...
— أصغي إليك.

— أأنت متأكد من أن الورثة يرغبون حقاً في رؤية قضية مؤلمة كهذه تعود إلى الظهور علناً؟ مرّ ثمانون عاماً، سيد بيرتنيه. أعاد كثيرون بناء حياتهم، بناء مشاريع أخرى. لماذا نُحرّك كل هذا؟

أخذ بيرتنيه بعض الوقت للتفكير، يزن ثقل كلماته. أعاده هذا التساؤل إلى دوافعه الخاصة. أكان يتصرف من أجل الضحايا أم لإرضاء حاجته الشخصية إلى العدالة؟ ظل الحد أحياناً غامضاً.

— يكشف سؤالك عن احترامك للضحايا. هذا يُشرّفك. لكن، أترى... أبعد من المصالح الخاصة للورثة، يطرح هذا الملف أسئلة تتجاوز بكثير الحالة الفردية لعائلة ماتسوكاتا. أيمكننا أخلاقياً أن نترك أعمال نهب حكومي دون عقاب، حتى وإن كانت قديمة؟ أيمكننا أن نقبل أن يمحو النسيان المنظّم ومرور الزمن أفدح الجرائم الثقافية؟ أليس هناك واجب ذكرى، التزام باستعادة الحقيقة؟ ولو لتكريم ذكرى الضحايا وتجنب تكرار ظلم كهذا... يتجاوز السؤال بما لا نهاية إطار عائلة ماتسوكاتا. إنه يُلزم مستقبل العدالة الثقافية الدولية.

أوما هاغيودا برأسه ببطة.

— وجهة نظرك ثلامسني. لا يزال الظلم يشغلنا في اليابان، أتعلم. إنه من تلك الجروح الجماعية التي لا تلتئم أبدًا. لا يزال مثقفونا، باحثونا يتحدثون عنه بانتظام.

شعر بيرتيني بقلبه يتسارع. عزّزه هذا الاعتراف بحجم الصدمة اليابانية في مسعاه.

— لكن عمليًا، تابع هاغيودا، كيف تنوي أن تمضي؟ لن تتخلى الحكومة الفرنسية بسهولة عن أعمال بهذه الأهمية. تُشكّل هذه اللوحات جزءًا من جواهر متاحفكم الوطنية، تجذب العديد من الزوار. الرهان الاقتصادي والثقافي كبير، أليس كذلك؟

كان الاعتراض منطقيًا. وصحيحًا بشكل مؤلم.

— فكرت أولاً بجدية في اللجوء مباشرة إلى المحاكم الفرنسية المختصة. كان ذلك الطريق الأطبع، ذلك الذي توصي به العقيدة القانونية الكلاسيكية.

— وتخليت عن هذه المقاربة؟

— للأسف نعم. لأسباب ملموسة و... كيف أقول... محبطة.

اكتشف بيرتيني أن القضاء الفرنسي يمارس عداءً منهجيًا تجاه الأعمال التي تطعن في النهب الوطني.

— أقنعتني تجاربي الأخيرة مع مجلس الدولة الفرنسي أن الطريق ليس فقط بلا مخرج، بل يعرّضني حتى لعقوبات مالية رادعة. ترفض هذه الجهة القضائية بشكل قاطع الاعتراف بمصلحة منظمتي في التصرف في هذا النوع من القضايا المتعلقة بالتراث الوطني، شرح.

— أيمكنك إعطاء أمثلة ملموسة؟

فتح بيرتيني ملفاته بدقة الباحث المعتاد على توثيق تأكيدات. لكن أيضًا بغضب مكبوت لمن رُفض. جرحته هذه الإخفاقات في كبريائه كقانوني.

— رفعت مؤخرًا دعوى أمام مجلس الدولة في قضيتين مماثلتين. في الأولى، المتعلقة بنهب القوات الفرنسية-البريطانية للقصر الصيفي في

بكين سنة 1860، أعلن قرار صادر في 23 نوفمبر 2022 عدم قبول طلبي.

— على أي أساس؟

— آه، الأسباب! أجاب بيرتييه بضحكة جافة. بحجة قاطعة أن «الأشخاص الذين يرون أنفسهم الملاك الشرعيين» فقط لهم مصلحة في التصرف للطعن في تسجيل ممتلكات مُقتناة في إطار عمليات حربية في جرد المتاحف الوطنية. أتدرك الفارق الدقيق؟ باشتراط أن يظهر الضحايا شخصيًا، مع العلم يقينًا أن معظمهم يجهلون حقوقهم، تُنظم المحاكم الفرنسية بهدوء إفلات النهب من العقاب.

كشفت الصياغة عن كل اصطناعية النظام الفرنسي لحماية نفسه من المطالبات المُرعبة.

— في القضية الثانية، تابع بيرتييه، المتعلقة باستيلاء فرانسوا الأول على لوحة الموناليزا سنة 1519، أكد مجلس الدولة اجتهاده القضائي بقرار أشد صرامة في 14 مايو 2024.

— أشد صرامة بأي معنى؟

انفجر السخط رغما عنه.

— لم تكتفِ الجهة القضائية بإعادة تأكيد موقفها، بل حدّدت أن منظمتي «لا يمكنها الادعاء بأن لها مهمة تمثيل هؤلاء الأشخاص بموجب إدارة الشؤون».

— وتصور... فرضت علينا غرامة قدرها 3000 يورو بسبب طعن تعسفي!

— غرامة! صاح هاغيودا. هذا كاشف!

— تشهد الغرامة على عداء أيديولوجي معلّن. يعتبر مجلس الدولة أن الطعن في النهب الفرنسي يندرج ضمن إساءة استخدام الحق.

بعيدًا عن الحياد المعلن، كانت المحاكم تمارس عدالة متغيرة الأبعاد وفقًا للمصالح المعنية.

— فما البديل الذي تُخطّط له؟

فتح بيرتبيه ملفًا بعنوان «الاستراتيجية الدولية».

— أمام الإغلاق الحديدي لسبل الطعن الداخلية، اتخذنا قرار رفع النزاع مباشرة أمام الهيئات الدولية المختصة. وبشكل أدق أمام مجلس حقوق الإنسان التابع للأمم المتحدة في جنيف.

قدّمت المقاربة عدة ميزات حاسمة وكان بيرتبيه يعرف ذلك. أولاً، وضعت النقاش على أرضية الحقوق الأساسية بدلاً من المصالح الوطنية الفرنسية. ثانيًا، سمحت بتجاوز عرقلة القضاء الفرنسي. أخيرًا، منحت الملف ظهورًا دوليًا.

— على أي أسس دقيقة تنوي الاعتماد؟ سأل هاغيودا.

فتح بيرتبيه نسخته من الإعلان العالمي لحقوق الإنسان، المشروحة بغزارة على مدار أبحاثه الليلية. أحب هذا الإحساس باتقان موضوعه في أدق التفاصيل.

— ستستند الحجة إلى انتهاكين متكاملين للحقوق الأساسية. أولاً، انتهاك المادة 17 من الإعلان العالمي، التي تنص على أن «لكل شخص حق في التملك» وأن «لا يجوز تجريد أحد من ملكه تعسفًا».

— والانتهاك الثاني؟

— انتهاك المادة 10 من الإعلان العالمي والمادة 14 من العهد الدولي الخاص بالحقوق المدنية والسياسية، اللتين تُكرّسان الحق في محاكمة عادلة. رفض مجلس الدولة الفرنسي النظر في جوهر هذا النوع من القضايا، دون تعليل كافٍ ومع فرض عقوبات رادعة يشكّل انتهاكًا صارخًا لهذا الحق الأساسي.

— تبدو لي الحجة متينة، وافق هاغيودا.

— برفض الوصول الفعّال إلى العدالة لضحايا النهب الثقافي، خلص بيرتبيه، تُحل فرنسا بالتزاماتها الدولية وتخون مبادئها الجمهورية الخاصة. الأمر بهذه البساطة.

— وفيما يتعلق بالوقائع نفسها، ما تحليلك للنهب؟

سمح السؤال لبيرتييه بعرض ثمرة تحقيقاته. أشهر من الأبحاث الشاقة، ليالٍ بيضاء أمضاها في الأرشفة.

— يقوم النهب على ثلاثة أعمال متتالية، جميعها مشوبة بمخالفات جسيمة. لكن مموهة ببراعة، بالطبع.

— أيمكنك تفصيل هذه الأعمال الثلاثة؟

عرض بيرتييه بدقة كل العملية التي أدت إلى نهب مجموعة ماتسوكاتا. استمرت المحادثة. قدّم هاغيودا توضيحات عن شخصية كوجيرو ماتسوكاتا وظروف تشكيل مجموعته، بينما عرض بيرتييه مقارنته بأدق تفاصيلها. رجلان يفصل بينهما كل شيء، لكن يجمعهما العطش نفسه للعدالة.

— دكتور هاغيودا، خلص بيرتييه، دعمك الأخلاقي والعلمي يهم كثيرًا في مشروع سيكون طويلًا، مكلفًا، مليئًا بالعقبات... لكن ضروريًا للغاية.

— سيد بيرتييه، تستطيع أن تعتمد على دعمي الكامل، وكذلك دعم زملائي اليابانيين. القضية عزيزة على قلوبنا وترمز إلى أكثر بكثير من استعادة أعمال فنية. كرامتنا هي على المحك.

حين أنهايا المكالمة، شعر الأستاذ الفرنسي بالطمأنينة في قراره برفع القضية أمام الهيئات الدولية. منحه هذا الدعم الياباني شرعية إضافية لا تُقدَّر بثمن. والأهم، لم يعد يشعر بالوحدة أمام طواحين الهواء التابعة للإدارة الفرنسية. أثر فيه هذا التضامن الدولي أكثر مما كان يرغب في الاعتراف.

في بعد الظهر نفسه، استقبل بيرتييه الأستاذة بياتريس كلاين. محامية متخصصة في مسائل القانون الدولي الخاص. قدّر فيها ذلك المزيج من الخبرة الدقيقة والواقعية — حتى وإن كان جانبها المباشر يُربكه.

— سيد بيرتييه، قالت، شرحت لي سكرتيرتك أنك تريد رأيي في نزاع نهب ثقافي.

أخرجت دفترًا من حقيبتها، حركة آلية لأهل المهنة.

— يهمني الموضوع. تعاملت مع عدة ملفات مماثلة في الآونة الأخيرة أمام الهيئات الأوروبية. أصبحت انتهاكات الحقوق الثقافية موضة. مدّ لها بيرتييه ملفه، ليس دون لمسة من الترقب. كان يخشى حكم المتخصصين على عمله.

— أستاذة كلاين، شكرًا لتخصيصك الوقت. القضية التي أريد رفعها أمام مجلس حقوق الإنسان ليست بسيطة. عدد الصعوبات.

— لدينا قانون دستوري فرنسي، قانون دولي عام، إداري، مدني للملكية...

تصفحت الأستاذة كلاين الوثائق الأولى. ثم رفعت عينيها بذلك التعبير الذي يتخذه المحامون المحنكون حين يشمون رائحة المشكلة.

— يبدو الملف متينًا. لكن قبل الخوض في التفاصيل، لديّ سؤال مزعج.

— أي سؤال؟

— هل استنفدت كل سبل الطعن في فرنسا؟ لأنك تعرف جيدًا أن هذه القاعدة الأولى للجوء إلى الهيئات الدولية.

أصبحت نبرتها تعليمية، تلك التي كان يجب أن تتخذها مع الزملاء الشباب المتعجلين أكثر من اللازم.

— أستاذة، هذه هي المشكلة كلها. رسميًا، لم أرفع دعوى أمام مجلس الدولة في ملف ماتسوكاتا. لكن لديّ أسبابًا ممتازة لأظن أن طعنًا كهذا لن يُجدي نفعًا، عدا أن يُكلفنا غالبًا في الغرامات. الاجتهاد القضائي واضح الآن.

اكتشف بيرتييه على حسابه أن القضاء الفرنسي يمارس التكتّم حين يتعلق الأمر بتراث حساس. حتى لتصحيح ظلم. لا يزال هذا الواقع يُثير سخطه.

— أيمكنك أن تكون أكثر دقة؟ لأن استنفاد سبل الطعن الداخلية هي أول حجة سٌخرجها الحكومة الفرنسية في ملاحظاتها، سألت الأستاذة كلاين.

أعاد بيرتية خطابه المعتاد عن مشاكله مع أعلى جهة إدارية فرنسية. أعاد قراءة أكثر المقاطع تشويقًا في القرارين.

حلّت الأستاذة كلاين مقاطع القرارين التي فُرئت عليها للتو. قدّرت فورًا شذوذ هذه القرارات بالنظر إلى المعايير الدولية.

— الاجتهاد القضائي صارم، هذا أقل ما يمكن قوله. تبدو لي الغرامة غير مبررة. يرفض مجلس الدولة رفضًا قاطعًا الاعتراف بمصلحتك في التصرف، حتى بموجب إدارة الشؤون، التي هي مع ذلك ممارسة راسخة في القانون الفرنسي. في هذه الظروف، من المعقول اعتبار أن طعنًا جديدًا في ملف ماتسوكاتا كان سيُحكم عليه بالفشل وكان سيُعرّضك لعقوبة جديدة، ربما أثقل حتى.

طمأن التحقق من قبل متخصصة في المنازعات الدولية بيرتية. لم يكن مقاضيًا عنيدًا يُصرّ، بل شخصًا واقعيًا يستخلص النتائج المنطقية للعداء المنهجي للقضاء الفرنسي. طمأنه هذا الاعتراف في خياراته.

— هذا ما أظنه. يعترف الاجتهاد القضائي الدولي لحقوق الإنسان بأن التزام استنفاد سبل الطعن الداخلية لا ينطبق حين تكون هذه الطعون غير فعّالة بوضوح أو تُعرّض مقدم الطلب لمخاطر غير متناسبة.

— حسنًا. تبدو لي المسألة الأولية محسومة، وافقت الأستاذة كلاين. لننتقل إلى الجوهر. على أي مواد دقيقة من الصكوك الدولية تنوي بناء بلاغك؟

انحنى إلى الأمام باهتمام. كان اختيار الأسس يُحدّد إلى حد كبير حظوظ النجاح أمام المجلس. قدّرت كلاين هذا النوع من التحدي الفكري.

كرّر بيرتية ما عرضه على الدكتور هاغيودا. باستدعائه الحرمان من العدالة، حوّل بيرتية ضعف موقفه الظاهر — غياب طعن مباشر في

قضية ماتسوكاتا — إلى حجة جوهرية ضد النظام القضائي الفرنسي نفسه.

— تبدو لي حجتك مبنية جيداً. الانتهاكات التي تحتج بها موصوفة وموثقة. لكنني أرغب في التأكيد على صعوبة عملية ستيثيرها الحكومة الفرنسية حتماً. كيف سثبرر صفتك للتصرف باسم ورثة ماتسوكاتا؟ المجلس منتبه جداً للتمثيل الفعلي للضحايا.

لامس السؤال كعب أخيل للمشروع بأكمله. دون تمثيل واضح للضحايا، خطرت حتى أن الحجة الأكثر لمعاناً قد تنهار.

— هنا تتدخل إدارة الشؤون بشكل مركزي، أجاب بيرتييه.

— تابع، أرجوك.

عرض بيرتييه الحجج نفسها التي شرحها للدكتور هاغيودا بشأن هذه النقطة تحديداً.

— ما هي الشروط لتصمد حجتك بشأن هذه المسألة؟

نشر بيرتييه استدلاله بدقة.

— أولاً، نية التصرف لصالح الآخر لا لنفسه. ثانياً، الفائدة الموضوعية للعمل للمستفيد. ثالثاً، غياب معارضة معروفة من الورثة.

— وتعتبر أن هذه الشروط الثلاثة متوفرة؟

— تماماً، أكد بيرتييه. في بلاغي، سأثبت أن كل الشروط القانونية مستوفاة. تنتج نية التصرف للآخر بوضوح من الهدف النظامي لمنظمتي غير الحكومية، وهو السهر على مشروعية المجموعات المتحفية والعمل من أجل استعادة الممتلكات المنهوبة. فائدة العمل واضحة إذ يتعلق الأمر بتصحيح ظلم كبير.

— والشرط الثالث؟

— لا وجود لأي معارضة معروفة من الورثة، الذين ليسوا جميعاً محددين رسمياً حتى اليوم.

لم ينتج غياب المعارضة عن اتفاق ضمني، بل عن جهل ذوي الحقوق، ضحايا هم أنفسهم للتشتت المنظم من قبل التاريخ. مفارقة حولها بيرتبيه إلى ميزة.

بدأت الأستاذة كلاين مقتنعة، رغم أن جزءاً منها بقي متشككاً في حظوظ النجاح الحقيقية.

— المقاربة ذكية وتشهد على معرفة واسعة بالقانون المدني الفرنسي. خصوصاً أنك تستطيع الاحتجاج بالهدف النظامي الصريح لمنظمتك غير الحكومية، الذي يتوافق تماماً مع هذا النوع من العمل. يمكن أن يعترف المجلس بإدارة الشؤون كأساس صحيح لصفتك في التصرف. لكن عملياً، كيف تنوي هيكلة وصياغة البلاغ؟

عرفت المحامية أن أفضل القضايا يمكن أن تفشل بسبب عيوب أو أخطاء في الصياغة.

أراها بيرتبيه المذكرات الختامية التي بدأ في إعدادها. شهدت الوثيقة، المنظمة في أقسام متميزة بنظام إحالات متقاطعة، على إعداد دقيق.

— صغت مشروعاً كاملاً للبلاغ من نحو ستين صفحة. تتبع الحجة خطة منطقية، مُصممة لإقناع قانونيين دوليين.

— أيمكنك تلخيص الهيكل؟

— بالطبع. أولاً عرض وقائعي مفصل وزمني للنهب وآلياته، بكل الإحالات الأرشيفية اللازمة. ثم تحليل للانتهاكات الموصوفة، بالاستشهاد بالاجتهاد القضائي الدولي ذي الصلة. أخيراً عرض مفصل لطلبات التعويض.

تشابك كل عنصر منطقياً مع الآخرين ليُشكّل مجموعة متماسكة ومقنعة.

— وما هي مطالبك الملموسة؟

فتح بيرتبيه القسم الأخير من ملفه.

— أرغب في أن يُقرّ المجلس رسميًا بانتهاك حقوق ورثة ماتسوكاتا ويوصي صراحة الجمهورية الفرنسية بالشروع في استعادة فورية وكاملة للأعمال المنهوبة.

— هل لهذه التوصيات قوة إلزامية؟

— لا، توصيات الأمم المتحدة ليست ملزمة بالمعنى الصارم، لكن لها قوة أخلاقية كبيرة، خصوصًا حين تصدر عن الأمم المتحدة.

عاجزًا عن إلزام فرنسا بقوة القانون، راهن بيرتية على الضغط الدولي لكسب القضية. توافقت هذه المقاربة غير المباشرة مع شخصيته، الالتفاف بدلًا من المواجهة.

أومات الأستاذة كلاين برأسها موافقة، وإن احتفظت بتحفظاتها بشأن الفعالية الحقيقية للطريقة.

— إدانة رسمية من الأمم المتحدة ستخلق ضغطًا أخلاقيًا قويًا.

— سيكون معقدًا على الحكومة الفرنسية أن تتجاهل علنًا إدانة أممية.

— هذا هو الرهان الذي تُقامر به. لن تستطيع فرنسا تبرير الإبقاء على نهب مُدان رسميًا أمام الرأي العام وإعلام العالم بأسره.

تشكّل تواطؤ فكري بين القانونيين. فهمت الأستاذة كلاين منطق المشروع الذي يتجاوز بكثير حالة مجموعة ماتسوكاتا. أعجبت بهذا العزم، حتى وإن اعتبرته ساذجًا.

استمر نقاشهما أطول. قدّمت المحامية توضيحات عن الإجراءات أمام مجلس حقوق الإنسان، مقترحة بعض التحسينات التحريرية ومُنبهة إلى الفخاخ الواجب تجنبها. أثبتت خبرتها أنها ثمينة للتنقل في متاهة البيروقراطية الأممية.

— سيد بيرتية، خلصت، كل هذا يبدو لي مُعدًا بشكل ملحوظ. لكن لا تنسَ أبدًا أن الحكومة الفرنسية ستُحرّك أفضل قانونيها وكل وسائلها للطعن في بلاغك. لن تدع فرنسا اتهامًا خطيرًا كهذا يمر دون رد فعل.

لاحت المعركة صعبة وغير متكافئة. حين ودّعته نحو الساعة السادسة مساءً، امتلك بيرتبيه خارطة طريق واضحة لإنهاء بلاغه. سمح تحليل الأستاذة كلاين بصقل آخر التفاصيل وتوقع الاعتراضات الفرنسية. في المساء نفسه، وفاءً لعاداته في العمل الليلي، اتصل بيرتبيه بصديقه جان-ميشيل دوران.

أستاذ في القانون الدولي العام، تمتع دوران بسمعة تجاوزت بكثير الحدود الفرنسية. تعود صداقتهما إلى الجامعة، حقبة كانا يتشاركان فيها المثل نفسها للعدالة.

— جان-ميشيل، مساء الخير. أمل ألا أزعجك متأخرًا جدًّا؟ أعرف أنك احتفظت بعاداتك السهرانة.

خشخش صوت جان-ميشيل دوران في السماعه، مُصَبِّعًا بذلك الفكاهة الودودة التي أتقنها منذ سنواتهما على مقاعد كلية الحقوق. عرف كل منهما الآخر جيدًا جدًا لتفويت المجاملات المعتادة.

— أبدأ، ببير. تعرفني، أنا فراشة ليلية! وعلاوة على ذلك مع ملفاتك الملتوية، نادرًا ما أجد وقتًا للملل. ماذا يُقلِّقك هذه المرة؟

ابتسم بيرتبيه. كان لدوران موهبة نفس يقينياته بثلاث كلمات موضوعية جيدًا. احترم صديقه، حتى وإن اعتبره حالمًا لطيفًا.

— أرغب في أن تُلقني نظرة على ملف أنوي رفعه أمام الأمم المتحدة. نهب ثقافي فرنسي يعود إلى الحرب، لكن بتشعبات اليوم...

— آه! لا تتغير. دائمًا تريد إيقاظ الموتى. احكِ لي ذلك، تعرف أنني أحب حين تهاجم الأسماك الكبيرة.

لم يكن اهتمام دوران مُصطنعًا. منذ سنوات، كان يُحلل قضايا التراث المسروق بشغف.

انطلق بيرتبيه عندئذ في رواية-نهر. خمس عشرة دقيقة من مونولوج نشر فيه خطته. أصغى دوران، تذر من حين لآخر، طرح أسئلة المتخصص.

— ببير، يبدو كل شيء صامدًا. بل مذهل جدًا. فعلوا ما شأؤوا، إنها سرقة منظمة.

أفاده هذا التأييد. لم يكن دوران من النوع الذي يُورَّع الإطراء لإرضاء الآخرين — بل العكس. طمأنه تحققه على متانة عمله.

— لكن، حسنًا... ألا تعتقد أن هناك مشكلة صغيرة في التوقيت؟ ثمانون عامًا، بدأت تُصبح مدة طويلة. لا تحب المحاكم إحياء متوشالغ، حتى للقضية الصحيحة.

توقع بيرتبيه الاعتراض. أعدّ رده منذ زمن طويل، مدرّكًا هذا الضعف الظاهر.

— جان-ميشيل، الانتهاكات الجسيمة لحقوق الإنسان، لا تسقط بالتقادم أبدًا.

— نظريًا ربما، لكن عمليًا...

— النهب مستمر كل يوم منذ 1944، ما دامت فرنسا تُصرّ على الاحتفاظ بما لا يعود لها.

أصابته الحجة الهدف. قدّر دوران هذا النوع من الالتفاف الفكري الذي يُحوّل الضعف إلى قوة.

— ليست سيئة على الإطلاق، ببير. تُحوّل جريمة جدّ إلى تلبّس يومي. لكن ماذا تتوقع؟ أن يشكروك؟

— بالطبع لا! لن تتخلى فرنسا أبدًا عن القطعة بمحض إرادتها. كان لديها قرابة قرن لتنظيف بيتها، لم تفعل ذلك. الآن، سنُساعدها على ذلك.

بدأ دوران يُدرك المنطق. لم يكن بيرتبيه يلعب دور الفارس النبيل، بل كان يحسب ببرود. الإحراج الدولي كأداة ضغط. ليس رومانسيًا جدًا، لكن فعّال.

— ببير، في البداية، بدت لي قضيتك مجنونة قليلًا. لكن في النهاية... نعم، يمكن أن تنجح. محفوفة بالمخاطر، لكنك على الأقل تضع النقاش حيث يجب أن يكون.

أكمل تأييد صديقه النهائي طمانة بيرتبيه. أكد هذا التحقق حدسه. في الأسابيع التالية، قرر بيرتبيه أن يمنح القضية ظهوراً. نشر، تحت توقيع، عدة مقالات على الإنترنت في مواقع متخصصة: أكاديميا، معهد لايبنتز، فيلاج دو لا جوستيس... جمعت هذه المقالات آلاف القراء. تضاعفت سريعاً المكالمات الهاتفية والرسائل الإلكترونية. أساتذة أمريكيون، مؤرخون بريطانيون، متخصصون ألمان، ناشطون جمعياتيون. نسجت شبكة دولية صغيرة نفسها تلقائياً. أكد كل اتصال جديد لبيرتبيه أنه لا يخوض معركته منفرداً. أصبحت قضية ماتسوكاتا رمزاً — الاختبار الحقيقي لقدرة القانون الدولي على تصحيح أخطاء الماضي.

أطرى هذا الاعتراف الدولي غروره، حتى وإن دافع عن نفسه. بعد سنوات من الغموض الأكاديمي، شهد عمله يُستشهد به ويُناقش في العالم بأسره منح متعة لم يجرؤ على الاعتراف بها.

في 26 مارس 2025، وضع بيرتبيه توقيعهُ أسفل الوثيقة النهائية. أكمل ملف اتهام أقيم يوماً ضد نهب حكومي. وهو يتأمل النسخ الموجهة إلى جنيف، أدرك أنه تجاوز عتبة. أفلتت القضية منه بدخولها دوايب العدالة الدولية. ببطنها الأسطوري، تقلباتها، لكن أيضاً — من يدري؟ — آفاقها للتعويض.

بُنيت حياته بأكملها حول هذا النوع من المعارك. الآن وقد أطلق الأهم من بينها، تساءل إن كانت لديه القوة لخوضه حتى النهاية.

— كوجيرو ماتسوكاتا، همس وهو ينظر إلى نسخة غرفة آرل المعلقة على الجدار، معركتك لم تبدأ بعد. أهديك هذه المعركة.

الفصل الثامن: المعركة الدولية

جنيف، مقر الأمم المتحدة، يونيو 2025

كانت بحيرة ليمان تعكس انعكاساتها الذهبية ذلك الصباح، وكأنها تسعى إلى إنساء الأجواء الجادة المُثقلة على مكاتب المفوضية السامية لحقوق الإنسان. في قاعة المؤتمرات، كان الفريق العامل يفحص البلاغات الشهرية بتلك الروتينية التي تفرضها البيروقراطية الدولية، حتى أمام أكثر المآسي الإنسانية إثارة.

تكرر الطقس بانتظام ساعة سويسرية. كان نحو عشرة خبراء يدرسون شكاوى أفراد أو منظمات يرون أنهم تضرروا من الدول. عجلة صامتة، لكنها أساسية في نظام حماية الحقوق الأساسية.

رأست كارمن فاسكيز الجلسة بسلطة كانت تُخفي بصعوبة شكوكها الخاصة في الفعالية الحقيقية لمؤسستها. رأت كل شيء: الوعود غير المُنفذة، التقارير المدفونة، التوصيات المُتجاهلة. قضية سابقة في المحكمة العليا الإسبانية، كانت ممثلة لهؤلاء القانونيين الذين تكونوا في مرحلة ما بعد الفرانكوية، متغذين بمثل عدالة يتجاوز الحدود الوطنية.

غير أن ثلاثًا وعشرين سنة من فك تشابك أعقد القضايا جعلتها متشككة في قدرة الدول على إصلاح نفسها تلقائيًا. تعلّمت أن الحكومات لا تتنازل أبدًا بطيبة خاطر، بل فقط تحت ضغط الرأي العام أو مصالحها الاقتصادية. صلبها هذا الإحباط التدريجي، لكنه جعلها أيضًا أكثر عزمًا على استخدام السلطات الضئيلة المتاحة لها.

كان شعرها الرمادي يُوطّر وجهًا بلامح رقيقة لم يكشف مشاعرها أبدًا — واجهة بنتها لتنجو في وسط كان إظهار الضعف فيه يعني فقدان كل مصداقية.

احترمها معاونوها دون أن يُحبّوها، معترفين فيها بامرأة اضطرت للتضحية بأنوثتها على مذبح الفعالية.

وهي تتصفح جدول الأعمال، شعرت بذلك الإعياء المؤلف الذي كان يُهاجمها أمام تراكم المظالم. كان كل ملف يُمثل حياة مكسورة، أملاً خائبة، وعوداً خانها من قطعها.

— يتضمن جدول أعمالنا الفحص الأولي لاثني عشر بلاغاً جديداً. كانت نطقها، المُصَبَّغ بلمسة خفيفة من اللكنة القشتالية، يحمل صوته طبيعياً في فضاء القاعة. عرفت كيف تُلَوِّن صوته للحفاظ على انتباه جمهورها دون أن تبدو أبداً وكأنها تُجبره، موهبة اكتسبتها خلال سنوات من الجلسات حيث تعلّمت أن الإقناع أفضل من التخويف. لكن اليوم، تسلّلت لمسة من الإرهاق في نبرتها المعتادة.

— الأول منها، المُشار إليه بالرقم 2025/421، صادر عن منظمة غير حكومية فرنسية ويتعلق بمجموعة أعمال فنية اقتنتها فرنسا في الأعقاب المباشرة للحرب. يجب أن أقول إن هذا الملف يُقدّم من البداية خصائص خاصة تستحوذ على الانتباه.

اعتادت فاسكيز إعداد كل جلسة بعناية، مُعوّضة بذلك عن عجزها أمام الرهانات الكبرى.

— تدّعي المنظمة غير الحكومية الطالبة حرماناً من العدالة وانتهاكات لحق الملكية، تُشكّل، إن ثبتت، إخلالات جسيمة بالالتزامات الدولية لفرنسا. لكن لا نحكم مسبقاً على شيء ولنترك مقررنا يعرض علينا الوقائع.

حول الطاولة، أظهر القانونيون الستة الحاضرون انتباهاً مهذباً. فحص كل واحد منهم بالفعل مئات البلاغات، مُكتسباً قدرة خاصة على تقييم وجاهة حجة ما بسرعة.

عكست هذه الجمعية الكوزموبوليتية تنوّع النظام الأممي: قانونيون تكوّنوا في تقاليد مختلفة، دبلوماسيون مُعاد تدويرهم، أكاديميون يبحثون عن اعتراف دولي. جمعهم جميعاً طموح تغيير العالم عبر القانون.

فتح كلاوس فيبر، المُعيّن مقرراً، الملف المُلقى أمامه. جسّد الصرامة الألمانية. أستاذ مشارك في جامعة بوتسدام ومؤلف عدة مراجع في

المنازعات الدولية، تمتع في الأوساط الأكاديمية بسمعة الصرامة. فضّلت مقاربته التحليل الوقائي على الاعتبارات العامة. أرست أعماله عن النهب النازي، ثم عن الاستيلاءات الاستعمارية، معايير جديدة. لكنه احتفظ بتلك المسافة كمراقب منعه من السخط. بالنسبة إلى فيبر، كان الظلم قبل كل شيء مشكلة مفاهيمية يجب حلها، لا معاناة إنسانية يجب تضييدها.

وهو يتصفح ملف ماتسوكاتا، كان لديه حكم مسبق مواتٍ للبناء الفكري الذي نشرته الطالبة. قدّمت هذه القضية بالضبط نوع التعقيد الذي كان يعشقه، شبكة معقدة من المسائل الدستورية والقانون الدولي والإجراءات الإدارية التي تتطلب تحليلًا دقيقًا.

— سيدتي الرئيسة، بدأ فيبر، كرّست الأيام الأخيرة لدراسة كاملة لهذا البلاغ، ويجب أن أعترف أنه يُقدّم خصائص تستحق انتباهنا المُستمر. أحبّ فيبر هذه اللحظات حين كان يستطيع أن ينشر معرفته الموسوعية أمام جمهور أسير.

— نحن أمام طلب يطعن في شرعية اقتناء فرنسا لمجموعة فن ياباني تعود لشخص يُدعى كوجيرو ماتسوكاتا، جامع تحف توفي سنة 1950. ظروف اختفاء هذه الأعمال... مُشوَّشة، بأقلّ تعبير.

خلقت دقة العرض التمهيدي في الجمعية تلك الأجواء من التركيز التي كانت تسبق فحص أكثر القضايا اتساقًا. تعلّم أعضاء الفريق العامل أن يُميّزوا بسرعة البلاغات ذات القيمة عن العرائض الخيالية التي كانت تُثقل أحيانًا جدولهم. كانت هذه الأخيرة تنتهي عادة في سلة المهملات بعد قراءة عابرة.

رفعت إيزابيلا بيريرا يدها لتأخذ الكلمة. حملت هذه المديرية المساعدة السابقة في وزارة الثقافة البرتغالية على كتفها ثقل مسيرة نموذجية، لكن محبطة. كان مسارها كلاسيكيًا — كلاسيكيًا أكثر من اللازم ربما لشخص كانت تنوq سرًا إلى مغامرات أقلّ تقليدية. خريجة جامعة كويمبرا، مارست أولاً كمحامية متخصصة في المنازعات المدنية قبل الانضمام إلى الإدارة العامة. كان هذا التحوّل ثمرة دعوة صادقة، لكن

أيضًا استسلام أمام خيبات القطاع الخاص حيث اكتشفت أن المال غالبًا ما يعلو على العدالة. منحتها خبرتها في منازعات الاستعادة، المكتسبة في معالجة عدة ملفات حساسة تتعلق بالمستعمرات البرتغالية السابقة، سلطة معترفًا بها داخل المجلس. كانت بيريرا مثالية محبطة، خائبة الأمل من إحباط خدمة نظام تعرف أنه ناقص.

— سيد فيبر، هل تتمتع المنظمة غير الحكومية الفرنسية بصفة التصرف باسم ورثة يابانيين لا تُمثّلهم صراحة؟ عادة ما تعثر معظم البلاغات من هذا النوع على هذه العقبة تحديدًا. رأيت ملفات متينة جدًا في الجوهر تنهار على مسائل التمثيل... توقفت، مُدركة أنها تكشف عن تشاؤمها.

استشار فيبر ملاحظاته المكتوبة بخط اليد — رفض بعناد الانتقال إلى الرقمي، مؤكدًا أن الكتابة اليدوية تُفضّل التأمل، لكن مُخفيًا بذلك خوفه من حادثة تجاوزته. شهدت أوراقه المغطاة بخطه الصغير المُتراص على عمل دقيق.

— سيدة بيريرا، يلامس سؤالك جوهر الصعوبات التي يُثيرها هذا البلاغ. لكن الطالبة استبقت الاعتراض. توقف فيبر لحظة، مُندوفًا هذه اللحظة التي سيكشف فيها الحجة التي درسها.

— تحتج منظمة عودة واستعدادات غير الحكومية بـ«إدارة الشؤون»، المنصوص عليها في المادة 1301 من القانون المدني الفرنسي، التي تسمح بالتصرف بشكل مفيد لحساب الآخر دون امتلاك تفويض صريح منه. إنه ذكي، يجب أن أعترف بذلك. لم يستطع فيبر إلا أن يُعجب بدقة الاستدلال.

— يستندون إلى أن الورثة اليابانيين سيكونون في استحالة عملية للتصرف بأنفسهم ضد الدولة الفرنسية.

تصفح ملاحظاته بذلك البطء الذي كان يُثير غضب زملائه، لكنه سمح له بإتقان كل تفصيل.

— تُقدّم المنظمة غير الحكومية مذكرة من سبع وثلاثين صفحة بشأن مسألة القبول هذه وحدها، مع مئة واثنى عشرة إحالة قضائية. عمل احترافي حقًا. يستشهدون بعدة قرارات للمحكمة الأوروبية لحقوق الإنسان تعترف بصفة التصرف لجمعيات في ظروف مماثلة.

قدّر أعضاء الفريق العامل الصرامة التي أعدّ بها بعض المُقدّمين بلاغاتهم. كان ذلك يُغيّر من العرائض المُهملة التي كانوا يتلقونها غالبًا، مجرد متنفس لإحباطات شخصية دون أساس متين.

قطّب توماس هاريسون حاجبيه قليلاً وهو يستمع إلى الشرح. جسّد التقليد الأنغلو سكسوني الذي يُفضّل الواقعية على الأناقة المفاهيمية — طريقة لإخفاء ضيقه أمام الدقائق القارية التي كان يعتبرها بيزنطية. كشفت بذلته المُقلّمة بنمط أمير ويلز، المُفصّلة عند خياط جيد في سافيل رو، عن تأثير المدينة المالية وأبرزت الأناقة الخفية — لكن المؤكدة — للمؤسسة الجامعية البريطانية. تمتعت أعماله عن الفوارق بين القانون العام والقانون المدني الروماني-الجرماني بحجية في الجامعات الأنغلو فونية، لكنها كشفت أيضاً عن جهل بخصوصيات القانون المدني الذي ادّعى تحليله.

— تحليل مثير للاهتمام، أقرّ، يبدو لي هشاً بالنظر إلى المعايير الدولية المعتادة. يميل الفرنسيون إلى الاعتقاد بأن قانونهم المدني ينطبق في كل مكان. إنها سمة متكررة في عقليتهم، هذا العجز عن تصور أن أنظمة أخرى قد تكون أكثر فعالية. رأيت حججاً مماثلة تنهار أمام هيئاتنا، حتى وإن كان يجب أن أعترف أن هذه الحجة تُظهر ابتكاراً حقيقياً. لكن الابتكار لا يُمكن أن يحل محل المتانة المفاهيمية. اسمحوا لي أن أطرح سؤالاً يشغلني منذ بداية عرضكم. كيف يمكن لهذه المنظمة أن تدّعي معرفة والدفاع عن المصالح الحقيقية لورثة يابانيين لم تلتق بهم قط ولم يمنحوها أي تفويض؟ يبدو لي افتراض تمثيل كهذا... جريئاً جداً. في نظام القانون العام، نحن أكثر صرامة بكثير بشأن مسائل التفويض والتمثيل هذه. لا يمكن للمرء أن يدّعي التصرف لصالح آخر دون موافقته الصريحة.

أصاب الاعتراض الهدف وعرف هاريسون ذلك. لأن القانون الدولي، مهما كان مرناً في نقاط كثيرة، يبقى متشديداً في تفصيل واحد: يجب أن يكون الضحايا المُفترضون محددين ومُتمثلين بوضوح. تفصيل غالباً ما يُفشل أروع مرافعات المحامين، حين يتبخر ذوو الحقوق في أرجاء الكوكب.

دوّنت كارمن فاسكيز الملاحظة في مذكرتها، مُقدّرة في الوقت نفسه دقة الطعنة البريطانية.

— سيد هاريسون، اعتراضك يستحق فعلاً التوقف عنده، تدخلت بصوت مُتزن. لكن يجب أن نفحص نقطة القبول بأقصى انتباه خلال تقييمنا المفصل. غير أنني ألاحظ أنك تُثير هذه المسألة حتى قبل الاستماع إلى العرض الوقائعي الكامل. ألن يكون من الأحكم أن نفحص أولاً جوهر الادعاءات قبل أن نُبدي رأينا في الجوانب الشكلية؟ كان اللوم مهذباً، لكن حازماً. سئمت فاسكيز رؤية النقاشات تنجرف نحو تأملات إجرائية سمحت بتجنب المسائل الجوهرية المُزعجة.

— قبل الخوض في الجوانب الشكلية، قد يكون مفيداً أن يعرض علينا مقررنا الظروف الحقيقية والملاحظة والموضوعية التي تستند إليها الطالبة. سيد فيبر، لك الكلمة.

وافق القانوني الألماني بإيماءة رأس.

— تتمحور حجة الطالبة بشكل مُنظم بشكل ملحوظ حول الطعن في ثلاثة أعمال رسمية متتالية، بدأ وهو يبحث عن المقاطع الأكثر دلالة. كل واحد منها، وفقاً لها، مشوب بمخالفات جوهرية تُشكك في صحة الاستيلاء الفرنسي.

فتح فيبر ملفه على صفحة مُعلّمة بإشارة حمراء.

— العمل الأول المطعون فيه. في أكتوبر 1944، وضع مرسوم للجنرال ديغول مجموعة ماتسوكاتا تحت الحجز باعتبارها «ممتلكات عدو». والحال أن الطالبة تطعن في هذا التوصيف، مُحجّجة بأن فرنسا لم تُعلن الحرب رسمياً على اليابان أبداً. إن كان هذا التحليل دقيقاً، فإن كل الصرح الفرنسي سيهتز منذ أصله.

تُقدّم المنظمة غير الحكومية دعماً لادعاءاتها نسخاً من وثائق أرشيفية تبدو أصيلة، مراسلات دبلوماسية، برقيات مُشفّرة، محاضر اجتماعات حكومية...

رفع رافائيل موراليس، الذي كان حتى ذلك الحين يخربش شاردًا على دفتره، رأسه فجأة. اكتسب هذا المستشار السابق في الخارجية التشيلية سمعته في معالجة قضايا النهب المرتبطة بالديكتاتوريات العسكرية في أمريكا الجنوبية — ماضٍ لا يزال يُطارده ويُغَيّر ريبته تجاه كل الدول، حتى الديمقراطية منها. كانت لجان الحقيقة والمصالحة أرضه المفضّلة، لكن أيضًا مسرح أكبر خيباته أمام الإفلات المنظّم من العقاب. رأى موراليس أدلة كثيرة تخنفي، شهودًا كثيرين يتراجعون، مسؤولين كثيرين يُفلتون من الملاحقة ليثق بعد الآن بالخطابات الجميلة.

— سيد فيبر، تدخّل، هل يمكن التحقق من ادعاء بهذه الخطورة يتعلق بحالة الحرب بين دولتين حليفيتين بشكل مستقل من قبل مصالحنا؟ لأننا لا نستطيع الاكتفاء بالوثائق التي تُقدّمها طالبة وحدها، مهما بدت مُغرية للوهلة الأولى. رأيت أدلة زائفة كثيرة في مسيرتي لأكون غير مُتشكك.

عرف موراليس عمّا يتحدث — عبرت وثائق مُزوّرة كثيرة مكتبه خلال سنوات بينوشيه. في هذا النوع من المنازعات، غالبًا ما تُحدّد صحة الأدلة الوثائقية النتيجة النهائية، وتعلّم أن يرتاب من الأدلة الجميلة أكثر من اللازم.

— ملاحظتك ليست فقط وجيهة، بل ضرورية، أجاب فيبر، مرتاحًا لمشاركته حذره. أنت محق ألف مرة في التأكيد على أن التحقق المستقل يُشكّل شرطًا مسبقًا لا غنى عنه لأي تقييم جاد. أخذت حرية الاتصال بزميلي السابق هوفمان، في الأرشيف الاتحادي الألماني، الذي وضع أساليب خبرة وثائقية موثوقة جدًا. يمكن إجراء التحقق بسهولة لدى الأرشيف الوطني الفرنسي، الذي يحتفظ بكامل وثائق فرنسا الحرة والحكومة المؤقتة. يكفي طلب رسمي من مجلسنا، وفق

القنوات المعتادة للتعاون بين المؤسسات، للحصول على تأكيد أو نفي نهائي للدعوات المُقدّمة.

كان الاقتراح ماهرًا، وفهم الجميع ذلك فورًا. حوّل فيبر للتو عبء الإثبات نحو السلطات الفرنسية نفسها.

إن وافقت باريس على تبليغ الوثائق المطلوبة، سيسمح محتواها بحسم المسألة المتنازع عليها. إن رفضت السلطات تبليغًا كهذا، يمكن تفسير الرفض كاعتراف غير مباشر بهشاشة موقفها.

أشارت إيزابيلا بيريرا بيدها، مُشيرة إلى رغبتها في التدخل.

— هل تُقدّم طالبة عناصر بخصوص الدوافع التي دفعت فرنسا للحفاظ على الغموض بشأن مسألة إعلان الحرب هذه؟

— نقطة ممتازة، سيدة بيريرا. تُطوّر المنظمة غير الحكومية تحليلًا معمّقًا عمّا سيكون استراتيجيّة مُتعمّدة.

قلّب فيبر عدة صفحات، باحثًا عن المقطع المناسب.

— حافظت حكومة فرنسا الحرة طوعًا على خلط بين وضعها كحركة مقاومة ووضعها كدولة ذات سيادة. سمح هذا الغموض لها بادعاء صلاحيات حكومة شرعية مع تجنب قيود القانون الدولي.

وافقت كارمن فاسكيز على الاقتراح بإيماءة رأس.

— سنُلاحظ فعلاً ضرورة التحقق الوثائقي في استنتاجاتنا الأولية. لكن تابع عرضك، سيد فيبر. ما هي الأعمال الأخرى المطعون فيها من قبل طالبة؟

— العمل الثاني الذي طعن فيه حجة المنظمة غير الحكومية. تطبيق معاهدة سان فرانسيسكو لسنة 1951. لم يكن يجب أن تُعني هذه المعاهدة بامتلاكات بلد لم تكن فرنسا في حرب رسمية معه. تُثير طالبة هنا تناقضًا أساسيًا: لا تنطبق المعاهدة بحكم التعريف إلا على «ممتلكات الأعداء» بالمعنى الصارم للقانون الدولي العام. والحال أنه إن لم تكن فرنسا في حرب رسمية مع اليابان، كما يُوحي الجزء الأول من الحجة، فلا يمكن وصف الممتلكات اليابانية الموجودة على

الأراضي الفرنسية بهذا الوصف. وبالتالي تصبح معاهدة سان فرانسيسكو غير قابلة للتطبيق على الوضع الفرنسي.

اعتدل توماس هاريسون في مقعده، مُعَبِّرًا عن اهتمام حاول إخفائه.

— يفترض هذا التحليل أن مُحَرَّرِي معاهدة سان فرانسيسكو لم يأخذوا في الحسبان هذا الغموض المحتمل. أليس هذا إعطاء ذكاء الدبلوماسيين في ذلك الزمن مصداقية قليلة؟

— هذا اعتراض مثير للاهتمام. لكن نُقَدِّم المنظمة غير الحكومية مقتطفات من المناقشات التحضيرية للمعاهدة تُظهر أن مسألة الوضع الدقيق لفرنسا تجاه اليابان لم تُحسم أبدًا.

تصفح فيبر ملاحظاته، باحثًا عن الإحالات الدقيقة.

— وفقًا لأبحاثهم، تجنَّب المفاوضون الأمريكيون عمدًا إثارة هذه المسألة لعدم تعريض وحدة المعسكر الحليف للخطر. شكل من أشكال الإجماع بالصمت، إن جاز التعبير.

أظهرت إيزابيلا بيريرا فضولها تجاه الحجة وهي تنحني نحو وثائقها. — يبدو لي التحليل مُقْلَقًا باتساقه الداخلي. إن كانت المُقَدِّمات الوقائية دقيقة، يبدو التناقض الذي حدّته طالبة صعب الدحض على مستوى المنطق الصرف. لكن أخبرنا، ما العمل الثالث المُتَّهَم في الحجة؟ لأنني أتخيل أن البرهان لا يتوقف عند التناقض المتعلق بمعاهدة سان فرانسيسكو.

— لست مخطئة، سيدة بيريرا. العمل الثالث والأخير المطعون فيه هو مرسوم 1958 الذي اتُّخذ، وفقًا للطالبة، انتهاكًا للقواعد الدستورية، مُصَادِقًا نهائيًا على الاستيلاء على المجموعة المتنازع عليها. اعتمد المرسوم انتهاكًا صارخًا للدستور الفرنسي لسنة 1958، الذي لم يكن يسمح باستخدام المراسيم الحكومية إلا في حالات الطوارئ، لا للتبرعات الدولية بأعمال فنية التي تدخل عادة ضمن اختصاص البرلمان.

أثارت الحجة همهمات اهتمام في الجمعية. أبعد من مسائل الجوهر بشأن شرعية الاستيلاء الأصلي، أثار الملف مسائل شكلية دستورية تمس أسس تنظيم السلطات العامة الفرنسية نفسها. أخذ رافائيل موراليس الكلمة.

— إن لم أخطئ، فنحن أمام استيلاء غير شرعي على ثلاثة مستويات. العمل الأولي لسنة 1944 دون أساس قانوني، والتطبيق التعسفي لمعاهدة دولية سنة 1951، وتسوية غير نظامية دستوريًا سنة 1958؟

— هذا بالضبط. نتحدث المنظمة غير الحكومية عن «تركيب متسلسل» حيث يحاول كل عمل تبرير سابقه، لكن الهشاشة الأصلية تلوّث المجموعة بأكملها.

تحدث توماس هاريسون بذلك الاعتدال الذي ميّز عادة تدخلاته، لكنه أخفى بصعوبة إثارته أمام احتمال رؤية فرنسا في مأزق. لم يكن يتحمس أبدًا علنًا، مُفضِّلًا تقطير ملاحظاته برباطة جأش بريطانية تامة.

— سيد فيبر، إن كان تحليلك لحجة الطالبة دقيقًا — وليس لديّ سبب للشك في ذلك — فنحن أمام انتهاك موصوف لحق الملكية، مُقتَرَن بحرمان من العدالة من جانب المحاكم الفرنسية. أيستحق الوضع، برأيك، فحصًا من جانبنا؟ لأنه يبدو لي أننا نلمس هنا أسس دولة القانون نفسها في ديمقراطية غربية.

كشف تساؤل الممثل البريطاني، دون أن يبدو ذلك، عن ارتياحه لرؤية منافس قاري في مأزق. أبعد من التحليل الدقيق للحجج المُقدَّمة، كان على الخبراء تحديد إن كان البلاغ يُقدِّم عناصر جادة كافية لتبرير الشروع في إجراء تخاصمي مع الدولة الفرنسية.

— هذا تقييمي الأولي، أكّد فيبر. يُثير البلاغ مسائل وقائية تتجاوز بكثير الإطار المعتاد للعرائض التي نتلقاها.

شعر فيبر بإثارة لم يشعر بها منذ زمن طويل. جمعت القضية كل العناصر التي كان يعشقها. تعقيد قانوني، رهانات تاريخية، أبعاد دولية.

— يبدو لي أن جودة التوثيق وخطورة الانتهاكات المُدعاة تُبرران فحصًا تخاصميًا، إذ استنفدت المنظمة غير الحكومية سبل الطعن الداخلية المتاحة.

أعطى فيبر للتو الإشارة، كاشفًا عن عزم لم يُعرف به. لم تكن قضية ماتسوكاتا عريضة بين أخريات. كان على الفرنسيين أن يُفسّروا.

— خصوصًا أن الطالبة تُصرّ على عدم فعالية سبل الطعن في القانون الفرنسي. تحتج المنظمة غير الحكومية بقرارين حديّتين لمجلس الدولة الفرنسي يُظهران كيف تمارس المحاكم الفرنسية الحرمان من العدالة. جاءت الدقة في الوقت المناسب. بدأت الجمعية تشعر بالريح تتحول ضد فرنسا. اعتدل رافائيل موراليس، الذي لم يفتح فمه منذ لحظة، في مقعده.

— سيد فيبر، أيمكنك تفصيل هذا الحرمان الشهير من العدالة لنا قليلًا؟ يبدو لي هذا الاتهام في غاية الخطورة بخصوص بلد يُقدّم نفسه كمهد حقوق الإنسان.

حمل صوته سخط من كرّس حياته لمحاربة الإفلات من العقاب. أحبّ فيبر هذا النوع من اللحظات حين كانت الأدلة تصطف كأحجار الدومينو.

— تُقدّم لنا الطالبة قرارين لمجلس الدولة كاشفين بشكل خاص. يعود الأول إلى 23 نوفمبر 2022، والثاني إلى 14 مايو 2024. في كلتا الحالتين — والظروف مُطابقة تمامًا لقضية ماتسوكاتا — أعلنت أعلى جهة إدارية فرنسية عدم قبول الطلبات. دون حتى فحص جوهر الملفات. في أحد الملفين، فرض مجلس الدولة، دون تبرير صريح، غرامة قدرها ثلاثة آلاف يورو على مقدمي الطلب. طريقة لتخويف من يجرؤ على الطعن في استيلاءات الدولة.

كان لقراري أعلى جهة إدارية فرنسية هذا الأثر: جعلاً اتهم الحرمان من العدالة ملموساً بشكل شيطاني. شارك كل أعضاء الفريق هاجساً واحداً، الوصول الفعّال إلى العدالة. كان دينهم المشترك، نقطة التقائهم الديمقراطي.

لم تستطع إيزابيلا بيريرا كتم حركة سخط.

— ثلاثة آلاف يورو غرامة لأنهم تجرأوا على طلب العدالة؟ لكن هذا تخويف صرف وبسيط! كيف يمكن لفرنسا أن تُبرر أساليب كهذه؟ رأت بيريرا ضحايا كثيرين يتخلى عنهم القضاء لتبقى غير متأثرة بهذه الممارسات.

— بالضبط، سيدة بيريرا، وافق فيبر. تستشهد المنظمة غير الحكومية في مذكرتها باجتهاد قضائي ثابت للمحكمة الأوروبية لحقوق الإنسان يُدين هذا النوع من الممارسات الرادعة.

أُلفت كارمن فاسكيز نظرة خفية على ساعتها، مُمزّقة بين واجب الفعالية وفضول فكري كانت تحاول ضبطه. ساعة ونصف بالفعل على بلاغ واحد بينما تنتظرهم اثنتا عشرة ملفاً! استحوذت قضية ماتسوكاتا على الاهتمام بلا شك.

شعرت بشكل من التعاطف تجاه هذه المنظمة غير الحكومية التي نجحت في بناء ملف متين جداً. في مسيرتها الطويلة، نادراً ما رأت حجة معمّقة جداً من منظمة مجتمع مدني.

— بالنظر إلى الوقت الذي يمضي، أقترح أن نصوّت الآن على القبول المبدئي للقضية. سنؤجل بقية الملفات إلى الجلسة القادمة، لا بأس.

قال اقتراحها الكثير عن الأهمية التي كانت تُوليها لقضية ماتسوكاتا — شغف كانت تحاول عادة كبتة. لأن كارمن فاسكيز، عادة، لا تُرزع جدول أعمالها من أجل ملف واحد، مهما كان مُعدداً جيداً.

— فيما يخصني، أضافت وهي تلمس الجمعية بنظرها بسلطانها الطبيعية، يبدو لي البلاغ متيناً وموثقاً بما يكفي لتبرير تبليغ رسمي

لفرنسا. في النهاية، هذا هو الإجراء. ستحصل الدولة الفرنسية على مهلها النظامية لتقديم دفاعها بشأن القبول والجوهر. توقفت لحظة، تزن كلماتها بعناية.

— أعتزف بأنني فضولية لرؤية كيف ستُبرر باريس ما يُشبه كثيرًا نهجًا منظمًا، متكررًا في زي عمل قانوني. لأنه أخيرًا، حتى لو سلّمنا بأن فرنسا كانت في حرب مع اليابان — وهذا لا يزال يحتاج إلى إثبات — أيبير ذلك مصادرة ممتلكات ثقافية تعود لجامع تحف خاص؟

كشفت إيماءات الرأس التي تلت عن الإجماع الذي استقر خلال النقاشات. حتى توماس هاريسون، المُتشكك في البداية، انتهى إلى الانصياع للواقع.

— يجب أن أعتزف بأنني كنت مُتشككًا في البداية، أقرّ هاريسون. تعرفون تحفظاتي على الجوانب الشكلية. لكن لا مفر من التسليم بأن الطلب يُثير مسائل خطيرة كافية لتستحق فحصًا تخاصميًا. وافقت إيزابيلا بيريرا.

— التوثيق ذو جودة، والحجة متينة. القضية تستحق أن نتوقف عندها بجدية، هذا لا يُنكر. ثم، هناك هذا البُعد الرمزي الذي يتجاوز القضية الفرنسية. إن تركنا ممارسات كهذه تمر، نرسل إشارة كارثية إلى الدول الأخرى.

انضم رافائيل موراليس إلى الرأي العام.

— يُبرر حجم الانتهاكات المعروضة علينا تمامًا الشروع في إجراء تخاصمي حقيقي. خصوصًا أن موقف مجلس الدولة الفرنسي يكشف عن شكل من الاحتقار لمبادئنا لا يمكن أن يبقى دون رد.

وافق فيبر بإيماءة رأس حيوية.

— زملائي الأعزاء، أظن أننا أمام قضية مدرسية. يمكن أن تُشكّل هذه القضية سابقة وتُرسى معايير جديدة في مجال الاستعادة الثقافية.

لدينا هنا فرصة لإظهار أن الحقوق الفردية يمكن أن تعلق على مصالح الدولة، حتى الأقوى منها.

سار التصويت في مساره المعتاد. نتيجة لا استئناف فيها. إجماع على القبول المبدئي للبلاغ. صفر معارضة، صفر امتناع.

شهد إجماع بهذه الأهمية على التأثير الإقناعي لبير بيرتييه، لكن أيضاً على المتعة غير المُعترف بها لكل واحد لرؤية ملف يسمح أخيراً بمساءلة دولة متعنتة.

لم تستطع كارمن فاسكيز إخفاء ارتياحها وهي تُعلن النتيجة.

— يُعلن إذن قبول البلاغ 2025/421 بالإجماع. سيد فيبر، أكلفك بإعداد التبليغ الرسمي للدولة الفرنسية. مننحهم ستة أشهر لتقديم ملاحظاتهم، المهلة المعتادة، لكن يمكن تمديدتها بناءً على طلب مُبرّر. زملائي الأعضاء، أشكركم على جودة تدخلاتكم. ستبقى هذه الجلسة في ذاكرتي كواحدة من أكثر الجلسات إثارة فكرياً.

بالطبع، كان الأمر يتعلق بقبول مبدئي، مؤقت في هذه المرحلة. لم يُحسم شيء بعد. كان كل شيء لا يزال قابلاً للتغيير وفقاً لوجهة الهجوم المضاد الفرنسي الذي لن يتأخر في القدوم.

لكن للمرة الأولى منذ زمن طويل، شعر أعضاء المجلس أنهم يخدمون شيئاً مفيداً. عرفوا أنهم اجتازوا للتو مرحلة مهمة في تأكيد القانون الدولي أمام أسباب الدولة. وهو يُغادر القاعة، لم يستطع فيبر إلا أن يبتسم. سيشغل ملف ماتسوكاتا الأشهر القادمة بطريقة مثيرة. لمرة واحدة، ستتاح له الفرصة لإثبات أن الدقة الألمانية يمكن أن تخدم العدالة، لا الفعالية البيروقراطية فقط.

خلال أيام قليلة، صعدت المعلومة في الهرم الإداري الفرنسي بسرعة البرق.

الفصل التاسع: رد الفعل الفرنسي

جنيف، البعثة الدائمة لفرنسا لدى الأمم المتحدة، أبريل 2025

وصل بلاغ المنظمة غير الحكومية عبر القنوات الرسمية إلى السلطات الفرنسية في شهر أبريل 2025. في أروقة الدبلوماسية، حيث تتبع كل وثيقة مسارات راسخة منذ أزمنة سحيقة، لم يبدُ للوهلة الأولى سوى ملف إداري آخر. غير أنه خلف الابتذال الظاهري كانت تختبئ إعادة نظر جوهرية في ممارسات كانت الدولة تعتبرها مكتسبة نهائيًا.

شغلت البعثة الدائمة لفرنسا فيلا «الأورمو»، مبنى من القرن التاسع عشر في الحي الدبلوماسي. بناء فخم من الحجر الرمادي، شعارات جمهورية بارزة، جسد تقليدًا فرنسيًا في التمثيل لا يترك شيئًا للصدفة. غصت صالات الاستقبال بأثاث من العصر وأعمال فنية اختيرت بعناية، شهادات على تراث كانت الجمهورية تنوي صونه وعرضه.

أدار لوران ميريو منذ ست سنوات دائرة العلاقات مع هيئات حماية حقوق الإنسان. خريج المدرسة الوطنية للإدارة، مروره بمعهد العلوم السياسية بباريس، صقل أناقة ملبسية خفية لكن مكلفة. بعد مروره بإدارة شؤون القانون الدولي في وزارة الخارجية، ثم بمكاتب وزيرين متعاقبين، غدّى شكوكًا في متانة المواقف الفرنسية التي كُلف بالدفاع عنها. تمثل دوره في الدفاع عن فرنسا، مهما كانت هواجسه الشخصية، لكن السنوات جعلته خبيرًا في القدرة على تمييز الملفات القابلة للدفاع عنها من تلك التي ليست كذلك.

في ذلك الصباح، كان ميريو يتصفح تبليغ المفوضية السامية بانتباه. كان مُدربًا على الإجراءات، ولم يبدُ هذا للوهلة الأولى شيئًا سيُزعزع نقاؤه. في النهاية، كانت البلاغات الفردية ضد فرنسا تُعدّ بالعشرات كل عام، وكان معظمها ينتهي بإخفاقات مدوية لأصحابها.

مع تقدمه في القراءة، كان حبيبه يتجدد بشكل غير محسوس. شعر ميريو بذلك الضيق المألوف الذي كان يجتاحه كلما هدد ملف بكشف خبايا العمل الحكومي.

رفع سماعة الهاتف وطلب رقم سكرتيرته.

— سيدة بيران، يمكنك أن تستدعي على الفور الفريق المصغر إلى قاعة المؤتمرات؟ واتصلي بالوزارة، سأحتاج إلى التحدث مع نائبة المدير كلير فونتين قبل نهاية الصباح.

— حسنًا جدًّا، سيدي المستشار. أأصنف الاجتماع كطارئ مطلق؟

— لنقل... طارئ عادي، لكن بأولوية على كل الملفات الأخرى. وأخبروا زملاءنا أننا قد ننهي متأخرين.

بعد أن أغلق الهاتف، تأمل للحظة المطر الذي كان يضرب الزجاج. خلال دقائق قليلة، سيتعين عليه أن يعلن لفريقه أن عاصفة جديدة تلوح في الأفق. وهذه المرة، خلافًا لملفات أخرى تعامل معها، لم يكن متأكدًا من امتلاك كل الأوراق الراجعة.

امتلات قاعة المؤتمرات. اقتصر الاستدعاء على أكثر معاوني خبرة للتقييم الأول. عكست الغرفة نفسها بحث عن الفخامة: أرضية من خشب البلوط الصلب، طاولة من خشب الماهوغني، مقاعد جلدية بلون النبيذ. رُئيت الجدران بنسخ من روائع محفوظة في المتاحف الوطنية — سخرية القدر، ربما بعض هذه الأعمال كانت من بين تلك التي وُجدت شرعيتها موضع طعن.

كانت إيلز لينيل أول من وصل، وملفها تحت ذراعها. خريجة السوربون وكينغز كوليدج لندن، كانت تتنقل بسهولة متساوية بين الأنظمة القارية والأنغلوسكسونية. بعد بداية لامعة في مكتب محاماة باريس، فاجأت شركاءها السابقين بالانضمام إلى الدولة. قرار حرّكه حماس جمهوري، بالتأكيد، لكن أيضًا ذلك الذوق للسلطة الذي كانت تُقدِّمه الوظيفة العامة العليا. مُتكوّنة في عبادة التميز والنجاح الشخصي، تآقت مع ذلك لخدمة المصلحة العامة. علّمتها سنوات خبرتها أن الاثنين لا يتطابقان دائمًا.

تبعتها عن قرب نيكولا بلانشار. ملحق ثقافي منذ أربع سنوات، جلب للنقاشات معرفة عملية بالرهانات المتحفية غالبًا ما كانت تنقص أهل القانون. كان بلانشار النموذج الأمثل للموظف الضميري، مدفوعًا

حُب للفن جعله غير مرتاح أمام الجوانب الأكثر دناءة للدبلوماسية الثقافية. اختار هذه المهنة بشغف الأعمال والتبادلات الفنية، مُكتشفًا شيئًا فشيئًا أن الثقافة تخدم أيضًا كأداة للسلطة.

كان آخر من دخل جان-مارك روسيل، المتخصص في المسائل الآسيوية داخل البعثة. متخصص في الصين بالتكوين، أمضى عشر سنوات في منصب في طوكيو خلال التسعينيات وعرف عن كثب دقائق العلاقات الفرنسية-اليابانية. لم يكن حضوره بريئًا. اشتبه ميريو أن الملف قد يحمل تشعبات تتجاوز النزاع القانوني الصرف. كان لدى روسيل تلك الخصوصية عند الدبلوماسيين الميدانيين، كان يُميز الرهانات الثقافية والإنسانية خلف أكثر الملفات غموضًا. تركت سنواته اليابانية أثرًا فيه؛ احتفظ بعاطفة حقيقية تجاه هذا البلد وسكانه، ما جعله حساسًا لمسائل الشرف وحفظ ماء الوجه المهمة جدًا في الثقافة اليابانية.

— تلقينا للتو تبليغًا ببلاغ جديد أودع ضد فرنسا أمام مجلس حقوق الإنسان. تأخذ قضية ماتسوكاتا، التي سمعنا بها في الأسابيع الأخيرة، بُعدًا رسميًا.

كانت النبذة محايدة عمدًا، وكان التبليغ لا يُشكّل سوى إجراء إداري آخر.

— قبل الخوض في التفاصيل، تابع ميريو، أرغب في أن يُعطيني كل منكم انطباعه الأول. سيد روسيل، أنت الذي تعرف السياق الفرنسي-الياباني، ماذا يُلهمك ذلك؟

— سيدي المستشار، يجب أن أقول إن التوقيت يشدّ انتباهي. تمر اليابان حاليًا بمرحلة بعث قومي. جعلت حكومتها استعادة التراث الثقافي الياباني المُشتت في العالم إحدى أولوياتها. كانت هناك سوابق حديثة. المفاوضات مع المتحف البريطاني بشأن نقوش هوكوساي، النقاشات مع الأمريكيين حول الأعمال الفنية المُصادرة بعد 1945... تحدث روسيل بضبط نفس. عرف أنه خلف طلاء العلاقات الثنائية المهدبة كانت تختبئ ضغائن عنيدة.

- أظن أنه قد يكون هناك بُعد سياسي خلف البلاغ؟ قاطعه ميريو.
- هذا ممكن جدًا. تُقدّم المنظمة غير الحكومية التي تهاجمنا نفسها كفرنسية، لكن لا شيء يقول إنها لا تتصرف بتنسيق مع مصالح يابانية. في مسيرتي، رأيت غالبًا منظمات مستقلة ظاهريًا تخدم كستار لأهداف حكومية أوسع.
- رفعت إيلز لينبيل يدها. كان مزاجها يدفعها غالبًا إلى تفضيل التحليل الموضوعي على التكهّنات الجيوسياسية.
- أيمكنني أن أبدي ملاحظة؟ حتى وإن كان البلاغ موجّهًا من طوكيو — وهذا لا يزال يحتاج إلى إثبات — فإن ذلك لا يُغيّر شيئًا في متانة الحجج. أمضيت نهاية الأسبوع أنقّب في الملف، ويجب أن أعتز أن أهدافه موثقة جيدًا جدًا.
- تابعي، أرجوك، طلب ميريو.
- حصلوا بوضوح على وصول إلى أرشيف كنا نظنه سرّيًا. مراسلات داخلية من 1944، تقارير خبرة من ذلك الزمن، وحتى... تصوروا... برقيات من 1951 لم نودعها نحن أنفسنا أبدًا في الأرشيف العام.
- استقر صمت ثقيل في القاعة. شعرت لينبيل بالقلق الذي كان ينتابها كلما اكتشفت ملفًا مُعدًّا بشكل ملحوظ. عرفت كيف تحترم الخصوم الأكفاء، حتى حين يُعاكسون مصالحها.
- كان نيكولا بلانشار أول من كسر الصمت.
- كيف يُمكن ذلك؟ يُفترض أن هذه الوثائق مصنّفة.
- هذا هو السؤال الذي أطرحه على نفسي، أجابت إيلز لينبيل. إما أن لدينا تسريًا في مصالحنا — وهذا سيكون خطيرًا للغاية — أو أن هذه الوثائق حُصل عليها بطرق أخرى. أرشيف عائلي، صناديق خاصة، ربما حتى أرشيف أجنبي...

دُون ميريو ملاحظاته بسرعة. أزعجته فرضية التسريب الداخلي. في بيئة كانت الثقة فيها أساس كل عمل جماعي، يمكن للشك أن يُسمّم العلاقات لفترة طويلة.

— يجب التعمق في المسألة. سيدة لينبيل، في هذه الأثناء، أيمكنك أن تُقدّمي لنا جوهر حججهم؟

— بكل سرور. شرحت بالتفصيل ماهية الأمر.

قدّر جان-مارك روسيل غريزياً مضاعفات هجوم بهذه المنهجية.

— لم يترددوا. إن كانت حججهم صحيحة، نُخاطر بمشكلة كبرى بين أيدينا.

— هذا ما يُقلّني، وافق ميريو. سيد بلانشار، من الناحية المتحفية، ما هي الرهانات؟

فتح نيكولا بلانشار ملفه الخاص.

— الرهانات كبيرة. يتعلق الأمر بقطع رمزية من مجموعتنا. سيخلق اختفاؤها فراغات فاعرة في مسارات معارضنا. ورمزياً، سيكون ذلك كارثة حقيقية. تظهر هذه الأعمال في كتيباتنا السياحية، بطاقتنا البريدية، كتالوجاتنا الدولية...

دَلَّك ميريو صدغيه. شعر بأحد تلك الصداعات النصفية التي كانت تُهاجمه في لحظات التوتر.

— ناهيك عن التداعيات على المتاحف الغربية الأخرى. إن تنازلنا، سيخلق ذلك سابقة لن يغفرها لنا زملاؤنا البريطانيون، الألمان، الأمريكيون أبداً.

— بالضبط، تدخّل جان-مارك روسيل، تلقّيت أصداء غير رسمية من اتصالاتي في لندن وبرلين. يتابعون الملف عن كثب. يعيش المتحف البريطاني محنة مع رخام البارثينون وبرونزيات بنين. إن انهروا في قضية ماتسوكاتا، يخشون انتشاراً متسلسلاً.

عبر روسيل هنا عن هاجس كان يُعذِّبه شخصيًا. بعد أن كرّس مسيرته للتبادلات الثقافية الدولية، رأى عالمًا تحل فيه الريبة محل التعاون يلوح في الأفق.

— بماذا تقترح؟ سأل ميريو.

— يجب أن نتجنب الظهور بمظهر الرضوخ للضغط. لكن في الوقت نفسه، لا يمكننا تحمل هزيمة. يجب إيجاد طريق ثالث.

رفعت إيلز لينبيل حاجبًا متشككًا.

— أي طريق؟ خياراتنا محدودة. إما ندافع خطوة بخطوة أمام المجلس، أو نتفاوض مسبقًا على اتفاق تسوية. لكن أجد صعوبة في رؤية كيف يمكننا التفاوض دون الاعتراف ضمنيًا بصحة مطالبهم.

— قد يكون هناك مخرج آخر، اقترح نيكولا بلانشار. يمكننا اقتراح شراكة ثقافية مع اليابان. طريقة لتكريم روح مطالبهم دون التنازل عن الملكية.

تشبّث بلانشار بهذه الفكرة ورفض رؤية مثله في التعاون الثقافي الدولي تنهار.

دوّن ميريو الفكرة.

— مثيرة للاهتمام. لكن هذا لن يحل المشكلة الجوهرية. إن كانت حججهم متينة، لن يكفي مجلس حقوق الإنسان بإجراءات نصفية.

— من هنا أهمية تحليل معمّق، ألحّت إيلز لينبيل. يجب أن نُحرّك أفضل متخصصينا لفكيك ادعاءاتهم نقطة بنقطة. والأهم، يجب أن نكتشف كيف حصلوا على هذه الوثائق السرية.

وافق جان-مارك روسيل.

— ويجب أيضًا تحضير الأرضية مسبقًا. أقترح الاتصال بهدوء بسفارة اليابان في باريس. إن كان هناك بُعد سياسي خلف القضية، من الأفضل معالجته عبر القنوات الرسمية.

استشار ميريو ساعته. شعر بحاجة لاستعادة السيطرة على الوضع عبر الفعل.

— حسنًا جدًا. إليكم كيف سنمضي. سيدة لينيل، أكلفك بتنسيق ردنا مع مصالح الوزارة. أريد تحليلًا شاملاً خلال خمسة عشر يومًا.

— سيد بلانشار، اتصل بالمسؤولين في اللوفر وأورساي. نحتاج إلى تقييم متحفي كامل وكل العناصر المتاحة عن هذه الاقتناءات.

— سيد روسيل، استطلع بهدوء شركاءنا الأوروبيين واتصالاتنا اليابانية. أريد أن أعرف إن كانوا على علم بالقضية وما هو موقفهم. نهض، مُشيرًا إلى نهاية الاجتماع.

— نلتقي غدًا في الساعة نفسها لنقطة تقدم أولى. وأقول ذلك بوضوح: أصبحت القضية الآن أولويتنا المطلقة. كل ما تبقى يُصبح في الدرجة الثانية.

في صباح اليوم التالي، كانت إيلز لينيل في مكتبها منذ الساعة السابعة. أمضت الليل تُنقّب في الاجتهاد القضائي الدولي بشأن الاستعادة الثقافية، ولم تكن استنتاجاتها مطمئنة على الإطلاق. تكدست على طاولتها قرارات المحكمة الأوروبية لحقوق الإنسان، الآراء الاستشارية لمحكمة العدل الدولية، ومجموعة مثيرة للإعجاب من قرارات هيئات تحكيم دولية. شكّل المجموع صورة غير مُلائمة للأطروحات الفرنسية التقليدية.

رنّ هاتف لينيل. كانت كلير فونتين، نائبة مدير الوزارة.

— إيلز؟ تلقّيت مذكرتك هذا الصباح. أيمكنك أن تُلخّصي لي الوضع في بضع كلمات؟

— صباح الخير، كلير. باختصار، لدينا مشكلة كبيرة. لدى المنظمة غير الحكومية التي تهاجمنا حجبًا أمتن بكثير مما قدّرنا في البداية.

— إلى هذا الحد؟

— للأسف! حدّدوا نقاط ضعف لم يلاحظها أحد. والأهم، وضعوا أيديهم على وثائق كنا نظنها بمنأى عن العيون الفضولية.

استوعبت فونتين الصدمة باستسلام من عاش أزمات أخرى بالفعل. علّمتها خبرتها كخريجة معهد إنتش إي سي أن أخطر المشاكل غالبًا ما تكون تلك التي تُكتشف متأخرة.

— يجب أن نلتقي سريعًا. ألتستطيعين أن تكوني في باريس بعد ظهر اليوم؟

— بالطبع. أيجب أن أحضّر شيئًا؟

— أحضري كل ما لديك. يهتم الوزير شخصيًا بالملف منذ هذا الصباح. وصدقيني، هذه ليست إشارة جيدة.

أغلقت إيليز لينبيل الهاتف، حائرة. كون الوزير يهتم بالملف بهذه السرعة يعني إما أنه تلقى أصداء من قنوات أخرى، أو أن الإليزيه يتابع الملف. في كلتا الحالتين، سيرتفع الضغط درجة. عرفت آليات الدولة بما يكفي لتعرف أن الاهتمام الوزاري يُحوّل أكثر الملفات ابتداءً إلى رهانات كبرى.

رَنّ حاسوبها. رسالة من نيكولا بلانشار. «إليز، تحدثت مع كلود فاترين، أمين المتحف الرئيسي في أورساي، على الهاتف هذا الصباح. يقبل استقبالنا غدًا، لكنه بدا مزعجًا جدًا حين ذكرت قضية ماتسوكاتا. حتى إنه تحدث عن «ملف حساس». أشعر أن هناك أشياء لم يُخبرونا بها. ن.ب.».

أجابت فورًا: «سأصعد إلى باريس بعد الظهر لرؤية كلير فونتين. يمكنك تنظيم الاجتماع مع فاترين غدًا صباحًا؟ وحاول أن تعرف إن كان هناك أشخاص آخرون يمكن أن يُنبروا لنا ظروف الاقتناء. إل.».

في اللوفر، كانت محادثة هاتفية تجري في مكتب فرانشيكا بونيني، أمينة قسم الفنون الآسيوية الرئيسية.

— كلود؟ أنا فرانشيكا. تلقّيت للتو مكالمة من البعثة الدائمة في جنيف. يريدون لقاءنا بشأن أعمال ماتسوكاتا.

— آه، قال كلود فاترين من الطرف الآخر للخط. كنت أنتظر هذه المكالمة منذ أن قرأت المقال في لوموند الأسبوع الماضي. أتتذكرين اقتناء 1958؟

— بشكل غامض. كان ذلك قبل عصرنا. لكنني راجعت أرشيفنا مساء أمس بعد قراءة المقال. هناك عناصر... لنقل، مُقلقة.

شعرت بونيني بذلك الضيق الذي كان يجتاحها كلما اكتشفت انزلاقات المؤسسة التي تخدمها. ابنة أكاديميين، تربت على عبادة الحقيقة والاستقامة، تحملت بصعوبة التسويات مع الوقائع.

— من أي نوع؟

— رسائل احتجاج من جامعي تحف خاصين فرنسيين أكدوا أن لهم حقوقاً على عدة قطع. خبرات مطعون فيها. والأهم، تقرير داخلي من 1959 يذكر «مخالفات» في إدماج هذه الأعمال في التراث الوطني. تنهد كلود فاترين.

— كنت أمل أن نستطيع كتمان بعض جوانب هذه القضية. لكن إن أعدت منظمة غير حكومية ملفاً جاداً، لن يكون لدينا خيار.

— السؤال هو: إلى أي حد نحن مستعدون للذهاب في الشفافية؟ تُمثّل هذه الأعمال قطعاً رئيسية من مجموعتنا. سيخلق رحيلها فراغات كبيرة.

— أعرف. لكن لا يمكننا أن نكذب على السلطات الوصية. إن استُجوبنا، سيتوجب علينا أن نقول الحقيقة.

— كل الحقيقة؟

قدّر فاترين مضاعفات ردّه.

— فرانسيكا، نحن أمناء متاحف، لسنا سياسيين. دورنا هو صون الأعمال وتقديمها للجمهور، لا تغطية أخطاء الماضي. إن كانت هذه الاقتناءات مشوبة بمخالفات، من الأفضل أن يخرج ذلك الآن بدلاً من بعد عشر سنوات أمام محكمة دولية.

— أنت محق. لكننا سنثير استياء كثيرين.

— على الأرجح. لكن ضميرنا سيبقى مرتاحًا.

في بعد الظهر نفسه، ركبت إيلز لينبيل القطار السريع إلى باريس. خلال الرحلة، أعادت قراءة الحجج الأكثر إشكالية في ملف المنظمة غير الحكومية للمرة الأخيرة.

كانت وزارة أوروبا والشؤون الخارجية في غليان كامل حين وصلت. كانت الأروقة تهمس بمحادثات بصوت خافت، وتجنب عدة معاونين التفتهم نظرهما. أثارت قضية ماتسوكاتا تكهنات كثيرة. تعرّفت لينبيل على العلامات المُنذرة للأزمات الإدارية. تلك الكهرباء الخاصة التي تسري في الأروقة حين يبدأ ملف حساس بإثارة الموجات.

كانت كلير فونتتين تنتظرها، برفقة أوليفيه لوكونت، رئيس دائرة الشؤون الثقافية متعددة الأطراف.

— إيلز، شكرًا لمجيتك بهذه السرعة. أمضى أوليفيه اليوم يُنقّب في أرشيفنا الداخلي واستنتاجاته... مُقلقة.

بدا أوليفيه لوكونت منهكًا. حمل على كتفيه ثقل اكتشافات كان يُفضل ألا يُدلي بها أبدًا.

— راجعت كل الملفات المتاحة، بما فيها تلك التي لم تُودع أبدًا في الأرشيف الوطني. ويجب أن أقول لكما إن الوضع أفضع بكثير مما ظننا.

— كيف ذلك؟ سألت إيلز لينبيل وهي تجلس.

— للبداية، توجد وثائق كان يجب ألا تخرج أبدًا من خزائننا وانتهى بها المطاف بين أيدي المنظمة غير الحكومية. برقيات، مراسلات مع المصالح اليابانية...

قاطعتها كلير فونتتين.

— أتملك فكرة عن الطريقة التي استطاعوا بها الحصول عليها؟

— عدة فرضيات. إما أن شخصًا من الداخل نقلها — وهذا سيكون كارثيًا — أو أنها من أرشيف خاص.

— والجوهر؟ ماذا تقول هذه الوثائق؟

— تكشف أن السلطات الفرنسية آنذاك كانت واعية بالطابع القابل للنقاش للاستيلاء. هناك برقية من سفيرنا في طوكيو، سنة 1951، كتب فيها:

«يطعن ورثة ماتسوكاتا صراحة في حقنا في ملكية المجموعة، وحججهم ليست بلا أساس».

شعرت إيلز لينيل بمعدتها تنعقد. أكدت المعلومة ضعف الموقف الفرنسي.

— وماذا أجابت باريس؟

— أعطت وزارة الخارجية تعليمات بـ«الحفاظ بحزم على مواقفنا دون الدخول في نقاشات تفصيلية لن تُعقد الوضع سوى تعقيداً».

— ما يعني أننا لن نستطيع الاحتجاج بحسن النية. إن لم تكن هذه الوثائق مشكوكاً فيها، فإنها تثبت أن فرنسا كانت تعرف أنها على خطأ.

— ليس هذا كل شيء، تابع أوليفيه لوكونت. وجدت مذكرة داخلية من 1958، صاغتها مصالحنا، توصي بـ«تسوية وضع هذه الأعمال بأسرع وقت عبر الطريق التشريعي لتجنب طعون محتملة لاحقة». لم يكن مرسوم 1958، ذو الطبيعة التنظيمية، إذن عملاً إدارياً روتينياً، بل محاولة لتغطية استيلاء مشبوه على عجل.

أغلقت إيلز لينيل عينيها بضع ثوان. قدّرت انهيار الدفاع الذي كان عليها بناؤه.

— سنواجه أكبر صعوبة في تبرير مواقفنا.

— هذا تلطيف، وافقت كلير فونتتين. السؤال هو: ماذا نفعل؟

— لدينا عدة خيارات، فكرت إيلز لينيل بصوت عالٍ. الاحتمال الأول، ندافع بشراسة أملين ألا يُتابع المجلس البلاغ. لكن بالنظر إلى الوثائق المتوفرة لدى المنظمة غير الحكومية، هذا مستبعد.

— الاحتمال الثاني؟ سأل أوليفيه لوكونت.

— نتفاوض مسبقاً على اتفاق تسوية. نعتزف ضمناً بحقوق الورثة، لكننا نجد حلاً يسمح بحفظ ماء الوجه. إعارات طويلة الأمد، معارض متنقلة، شراكة ثقافية...

— والثالث؟ سألت كلير فونتين.

— الأكثر جذرية، نعتزف بأخطائنا ونستعيد الأعمال. سيؤلمنا ذلك في اللحظة، لكنه قد يُجَبِّنا إدانة دولية ستكون أشد ضرراً.

هزّت فونتين رأسها بحزم. أوحى حدسها لها أن بعض الخيارات ببساطة غير واردة:

— يجب أن أرجع إلى الوزير. القرار يتجاوز بكثير مستوى اختصاصنا. إليز، يمكنك أن تُعَدِّي مذكرة تلخيص لغد صباحاً؟ كل العناصر، دون إخفاء شيء.

— بالطبع. لكن يجب أن أُحذِّركم. إن اخترنا المواجهة، نُخاطر بالخسارة. وإن خسرنا، ستتجاوز العواقب بكثير القضية الفرنسية. وفاق أوليفيه لوكونت.

— إليز محقة.

— من هنا أهمية إعداد استراتيجيتنا جيداً، خلصت كلير فونتين. يجب أن نكون لا تشوبنا شائبة على كل الأصعدة: القانوني، الدبلوماسي، والتواصلي.

في اليوم التالي، استقبل كلود فاترين نيكولا بلانشار وإليز لينبيل في متحف أورساي. كان متوترًا، ولم تتمكن يده من إخفاء اضطرابه تمامًا. كرّس فاترين حياته لخدمة الفن، مُكتشفًا في وقت متأخر أن هذه المهمة النبيلة كانت تتلاءم مع زوايا عمياء كان يُفضّل تجاهلها.

— سيد فاترين، بدأ نيكولا بلانشار، نحتاج إلى خبرتك بشأن الظروف الدقيقة لاقتناء أعمال ماتسوكاتا المحفوظة في مجموعاتهم.

— اسمعنا، سأكون صريحاً معكما. تُزَعِجُنِي هذه القضية منذ سنوات. حين توليت مهامى سنة 2018، أردت أن أُقِيمَ كل اقتناءاتنا لما بعد الحرب، وظهرت لي قضية ماتسوكاتا مباشرة كإشكالية.

— إشكالية بأي معنى؟

— أولاً، ظروف الاقتناء نفسها. سنة 1944، استعدنا هذه الأعمال في أقبية متحف رودان حيث كانت مُخزّنة منذ بداية الحرب.

— تقصد أننا مارسنا خدمة ذاتية؟ اندهش نيكولا بلانشار.

— هذا مُبالغ فيه قليلاً، لكنه ليس خاطئاً تماماً. وضعت مصالح الأملاك قوائم، لكن دون خبرة جادة أو تحقق من المصادر. يجب القول إن العصر لم يكن عصر دقة إدارية.

اتجه كلود فاترين نحو خزنته وأخرج ملفاً مُترباً.

— ثم كانت هناك طعون منذ 1946. عثرت على رسائل من تجار فن بارييسين أكدوا أن لهم حقوقاً على قطع معينة. ادّعوا أنهم اشتروها من ماتسوكاتا قبل الحرب، بعقود نظامية.

— ماذا حدث؟ سألت إليز لينيبيل.

— كنست السلطات في ذلك الزمن هذه المطالبات بإشارة من يدها. رسمياً، اعتُبرت كل ممتلكات ماتسوكاتا «ممتلكات عدو» وبالتالي قابلة للحجز.

فتح الملف وأخرج عدة رسائل مصفّرة.

— انظروا، تأملا هذه المراسلة من 1947 بين مديرنا في ذلك الزمن ووزارة الثقافة. كتب مديرنا: «قد تكون هذه الاقتناءات موضوع طعون لاحقة إن ظهر ورثة بأدلة متينة».

شحب نيكولا بلانشار. اكتشف أن المؤسسة التي كان يخدمها بإخلاص تقوم على أسس أقل نبلاً مما تخيل.

— وبماذا أجابت الوزارة؟

— أنه يجب «تسوية الوضع بأسرع وقت لتجنب أي متاعب».

قدّرت إيلز لينبيل أهمية هذه الكشوفات لمتابعة الإجراء.

— سيد فاترين، أتقبل أن تشهد بهذه العناصر إن اضطررنا للدفاع عن أنفسنا أمام هيئة دولية؟
تردد، يزن كلماته بعناية.

— اسمع، دوري ليس الدفاع مهما كلف الأمر عن مواقف الدولة الفرنسية. بل صون النزاهة العلمية والأخلاقية للدائرة التي أديرها. إن سئلت رسمياً، سأجيب وفق ضميري.
— ما يعني؟

— ما يعني أنني سأقول الحقيقة عن ظروف اقتناء هذه الأعمال، حتى وإن كانت هذه الحقيقة لا تخدم مصالح فرنسا. لا أستطيع أن أكذب بشأن وقائع ثابتة.

تبادل نيكولا بلانشار وإيلز لينبيل نظرة مفهومة. أدركا للتو أنهما لن يستطيعا الاعتماد على التضامن غير المشروط لأمناء المتاحف. عقّدت نزاهة فاترين مهمتهما بشكل ملحوظ.

— هناك شيء آخر، تابع فاترين بعد أن تردد. اكتشفت فرانشيكا بونيني، في اللوفر، أمس عناصر أشد إحراجاً في أرشيفها الخاص.
— أي نوع من العناصر؟ سألت إيلز لينبيل.

— خبرات من 1959 كانت تُشكّك في أصالة بعض النسب. يبدو أنه في عجلة 1944، نسب من سبقونا إلى معلمين مشهورين أعمالاً كانت في الحقيقة نسخاً أو أعمال ورشة.

اعتدل نيكولا بلانشار فجأة. شعر بنوع من الدوار أمام الانهيار التدريجي ليقينياته.

— تقصد أننا خضنا المعركة للاحتفاظ بأعمال مزيفة؟

— ليست مزيفة، لكن أعمالاً كانت قيمتها الفنية والسوقية مبالغاً فيها إلى حد بعيد. هناك خاصة «فان غوخ» مزعوم يُحتمل أنه عمل من مدرسة بونت-آفن، و«سيزان» قد يكون تقليداً من بداية القرن العشرين.

دوّنت إليز لينبيل بشراسة، تُقدّر مضاعفات هذه الكشوفات.

— هل نُقلت هذه الخبرات إلى السلطات الوصية في ذلك الزمن؟

— هنا يُصبح الأمر مُحرّجًا بصدق. وفقًا لما أعدنا بناءه، دُفنت هذه التقارير لتجنب الفضيحة. تخيّلا الجدل لو علم الرأي العام أن الدولة الفرنسية تتشبث بأعمال ذات أصل مشبوه!

— والآن؟ هل لا تزال هذه التقارير موجودة؟

— عثرت عليها فرانسيسكا في أرشيف القسم. لم تُودّع أبدًا في الأرشيف الوطني.

أمسك نيكولا بلانشار رأسه بيديه.

— لا تُخاطر فقط بالخسارة على الصعيد القانوني، بل سنبدو أيضًا كحمقى تشبثوا لسنوات بأعمال من الدرجة الثانية.

— أخشى أن هذا صحيح لبعض الأعمال، أكّد كلود فاترين. لحسن الحظ، مونيّهات الثلاثة، «غرفة آرل» لفان غوخ ورينوارين اثنين أصلية، هذا على الأقل مؤكد. لكن هذا لا يُغيّر شيئًا في المشكلة الجوهرية.

رتّبت إليز لينبيل دفترها.

— سيد فاترين، أتعلم أن تُرسل لنا نسخة من كل هذه الوثائق؟ نحتاج إليها لإعداد دفاعنا.

— بالطبع. لكنني أُحدّركم. إن انفجرت القضية علنًا، لن نستطيع تفادي إعادة تقييم كاملة لمجموعاتنا لما بعد الحرب. وهذا قد يكشف مشاكل أخرى كثيرة.

عائدة إلى جنيف في المساء نفسه، استدعت إليز لينبيل فورًا اجتماعًا طارئًا. اجتمع لوران ميريو، نيكولا بلانشار وجان-مارك روسيل في قاعة المؤتمرات، لكن الأجواء كانت مختلفة تمامًا عن أجواء اليوم السابق. ألقت الكشوفات الباريسية بردًا على الفريق بأكمله.

— أظن أنه يجب أن نُقيّم الوضع كما يُقدّم نفسه بعد مشاورات هذه الثمان والأربعين ساعة الأخيرة. سيدة لينبيل، أتريدين أن تُلخّصي لنا أين نحن؟

— الوضع أسوأ حتى مما كنا نخشاه في البداية. لا تملك المنظمة غير الحكومية فقط وثائق مُخرجة كنا نظنها سرية، بل ليس أمناء متاحفنا أنفسهم مُستعدين لدعمنا دون شروط. وكأن ذلك لا يكفي، اكتشفوا عناصر تُضعف موقفنا بشكل كبير. فتحت ملفها بدقة القانونية المعتادة على الملفات الصعبة.

— أولاً، كانت السلطات الفرنسية في ذلك الزمن تعرف أن الاستيلاء مشبوه. تُثبت الأرشيفات ذلك أسود على أبيض. ثم، كانت هناك طعون منذ 1946 تجاهلناها عمداً. أخيراً، أعمال ندافع عنها بأسناننا وأظافرنا ليست حتى أصيلة.

لم يستطع جان-مارك روسيل إلا أن يتدخل. تخوّف من مضاعفات هذه الكشوفات.

— يا إلهي! كيف استطاع من سبقونا خلق فوضى كهذه؟

— يجب أن نُعيد الأمور إلى سياقها، هداً ميريو من الأمور. كنا خارجين من الحرب، كانت الإدارة غير منظّمة، كانت الأولويات في مكان آخر. لكن القرارات المتخذة آنذاك تطرح علينا اليوم مشاكل لا حل لها.

نهض ميريو، باحثاً في الحركة عن منفذ لإحباطه.

— يجب أن نُسقط على المستقبل. أبعد من حالة أعمال ماتسوكاتا المحددة، إنه نموذج دبلوماسيتنا الثقافية بأكمله محل تساؤل. نحن مستعدون لإعادة النظر فيه؟

— بالضبط، تدخلت إيلز لينبيل، تلقّيت هذا الصباح مكالمة من نظيري البريطاني. يتابع مكتب الخارجية القضية. يخشون أن تُطلق سابقة غير مواتية طعوناً أخرى.

— بماذا يقترحون؟

— تنسيقاً أوروبياً لدفاعنا. الفكرة هي تقديم جبهة موحدة أمام مجلس حقوق الإنسان، بحجج مُنسقة بين كل البلدان المعنية.

— قد يكون ذلك فعالاً. لكن نُخاطر بأن يُشبه ذلك مؤامرة القوى الاستعمارية السابقة ضد بلدان محرومة من تراثها.

— هذا هو الخطر، وافق ميريو. يجب أن نجد توازناً بين التضامن الغربي واحترام المطالب المشروعة.

— لديّ ربما فكرة، اقترح نيكولا بلانشار. لماذا لا نقترح إنشاء صندوق دولي للاستعادة الثقافية؟ سنُساهم البلدان الغربية مالياً في آلية تسمح بتعويض البلدان المنهوبة مع الاحتفاظ بالأعمال في مجموعاتها الحالية.

هزّت إيلز لينيل رأسها. دفعتها واقعتها إلى رفض الحلول التي تتجنب جوهر المشكلة.

— مثيرة للاهتمام نظرياً، لكن هذا لن يحل المشكلة الجوهرية. إن كان خصومنا محقين في القانون، لن يكتفوا بتعويض مالي.

— خصوصاً أنه في الحالة اليابانية، المال ليس المشكلة، أضاف جان-مارك روسيل. يمكن لليابان بسهولة أن تُعيد شراء هذه الأعمال بأسعار السوق لو كان الأمر يتعلق بصفقة تجارية. لا، هناك بوضوح بُعد رمزي وسياسي.

عبر روسيل هنا عن حقيقة كان زملاؤه يعانون في قبولها.

استشار ميريو ساعته. شعر بحاجة لاستعادة السيطرة عبر التخطيط.

— قرار يفرض نفسه علينا. ليس لدينا وقت للتوقف عند حلول افتراضية. إليكم ما أقترحه: نُعدّ الخيارات الثلاثة في آن واحد. دفاع أقصى، تفاوض تسووي، واعتراف بالخطأ مع الاستعادة. بالتوازي، سأستطلع ردود الفعل في باريس ولدى شركائنا الأوروبيين.

— ومن يتخذ القرار النهائي؟ سأل نيكولا بلانشار.

— لن يكون نحن، على أي حال. تصعد قضية بهذه الأهمية بالضرورة إلى المستوى الوزاري، بل إلى الإليزيه. دورنا هو إعداد العناصر وعرض الخيارات بموضوعية. أغلقت إيلز لينبيل ملفاتها.

— في هذه الحالة، إلى العمل. لدي خمسة عشر يومًا لبناء دفاع لا تشوبه شائبة، حتى وإن لم أكن أصدّق ذلك حقًا.

— وأنا، سأعدّ عناصر تفاوض تسووي، أضاف نيكولا بلانتشار. لا يُعرف أبدًا، قد تكون المنظمة غير الحكومية حساسة لحججنا.

— أما أنا، خلص جان-مارك روسيل، فسأستطلع بهدوء الحالة النفسية اليابانية. إن استطعنا تسوية النزاع عبر القنوات التقليدية، سيكون ذلك أفضل بكثير من صراع نتيجته غير مضمونة.

بينما كان الفريق الجنيفي يُعدّ دفاعه، كانت جهات أخرى تنشط. في باريس، كانت كلير فونتتين تُكثّف المشاورات السرية مع أعلى سلطات الدولة، باحثة عن خط توجيهي في ملف يُفقد من كل سيطرة.

كان مكتب مستشار الإليزيه غارقًا في العتمة حين استُقبلت فيه، مساء أربعاء من منتصف أبريل. استقبلها أرنو بريجون، السفير السابق الذي أصبح أحد معاوني الرئيس المقربين، بجدية تليق بالمناسبة.

— كلير، أشكرك على المجيء بهذا التأخر. بدأت قضية ماتسوكاتا تُثير موجات حتى هنا. يهتم الرئيس بها شخصيًا منذ أن تلقى مكالمة من رئيس الوزراء الياباني صباح أمس.

شعرت كلير فونتتين بنبضها يتسارع. قدّرت البُعد الذي يأخذه الملف.

— اتصل رئيس الوزراء مباشرة بالإليزيه؟

— رسميًا، كانت مكالمة مجاملة لتحضير قمة مجموعة السبع في يونيو. لكن رئيس الوزراء ألمح إلى «بعض النزاعات التي تستحق أن تُحل بروح تعاون متبادل». رسالة وصلت بوضوح.

— بعبارة أخرى، تُمارس طوكيو الابتزاز؟

— الأمر أدق من ذلك. يجعلوننا نُقرّ بأن حلاً متفاوضاً عليه سيكون أفضل من مواجهة علنية. وهم محقون على الأرجح.

فتح أرنو بريجون ملفاً بعنوان «سري دفاع». عبّر نظره عن إعياء من يجب أن يُدير عواقب أخطاء ارتُكبت قبل وصوله بكثير.

— طلبت من مصالحنا الاستخباراتية تقييمًا للمنظمة غير الحكومية «عودة واستعدادات». الاستنتاجات... كاشفة.

— بأي معنى؟

— المنظمة فرنسية وقادتها محترمون. لكنها تلقت تمويلات كبيرة من مؤسسة ثقافية يابانية مرتبطة بحكومة طوكيو. ليس غير قانوني، لكنه كاشف.

دوّنت كلير فونتتين المعلومة ذهنيًا. خمنت أن القضية تتجاوز إطار مطالبة جمعيانية بسيطة.

— هذا يؤكد ما كنا نشتبّه فيه. من المرجّح أن هناك بُعدًا سياسيًا خلف كل هذا.

— يُغيّر هذا كل شيء تمامًا. لم نعد أمام مطالبة منظمة غير حكومية، بل ربما أمام مناورة يابانية. الأمر الذي يمكن أن يكون فرصة أيضًا.

— كيف ذلك؟

— إن أرادت طوكيو التفاوض، نستطيع توسيع النقاشات أبعد من قضية ماتسوكاتا وحدها. العلاقات التجارية، التعاون التقني، المشاريع الثقافية... لا بد أن تكون هذه الأزمة فرصة للتقارب.

عبّر بريجون هنا عن تلك الرؤية الإليزيهية التي تتمثل في تحويل كل صعوبة إلى أداة للعظمة الوطنية.

— يفترض هذا أننا مستعدون لتقديم تنازلات كبيرة في الملف الثقافي.

— هذا السؤال الذي طلب مني الرئيس دراسته. إلى أي حد نحن مستعدون للذهاب لصون علاقاتنا مع اليابان؟ وما العواقب على علاقاتنا بشركائنا الآخرين؟

— لن يغفر لنا حلفاؤنا الأوروبيون التخلي دون استشارتهم.

— من هنا أهمية التنسيق الذي تُعدّينه مع لندن وبرلين. إن تحركنا، يجب أن يكون ذلك معًا. كليلر، سأكون صريحًا معك. الرئيس ليس مؤيدًا لاستعادة الأعمال. لكن مجموعتنا الوطنية لا تُساوي بالتأكيد أزمة مع اليابان. هنا يُصبح دورك حاسمًا. يجب إيجاد صيغة تسمح بإرضاء اليابانيين دون خلق سابقة خطيرة. إعارات طويلة الأمد جدًا، تعاون متحفّي معرّز، اعتراف رمزي بالحقوق... لا بد أن يوجد حل مُبدع.

قَدّرت فونتين تعقيد مهمتها. كان عليها التوفيق بين متطلبات متناقضة بوسائل محدودة تحت تصرفها.

— أحتاج إلى معرفة الحدود التي نضعها لأنفسنا. نحن مستعدون للنظر في استعادة إن لم يُوجد حل آخر؟
— لا، الاستعادة مستبعدة تمامًا.

دوّى تأكيد بريجون كضربة ساطور: هذه هي الخطوط الحمراء التي لن يتجاوزها الإليزيه تحت أي ذريعة.

في هذه الأثناء، كان جان-مارك روسيل يُجري مشاوراته الخاصة السرية. دبلوماسي سابق في منصب في طوكيو، احتفظ بعدة اتصالات في الأوساط الحكومية والثقافية اليابانية. سُنّبت دفتر عناوينه أنها ثمينة لتحديد الرهانات الحقيقية للقضية. حدّد موعدًا مع كيوتاكا ياماغاتا، الملحق الثقافي في سفارة اليابان في باريس، في مطعم ياباني صغير هادئ في الدائرة السابعة. تعرّفا قبل عشر سنوات خلال معرض عن الفن الياباني في القصر الصغير، واحتفظا بعلاقات ودية. سمحت هذه العلاقة الشخصية بتبادلات أكثر صراحة مما تُتيحه القنوات الرسمية عادة.

— كيوتاكا، شكرًا لقبولك رؤيتي في ظروف... خاصة إلى هذا الحد.

— جان-مارك، تعرف جيدًا أن علاقتنا الشخصية تتجاوز الطوارئ. لكن اللحظة حساسة.

طلباً بالياباني — عادة احتفظ بها جان-مارك من سنواته في طوكيو — ثم تطرقاً بحذر إلى الموضوع الذي كان يشغلها. قدّر روسيل هذه اللحظات حين كانت الدبلوماسية تستعيد بعدها الإنساني.

— قضية ماتسوكاتا هذه... أنت على علم بها، بالطبع؟

— صعب تجاهلها. تتصدر عناوين الصحافة اليابانية منذ أسبوع. وليس لصالح العلاقات الفرنسية-اليابانية، يجب أن أقول.

احتسى جان-مارك روسيل شايه، مُتذوّقاً هذا الطقس الذي كان يُساعده على استعادة الحالة الذهنية اللازمة للمفاوضات الصعبة.

— ما هو الموقف الرسمي لحكومتمكم؟

— رسمياً؟ ليس لدينا أي موقف. الأمر يتعلق بمبادرة خاصة لمنظمة غير حكومية فرنسية، ولا يجب أن نتدخل فيها.

— وغير رسمياً؟

ابتسم كيوتاكا ياماغاتا.

— غير رسمياً، يعرف الجميع أن المجموعة تُمثّل رمزاً مهماً لبلدنا. كان ماتسوكاتا أحد رعاتنا الثقافيين الكبار، وكانت رؤية أعماله مُشتمّة في متاحف أجنبية مؤلمة دائماً للرأي العام الياباني.

— إلى حد إثارة حادثة؟

— لا أحد يرغب في حادثة. لكن الرأي العام الياباني حساس جداً لمسائل التراث الثقافي. إن ساءت القضية، قد يُؤثر ذلك على علاقاتنا. وضع جان-مارك روسيل عصيه. شعر أنه يجب الذهاب إلى جوهر الأمور.

— لنحدث بصراحة. ماذا يلزم للحصول على تسوية ودية؟

— يلزم أن تعترف فرنسا، ولو رمزياً، أن استيلاء 1944 كان... لنقل قابلاً للنقاش. ليس بالضرورة غير قانوني، لكن قابلاً للنقاش.

— وبعد ذلك؟

— بعد ذلك، يلزم إيجاد حل يسمح لليابان باستعادة صلة بهذا التراث. ليس بالضرورة استعادة فورية، لكن على الأقل منظور على المدى المتوسط.

— من أي نوع؟

— أفكر في إنشاء مركز ثقافي فرنسي-ياباني... إعارات طويلة الأمد... لا تنقص الاحتمالات إن أبدى الطرفان إبداعاً.

دوّن جان-مارك روسيل هذه الاقتراحات ذهنياً. قدّر هامش المناورة الذي لا يزال موجوداً لحل متفاوت عليه.

— وإن رفضت فرنسا كل تنازل؟ إن اكتفينا بالدفاع عن أنفسنا على صعيد النصوص؟

تصلّب وجه كيوتاكا ياماغاتا بشكل غير محسوس. تعرّف روسيل على هذا التغيير في التعبير الذي لاحظته غالباً عند محاوريه اليابانيين حين يتحدثون عن مسائل تمس كرامتهم الوطنية.

— سيكون ذلك مؤسفاً. لعلاقتنا الثنائية، لكن أيضاً للصورة الدولية لفرنسا. أصبح الرأي العام العالمي أكثر فأكثر حساسية لمسائل الاستعادة الثقافية.

— أتفكر في نزاعات مماثلة أخرى؟

— بالطبع. إن مارست فرنسا عرقلة منهجية بشأن هذه المسائل، قد يُشجّع ذلك بلداناً أخرى على تشديد مطالبها. مصر بشأن الآثار، أفريقيا بشأن الفنون البدائية، اليونان بشأن رخامها... قد تجدون أنفسكم في موقف دفاعي في كل مكان في آن واحد.

كان هذا بالضبط ما كانت تخشاه السلطات الفرنسية: تأثير الدومينو. غير جان-مارك روسيل الموضوع، باحثاً عن تقييم مدى التعبئة اليابانية.

— وعلى صعيد رأيكم العام؟ كيف تُدرّك القضية؟

— هناك دعم شعبي حقيقي لمطالب الاستعادة. يعتبر اليابانيون أن تراثهم الثقافي نُهب بشكل واسع خلال القرن العشرين، أولاً من قبل

القوى الغربية، ثم خلال الحرب. سيُدرَك استرداد مجموعة ماتسوكاتا كشكل من أشكال العدالة.

وهو يُغادر المطعم، كان لدى جان-مارك روسيل رؤية أوضح للرهانات. لم تكن اليابان في منطق مواجهة، لكنها لن تتراجع أيضًا. كان يجب إيجاد حل يسمح للبلدين بحفظ ماء الوجه.

بالتوازي مع المشاورات الفرنسية-اليابانية، كان نشاط مكثف يتطور بين العواصم الأوروبية. لم تعد قضية ماتسوكاتا نزاعًا فرنسيًا-يابانيًا فحسب، بل اختبارًا للتضامن الغربي أمام مطالب الاستعادة الثقافية.

في لندن، نظم مكتب الخارجية اجتماعًا مع ممثلين فرنسيين وألمان وإيطاليين. قُدمت قاعة مؤتمرات الوزارة البريطانية للشؤون الخارجية، بأخشابها الفيكتورية وبورترية وزرائها السابقين، إطارًا مناسبًا لهذه النقاشات بين أمم استعمارية قديمة. كانت العمارة نفسها تُذكر بعصر لم تُطرح فيه مسائل الشرعية الثقافية بالحدة نفسها.

رأس السير ويليام بيمبرتون، نائب وزير الدولة المكلف بالشؤون الثقافية، الجلسة. حوّل الأزمات إلى فرص تعاون، موهبة جعلته محاورًا مُقدّرًا في الأوساط الدبلوماسية الأوروبية.

— نجتمع لمناقشة ملف يعيننا جميعًا، حتى وإن كان يمس مباشرة أصدقاءنا الفرنسيين فقط.

وافقت كلير فونتين، التي مثلت فرنسا.

— نشكركم على أخذكم مبادرة هذا التشاور. تتجاوز قضية ماتسوكاتا المصالح الفرنسية وحدها.

— أيمكنك أن تُطلعينا على نقطة الوضع؟ سأل هانس مولر، الممثل الألماني.

كان مولر من هؤلاء الدبلوماسيين الألمان المُتكوّنين في إدارة النزاعات التذكارية. اكتسب بلده خبرة خاصة في معالجة مسائل الاستعادة، خبرة منحتة شرعية خاصة في هذا النوع من النقاشات.

- الوضع مُقلق. لدى المنظمة غير الحكومية التي تُهاجمنا حججًا متينة. حظوظنا في الفوز ضئيلة.
- توجه جوزيبي بيانكي، المندوب الإيطالي، إلى محاوريه.
- وإن خسرت، ما العواقب على بقيتنا؟
- سابقة مؤسفة جدًا، أجابت كلير فونتتين دون موارد. قد تخضع كل مجموعاتكم ذات الأصول المشبوهة لمطالب مماثلة.
- ضم السير ويليام بيمبرتون يديه.
- هذا ما نخشاه. إن أرسى الأمم المتحدة سابقة لصالح الاستعدادات، سنغرق بطلبات.
- وافق هانس مولر بحماس. منحته خبرته الألمانية رؤية حادة للمخاطر.
- ألمانيا معرضة أيضًا. تغصّ متاحفنا بأعمال اقتُنيت في ظروف يمكن وصفها اليوم بأنها غامضة. إن تطور القانون الدولي نحو مبدأ عام للاستعادة، سنكون في وضع غير مريح.
- ناهيك عن الجانب المالي، أضاف جوزيبي بيانكي. تعويض كل البلدان المنهوبة سيكلف الدول الأوروبية مليارات اليوروهات.
- اغتنت كلير فونتتين الفرصة لاقتراح التنسيق الذي جاءت تبحث عنه.
- لهذا نحتاج إلى أن نكون منسّقين. إن قدّمنا جبهة موحدة، سيكون لدينا حظوظ أكبر لصون الوضع الراهن.
- ماذا تقترحون بشكل ملموس؟
- أولاً، مواعمة حججنا. يجب أن ندافع جميعًا عن المبادئ نفسها: التقادم المُكسب، حسن نية الاقتناءات، المصلحة العامة للمجموعات...
- وبعد ذلك؟ سأل هانس مولر.
- تشاور دائم بشأن كل ملفات الاستعادة. إن هُوجم أحدنا، يُقدّم الآخرون دعمهم وحججهم.
- هزّ جوزيبي بيانكي رأسه.

— هذا نظري قليلاً. في الحالة اليابانية مثلاً، ماذا يمكننا أن نفعل ملموساً؟

أعدت كلير فونتتين إجابتها.

— يمكنكم تقديم ملاحظات كطرف ثالث أمام مجلس حقوق الإنسان، تشرح أن مطالب المنظمة غير الحكومية تُهدد التوازن الدولي للتبادلات الثقافية. سيمنح ذلك وزناً أكبر لدفاعنا.

بدا السير ويليام بيمبرتون مهتماً. قدّر مهارة الاقتراح الفرنسي.

— هذا وارد. لكن في المقابل، هل يجب أن تلتزم فرنسا بدعمننا إن هُوجمنا نحن أنفسنا بشأن رخام البارثينون أو نزاعات أخرى؟

— بالتأكيد. هذا هو التضامن الأوروبي.

بدا جوزيبي بيانكي متشككاً. جعلته خبرته حذراً من الخطابات الجميلة عن التعاون الدولي.

— المشكلة أنه لن يُخدع أحد. سيظن الجميع أننا نتماسك لتجنب إعادة كنوزنا الفنية.

اختتم السير ويليام بيمبرتون الجلسة بالتحفظ البريطاني المعتاد.

— أظن أننا متفقون. من مصلحتنا تنسيق مواقفنا بشأن مسائل الاستعادة الثقافية هذه. لكن يجب أن نكون بارعين جداً في التنفيذ لتجنب الظهور بمظهر الفئوية.

— سنُعدّ مشروع إعلان مشترك عن أهمية صون سلامة المجموعات العامة الأوروبية، اقترحت كلير فونتتين. ستستطيعون إبلاغنا بملاحظاتكم في الأيام القادمة.

وهي تُغادر لندن، كانت كلير فونتتين مقتنعة بأنها حصلت على دعم شركائها الأوروبيين. لكنها كانت تعرف أيضاً أن هذا الدعم قد يثبت هشاشته إن ساءت قضية ماتسوكاتا لفرنسا. لم تصمد التضامانات الأوروبية طويلاً أمام اختبارات القوة.

عائدة إلى باريس، استُدعيت على عجل إلى وزارة أوروبا والشؤون الخارجية.

كان برنار فالييه، مدير مكتب الوزير، موظفًا كبيرًا محنًا. عرف كيف يُحدّد الملفات الخطيرة حتى قبل أن تنفجر، موهبة سمحت له بالنجاة من التناوبات السياسية.

— كلير، اجلسي. تلقّيت هذا الصباح ثلاث مكالمات هاتفية. أولاً الإليزيه، الذي ينفد صبره. ثم نظيري الياباني، الذي لم يُخف عني أن طوكيو تنتظر لفتات منّا. أخيرًا اللوفر، القلق من التداعيات على مجموعتنا الأخرى.

أخرجت كلير فونتين ملفاتها. أدركت في سلوك فالييه العلامات المُندرة لتصاعد ضغط سيُعقّد مهمتها بشكل ملحوظ.

— سيدي مدير المكتب، يفرض الوضع الحذر. لكننا حدّدنا عدة خيارات.

عرضت على برنار فالييه الخيارات الثلاثة التي اقترحتها إليز لينيل: دفاع أقصى، تفاوض تسوي أو اعتراف بالخطأ مع الاستعادة. أصغى فالييه بانتباه. عرف أن القرارات المتخذة في الساعات القادمة ستُلزم الموقف الفرنسي على المدى الطويل.

— هذا الخيار الثالث غير مُتصوّر سياسيًا. يعارضه الإليزيه رسميًا. تخيلي رد فعل الرأي العام إن أعلنّا أننا نُعيد إلى اليابان روائع من متاحفنا الوطنية! سنتهاled علينا المعارضة بلا هوادة.

عبّر فالييه هنا عن القيود التي كانت تُثقل القضية بأكملها. كانت لديه قدرة على توقع ردود فعل الرأي العام جعلت منه مستشارًا مُصغى إليه.

— أفهم. لكن يجب أيضًا التفكير في العواقب على المدى الطويل. إن خسرنا بعد أن مارسنا العرقلة، ستُعاني صورتنا الدولية طويلًا.

— ما هي توصيتك الشخصية؟

ترددت كلير فونتين بضع ثوانٍ. قدّرت أن جوابها سيُوجّه الاستراتيجية الفرنسية بأكملها.

— التفاوض التسوي مع المنظمة غير الحكومية. لا تزال أماننا نافذة لإيجاد اتفاق مُشرف. إن انتظرنا كثيرًا، نُخاطر بأن نجد أنفسنا في زاوية ضيقة.

— وشركاؤنا الأوروبيون؟ أيقبلون أن نتراجع؟

— سيُفضلون حلًا متفاوضًا عليه على هزيمة مدوية. إن وجدنا مقاربة مُبدعة تصون الجوهر مع إرضاء اليابانيين، سيتقبلونها.

رفع برنار فالبيه سماعة الهاتف واتصل مباشرة بالوزير. عرض عليه الوضع بالتفصيل. بعد عشر دقائق، انتهت المكالمة. توجه برنار فالبيه عندئذ إلى كلير فونتين بتعبير لا يترك مجالاً لأي غموض.

— كان الوزير قاطعًا. الأوامر تأتي من فوق. تطور الوضع. بالنسبة إلى الرئيس، لا مجال للتفاوض على أي شيء مع المنظمة غير الحكومية، وأقل من ذلك استعادة الأعمال. لا يبقى إذن سوى الخيار الأول: دفاع أقصى. واضح؟

— واضح جدًا، سيدي مدير المكتب.

استوعبت فونتين الصدمة. رأت آخر آمالها في حل مُرتّب تتلاشى.

— وأبقيني على اطلاع، لا يمكنني تحمل المفاجآت.

بعد أن رُجِّح الآن الطريق التخاصمي، انكبّ كل الفاعلين على صقل دفاع فرنسا. بشكل متناقض، خَفُضَ هذا التوضيح الضغط. استعاد خدام الدولة الفرنسية أرضًا مألوفة. تلك الخاصة بالدفاع الشرس عن المواقف الوطنية، مهما كانت نقاط ضعفها الجوهرية.

بما أن القانون ليس علمًا دقيقًا، بل تقنية بسيطة، كفى أن نُفكِّك حجج المنظمة غير الحكومية واحدة تلو الأخرى. برعت الإدارة الفرنسية في هذا النوع من التمرين.

لكن في الوقت نفسه، كان مشروع آخر يتقدم في أروقة السلطة، مشروع سيكشف كل تعقيد الحسابات الحكومية.

الفصل العاشر: الطريق المسدود التشريعي

باريس، وزارة الثقافة، 15 يوليو 2025

في شارع دو فالوا، كانت المكاتب خائفة. صيف حار بشكل خاص كان يُنهك باريس، وحتى الجدران القديمة من القرن السابع عشر لم تعد قادرة على الحفاظ على البرودة.

في المبنى الفخم، كان النشاط على أشده. رددت الأروقة صدى صليل الكعوب على الأرضية الخشبية القديمة، متقطعاً بحفيف الملفات والهمس المتواصل للمحادثات الهاتفية. كانوا يُحضرون إصلاحًا. ليس أي إصلاح. منذ خطاب الرئيس الشهير في واغادوغو في 28 نوفمبر 2017، كانت الإدارة الفرنسية تعمل على التزام أثار ضجة. «لا يمكنني أن أقبل أن يكون جزء كبير من التراث الثقافي لعدة بلدان أفريقية في فرنسا»، قال رئيس الجمهورية أمام شباب أفريقيا.

صاعقة. اهتزت الأوساط المتحفية، تجهّم الدبلوماسيون، هرع القانونيون إلى قوانينهم. رأى فيه البعض عبقرية، رؤية جريئة قادرة على إعادة تعريف العلاقات ما بعد الاستعمارية؛ ولم ير فيه آخرون سوى غوغائية صرفة، ضربة تواصل بلا مستقبل. لم يكن ذلك مهمًا. حُدد المسار، وكان على مصالح الدولة أن تتبعه.

فتبعته. سنوات من التأمّلات التي لا تنتهي، من المشاورات مع كل ما يضمه البلد من متخصصين في التراث، من مفاوضات لا تنتهي. كل ذلك لينجب إطارًا تشريعيًا أدنى، مُنقّى من أكثر حوافه إثارة للجدل. بعد قانونين إطاريين سابقين بشأن النهب المعادي للسامية واستعادة الرفات البشرية، جاء مشروع القانون هذا بشأن الاستعدادات للدول ليُغلق الدائرة. مقارنة سمحت بوضع علامة صح على كل الخانات دون زعزعة النظام القائم.

أصبحت قضية ماتسوكاتا ثانوية منذ اختيار الطريق التخاصمي. على الأقل هكذا أدركها بعض المسؤولين. نجحت منظمة عودة واستعدادات

غير الحكومية بالفعل في إثارة ضجة بإجرائها الأممي، لكن استعادت المصالح المختصة ثقتها. كانت مواقفها متينة، حججها مصقولة.

في الطابق الخامس للوزارة، استُدعي اجتماع عمل في قاعة المؤتمرات. كان يجب تقييم تقدم مشروع القانون ورؤية كيف يتناغم مع المنازعات الجارية. لمعت الطاولة البيضاوية تحت الأضواء النيونية، محاطة ببورتريهات مهيبه للوزراء السابقين الذين بدوا يراقبون بلطف خدام الدولة الجدد.

رأس أنطوان دولاكروا الجلسة. أخرج مدير المكتب بذلته الصيفية من الكتان البيج وربطة عنقه الفاتحة، تنازل ملبسي أمام درجات الحرارة لم يمس شيئاً من وقاره الطبيعي.

التزام رئاسي في واغادوغو؟ قيد يجب إدارته، لا أكثر. تمثلت مهارته في إعطاء وهم الطموح الثوري مع الحفاظ على جوهر التوازنات القائمة.

— زملائي الأعضاء، نجتمع لتقييم تحقيق أحد أهم مشاريع هذه الولاية في المجال الثقافي. يُشكّل مشروع القانون الذي قدّمته الوزيرة أمس التطبيق المباشر للالتزامات التي قطعها الرئيس في واغادوغو في نوفمبر 2017. نُنشئ استثناء لقاعدة عدم قابلية التصرف بشأن الأعمال التي كانت موضوع استيلاءات غير مشروعة بين 1815 و1972. يستجيب هذا للإرادة الرئاسية بتجديد علاقاتنا مع شركائنا الأفارقة على أسس أكثر إنصافاً.

أحدث استحضار خطاب واغادوغو أثره الصغير حول الطاولة. تذكر الجميع. لم يكن إصلاحاً إدارياً آخر فحسب، بل تجسيداً لرؤية كان يُفترض أن تُحدّث بشكل دائم المقاربة الفرنسية للمسائل التراثية الدولية.

أخذ هنري رافانيل الكلمة. أشرف المستشار، خريج المدرسة العليا للأساتذة والحائز على التبريز في القانون العام، على صياغة مشروع القانون بتنسيق مع مجلس الدولة ومصالح رئيس الوزراء. جسّد خلاصة المثقف السلطوي، المتغذي في أفضل مدارس الجمهورية

والمتمرس في دقائق القانون الدستوري. امتلك رافانيل ذلك المزيج من السعة العلمية والانتهازية الذي يُميّز النخبة الفرنسية. شكّل مشروع قانونه بالنسبة إليه تحفة توازن، برهائاً على مهارته في فن إرضاء المتناقضات. لا يهم إن كانت النتيجة النهائية تُفرغ الالتزام الرئاسي من جوهره، الجوهر يكمن في أناقة الاستدلال.

— سيدي مدير المكتب، مشروع القانون هذا ملحوظ.

عشق رافانيل هذه اللحظة. بعد أشهر من فحص النصوص والتفاوض على كل فاصلة مع جيش من القانونيين الدقيقين، بعد أن نجا من الاجتماعات بين الوزارات حيث كان كل واحد يدافع عن حقيقته الخاصة، استطاع أخيراً أن يُقدّم مولوده.

— يسمح النطاق الجغرافي الذي حدّدناه بمعالجة مجمل إشكاليات الاستعادة للدول. شركاؤنا الأفارقة، بالطبع، لكن أيضاً كل البلدان الأخرى التي قد تُطالب بأعمال تعود لتراثها الوطني. مصر، اليونان، إيطاليا، حوض البحر الأبيض المتوسط بأكمله... تريد مقاربتنا أن تكون عالمية.

انحنى على النص.

— تتوافق الفترة المحدّدة، من 1815 إلى 1972، مع أكثر الاستيلاءات إثارة للجدل في ماضينا، منذ الغزوات النابليونية حتى دخول اتفاقية اليونسكو لسنة 1970 حيز التنفيذ. بنينا أداة حديثة وفعّالة ستسمح بمعالجة متسقة لمجمل المطالب الحكومية.

وافق دولاكروا برأسه. صمد العرض، على الورق على الأقل. بقي أن نرى كيف سيصمد أمام اختبار الواقع والضغط السياسية. لم يكن دولاكروا يجهل ثغرات مشروع القانون. كان يخلق فعلياً تمييزاً بين الدول والأفراد قد يثبت أنه متفجر.

— وما هو تقييمك لعدد الملفات التي قد يتوجب علينا معالجتها في السنوات القادمة؟

— تُشير تقديرانا الأكثر معقولية إلى نحو خمسين مطالبة محتملة خلال العشر سنوات القادمة، أجب رافانيل دون تردد، أساساً من

شركائنا الأفارقة. أعلنت بنين ومالي والسنغال عن نواياها. هذا حجم يمكن لمصالحنا إدارته، خاصة أن الإجراء ينص على تشكيل لجان علمية ثنائية ستضمن موضوعية قراراتنا.

خمسون ملفاً. كانت للأرقام ميزة طمأنة الحضور. بعيداً عن التوقعات الكارثية للعديد من المنتقدين الذين كانوا يتخيلون بالفعل المتاحف الفرنسية مُفرَّغة من مجموعاتهما، بعيداً عن كوابيس أمناء المتاحف الذين كانوا يخشون نهباً مُشرعناً لمخازنهم، توقعت الإدارة تنفيذاً مُتحكماً فيه. تدريجياً، منهجياً، مراقباً.

مثّلت كاترين دوبوا، مديرة متحف أورساي منذ ثماني سنوات، وجهة نظر المؤسسات المتحفية. أمينة متحف سابقة في اللوفر، ارتبطت ارتباطاً وثيقاً بإعداد الإصلاح، ما منحها شرعية خاصة للتحدث باسم زملائها. احترمت خبرتها، أصغي لتحليلاتها. كرّست عبادة صادقة للتربية الفنية للجماهير. لكن حبها للأعمال جعلها تملكية، شبه أمومية تجاه المجموعات التي كانت تحت وصايتها. بدت لها مطالب الاستعادة تدنيسات، محاولات لتفكيك تراث عالمي. انصبّ ذكاؤها الدقيق على تبرير ما كان في الأصل رد فعل حماية.

— سيدي مدير المكتب، تدخلت بصوت هادئ، بحصر نطاق التطبيق على المطالب الحكومية، نصون مجموعاتنا من التدفق الذي يصعب التحكم فيه للطلبات الفردية التي كان يمكن أن تنتج عن مقاربة أقل استهدافاً. الورثة، جامعو التحف المنهوبون، المجتمعات... تخيلوا الفوضى لو فتحنا الأبواب.

قال هدوء دوبوس الكثير عن جودة العمل التحضيري. أصغي إلى أمناء المتاحف، أدمجت اعتراضاتهم. نجحت الإدارة في التوفيق بين الطموحات الرئاسية والقيود التشغيلية للمتاحف. توازن هش، ثمرة أشهر من المفاوضات في لجنة صغيرة.

— حدّدنا أيضاً، أضاف رافانيل، ضمانات متينة. سيتعين توثيق كل طلب، تدعيمه بأدلة لا تُدحض. ستفحص لجان الخبراء كل ملف بالصرامة التي يفرضها الرهان.

تحدث جان-كلود غوميز، مدير الشؤون القانونية. كان متحفظاً، لكنه كان مع ذلك أحد الأعمدة الفاعلة للنظام.

كان غوميز من هذا النوع من كبار الموظفين الذين يُفضلون الظل على الضوء، الكواليس على المنابر. تقني محنك في القانون الدولي، عوّض ثغراته في الكاريزما بمعرفة موسوعية بالمعاهدات والاتفاقيات. أخفى تحفظه بصيرة حقيقية. أدرك، أكثر من زملائه، مخاطر البناء الذي كانوا بصدد إقامته. لكن طبعه منعه من التعبير علناً عن شكوكه، مكتفياً بإدراج تحذيرات هنا وهناك لم يبدُ أن أحدًا يسمعها. — ينص الإجراء أيضاً على حق نظر لوزارة الخارجية على كل طلب. لا يمكننا فصل هذه المسائل التراتبية عن الرهانات الأوسع. الاستعادة هي أيضاً عمل من أعمال السياسة الخارجية.

لاقت ملاحظة غوميز صدى هواجس عدة مشاركين.

أثيرت قضية ماتسوكاتا كنقطة بين أخريات، دون تدرام خاص. بالنسبة إلى الإدارة، كان الإجراء الأممي يندرج ضمن منطق آخر، إطار آخر، دون التشكيك في اتساق العمل الحكومي. عالمان متوازيان يجب ألا يتصادما بأي حال.

— زملائي الأعزاء، لاحظ دولاكروا، يجدر أيضاً تناول التنسيق بين تشريعنا الجديد والمنازعات الخاصة الجارية. خصوصاً الإجراء الذي شرعت فيه منظمة عودة واستعدادات غير الحكومية.

عرف كل واحد الملف، لكن لم يرغب أحد في الحديث عنه. كانت الشوكة في الحلق، حبة الرمل التي يمكن أن تُعطل الآلية الإدارية الجميلة.

اغتمت رافانيل الفرصة. كانت أرضه المفضلة، دقائق القانون والتميزات العلمية بين مختلف أنواع المنازعات.

— سيدي مدير المكتب، يتوافق الحصر على المطالب الحكومية مع خيار متسق مع الالتزامات التي قطعها الرئيس. كان يستهدف تحديداً العلاقات بين الدول، الدبلوماسية الثقافية، لا المنازعات بين الأشخاص الخاصين والسلطات العامة.

عرفت كاترين دوبا الوسط المتحفي والإعلامي جيداً بما يكفي لتعرف أن التمييزات القانونية لا تصمد دائماً أمام اختبار الرأي العام والنقد الصحفي. قاطعت رافانيل.

— لكن أخيراً، هنري، ألا يُخاطر الحصر بأن يُدرك كتناقض صارخ؟ إن اعترفنا بمبدأ الاستعدادات للدول، لماذا نستثني ذوي الحقوق الخاصين؟ كيف نُفسّر فرقاً في المعاملة؟

هاجمت هذه الأسئلة الجوهر. في الحقيقة، كان هذا الخيار يُخفي هدفاً سياسياً كبيراً: حصر نطاق تطبيق الإصلاح.

أزاح رافانيل الاعتراض بإشارة من يده. سمع هذه الحجة عشرات المرات وكان جوابه مُتمرساً، مصقولاً خلال الاجتماعات التحضيرية.

— أبداً، كاترين. تتدرج المطالب الحكومية ضمن منطق علاقات ثنائية. هذا يُبرر معاملة خاصة، إجراءات مُكيّفة. أما المنازعات الخاصة، فتتدرج ضمن آليات أخرى، هيئات أخرى. تضمن الإجراءات المدنية القائمة حقوق مقدمي الطلبات. المحكمة القضائية، محكمة الاستئناف، محكمة النقض... ترسانة كاملة موجودة بالفعل.

— وفيما يخص ملف ماتسوكاتا بشكل أدق؟ ألحّ دولاكروا وهو ينحني قليلاً نحو رافانيل.

— تسير القضية في مسارها أمام الهيئات الأممية، أجاب رافانيل بنبرة أراد لها أن تكون مطمئنة. من جهة، يُعدّ قانونيون في وزارة الخارجية دفاعاً مبنياً بحجج متينة. علاوة على ذلك، وهذا ملحوظ، لا تدعم السلطات اليابانية المنظمة غير الحكومية رسمياً في مسعاها. يقول ذلك الكثير عن الطابع الهامشي لهذه المبادرة.

رأى جان-كلود غوميز أنه من المناسب أن يتدخل لتوضيح الموقف الفرنسي.

— ليس رسمياً، لكن ربما بشكل غير رسمي...

— ليس هذا هو السؤال. لا نخلط بين الأمور، حسم دولاكروا. تابع، جان-كلود.

— حللنا الإجراء بالتفصيل. لا يملك مجلس حقوق الإنسان التابع للأمم المتحدة صلاحية مُلزِمة في هذا الشأن. توصياته، إن وُجدت توصيات، ستبقى في المجال الرمزي. لدينا سوابق متينة لتبرير موقفنا. قرّرت كاترين دوبوا، التي كانت تعبت بقلمها منذ بداية الاجتماع، أن تتدخل للمرة الثانية.

— فيما يخصنا في المتحف، تحتفظ مجموعاتنا بوضعها المعتاد. تستمر الأعمال الثمانية عشر لمتسوكاتا موضوع النقاش في كونها جزءاً لا يتجزأ من مجموعاتنا الدائمة. نعرضها، نُعيرها لشركائنا، نُواصل سياستنا الثقافية الطبيعية. لا داعٍ لاتخاذ تدابير طارئة أو تعديل برمجتنا.

عبر هذا التصريح عن الحالة الذهنية للإدارة. العمل كالمعتاد. قضية ماتسوكاتا؟ تفصيل لا علاقة له بالإصلاح الجاري.

استقر هنري رافانيل بارتياح في مقعده.

— دعوني أشرح لكم لماذا لم نستطع إدماج الأفراد في نظامنا التشريعي، صرّح وهو ينطق كل كلمة. تُظهر تحليلاتنا — وصدقوني، أمضينا أشهراً كاملة عليها — أن فتح الباب للمطالب الخاصة، كان يعني احتمال تعلق الأمر بخمسة عشر إلى عشرين ألف عمل في مجمل المجموعات العامة الفرنسية.

ترك هذا الرقم يحدث أثره قبل أن يتابع، راضياً عن تأثيره الصغير. — تخيلوا الوضع، كان سيكون هناك طوفان من الطلبات كان سيغرقنا حرفياً. كانت فرقنا، المُثقلة بالفعل، ستتهار تحت آلاف المطالب من كل نوع. ورثة الأرستقراطية الروسية يُطالبون بأبقوناتهم، أحفاد جامعي تحف نُهبوا خلال الحرب، عائلات إيطالية تُطالب بلوحاتها المُصادرة تحت نابليون... فوضى إدارية شاملة.

وافقت كاترين دوبوا بحماس.

— ناهيك عن الاستحالة العملية لمعالجة كل هذه الملفات. يستلزم كل طلب أبحاثاً معمّقة في الأرشفة الوطني، الإقليمي، أحياناً الأجنبي.

خبرات فنية مفصلة للتحقق من صحة الأعمال وتوثيق مصدرها — وهذا يُكلف ثروة، بين أتعاب الخبراء، التحاليل العلمية، التنقلات. استشارات متخصصة لفك تشابك الميراث، البيع، التبرعات... كانت الميزانية ستنفجر. وأمناء متاحفنا، بدلاً من القيام بعملهم الحقيقي — البحث، العرض، الوساطة الثقافية — كانوا سيقضون وقتهم يُقَبِّون في أرشيف مُتربِّ ليعرفوا إن كان جد السيدة فلانة قد سُرقَت خزانته من طراز لويس السادس عشر فعلاً سنة 1815. كانت متاحفنا ستتحول إلى مكاتب تحقيق.

أضاف هنري رافانيل.

— كان فتح الباب للأشخاص الطبيعيين سيخلق ريبة دائمة على مجمل مجموعتنا. كان كل عمل اِقْتَنِي قبل 1972 يمكن أن يُوضع موضع تساؤل من يوم لآخر، على أساس أدنى شك، أدنى شائعة. مستحيل برمجة معرض بهدوء، مستحيل الإعارة للخارج دون التساؤل إن كنا سنسترد الأعمال، مستحيل انتهاج سياسة ثقافية متسقة. جحيم، باختصار.

— وعلى الصعيد المالي بشكل ملموس؟ ألحّ دولاكروا، مهتمًا بالجوانب الميزانية، لكن قلقًا سرًّا أيضًا من التوجه الدفاعي المتزايد لحججهم.

— عدة ملايين من اليوروهات لمجرد معالجة كل الملفات المحتملة، ناهيك عن القيمة السوقية للأعمال التي كنا سنضطر إلى استعادتها. لم تكن الدولة تملك ببساطة وسائل تحمل ترف كهذا، خصوصًا في السياق الميزانوي الحالي.

أضاف جان-كلود غوميز بُعْدًا إضافيًا، وقلبه منقبض.

— دون أن ننسى مخاطر الطعون أمام المحاكم الإدارية، إجراءات الطوارئ، الأوامر الاستعجالية... كان كل قرار استعادة أو رفض يمكن أن يُطعن فيه أمام الهيئات المختصة. كانت مصالحنا المتعلقة بالمنازعات سَتُغْرَق، تُثَلَّل.

كان الجميع راضين عن هذا البرهان بالعبث. وجدت الإدارة خط دفاعها. الاستجابة للالتزامات الرئاسية دون إطلاق النار على قدمها. توازن بين الطموح والواقعية الإدارية. لكن في أعماقهم، شعر عدة مشاركين بضيق غامض لم يجرؤوا على التعبير عنه.

دولاكروا، وهو يشعر بالإجماع يتشكل حول الطاولة، اختتم الجلسة بالتفاؤل المعتاد في هذا النوع من التمارين.

— نستطيع أن نهنئ أنفسنا لأننا وجدنا التوازن الصحيح بين طموحاتنا وواقع الميدان. يندرج الإصلاح في مقاربة تدريجية، مسؤولية، تصون المصلحة العامة مع الاستجابة لتوقعات شركائنا الدوليين.

وزّع المهام بسلطة القائد الطبيعية الذي يعرف أن كل شيء قد تقرر بالفعل، لكنه يحافظ على أشكال التشاور.

— هنري، تنسّق بشكل وثيق مع مصالح البرلمان لتمرير القانون في الأجل المحددة. الجدول الزمني التشريعي ضيق منذ آخر حل للجمعية الوطنية، لكن لدينا أسباب وجيهة للتفاؤل. كاترين، تُحضر فرقك من الآن للإجراءات الجديدة. سيتعين تدريب الموظفين، تكييف أنظمة المعلومات، توقع الطلبات الأولى مسبقاً.

تفرّق الاجتماع في جو من الرضا المتبادل عن الذات، غادر فيه كل واحد بيقين إنجاز الواجب.

في الأيام التالية، انطلقت المحرّاة الإدارية بالفعالية الآلية المعروفة عنها. أشرف هنري رافانيل على هذه الحفلة بأكملها، مهووساً كلياً بالتنفيذ التشغيلي لإصلاحه. انتهت النقاشات الفلسفية حول وجهة الاستعدادات، انتهت الحجج الأخلاقية عن الإرث الاستعماري. كان يجب أن ينجح ذلك، أن تكون الإجراءات سلسلة، أن تُحترم الأجل. كانت مسيرته كموظف كبير تُلعب على هذا المشروع.

في لحظات صحوته الليلية، حين كان الغليان الإداري يُفسح المجال للتأمل الوحيد، كان رافانيل يتساءل إن لم يكن يرتكب خطأ. بدا له هذا التمييز بين الدول والأفراد الذي كان يُدافع عنه ببراعة كبيرة في الاجتماع، في صمت مكتبه، كسفسطة موجهة لإخفاء ما لا يُبرّر. لكن

كانت هذه الشكوك تتلاشى بمجرد حلول الصباح، طاردها نشوة العمل وكبرياء المهندس المتأمل في عمله.

— الجوهري، كان يشرح لمعاونيه خلال نقاط الوضع الأسبوعية، هو إثبات أننا نتحكم في العملية. لا استعجال ولا جمود. تصاعد تدريجي يُطمئن الجميع.

استعاد أمناء المتاحف، الذين أقلقوا في البداية من رؤية مجموعاتهم تذوب كالثلج تحت الشمس، هدوءهم عند علمهم أن الدول وحدها تستطيع تقديم مطالب رسمية. لم تعد كاترين دوبوا، المُتحفظة في البداية على قيود مشروع القانون، تُخفي ارتياحها خلال اجتماعات التنسيق.

— في النهاية، لا تُخاطر قطعنا الرئيسية بشيء مع الطلبات الأولى المتوقعة. سنتعلق على الأرجح بأشياء إثنوغرافية، أقنعة، تماثيل طقسية... قطع مهمة بالتأكيد، لكن أقل مركزية. سنستطيع إدارة هذه الاستعدادات دون أن يُشكك ذلك جوهرياً في مهمتنا كخدمة عامة.

توافق التحليل مع الدراسات التحضيرية. ستتعلق المطالب الأولى فعلاً بأعمال فنية أفريقية، اقتُنيت في ظروف غالباً مشبوهة خلال الحقبة الاستعمارية، لكنها لم تشغل مكانة مميزة في المجموعات الدائمة للمتاحف الباريسية الكبرى.

في مخازن كاي برانلي، متحف أورساي، اللوفر، أُجريت جرود سرية لتحديد الأعمال التي قد تكون معنية. لا شيء يُنذر بالخطر في الأفق. بضع مئات من القطع كحد أقصى، مُدرّجة، موثّقة، مُقيّمة. مخزون يمكن إدارته يسمح بإرضاء المطالب الحكومية دون تفريغ الفاترينات.

في سيريت، خَمَن بيير بيرتنيه هذا المسرح الصغير بتسلية العتيق الذي رأى إصلاحات سطحية كثيرة وثورات فاشلة كثيرة تمر. توقّع الأستاذ أن تختار الإدارة التجنّب بالاكتفاء بالمطالب الحكومية الأقل إزعاجاً.

جمع بين ذكاء حاد وشكل من الازدراء البشري المُحبَط الذي كان يظهر في تحليلاته الأكثر دقة. صلبته عقود من المعارك دون أن

تُقسّمه. احتفظ بتلك القدرة الخاصة بكبار المثاليين على تمييز نقائص البشر مع الاحتفاظ بإيمان بصواب قضيته. كانت قسوته الظاهرة تُخفي حساسية لم يكن يسمح لها بالتسرب إلا في خصوصية مكتبه الكاتدرائية، أمام نسخة «غرفة آرل» التي كانت تُشرف على تأملاته. كان بيير بيرتييه من هؤلاء الذين يستمدون قوتهم من جراحهم وبصيرتهم من خبياتهم.

— أصدقائي، كان يشرح بابتسامة عارفة خلال اجتماع التنسيق الشهري للمنظمة غير الحكومية، يؤكد مشروع القانون هذا المُعلن في آخر بيان لمجلس الوزراء ما كنا نظنه منذ البداية. باستثناء الأشخاص الخاصين عمداً من نطاق تطبيقه، تعترف الدولة ضمناً بمبدأ الاستعدادات... لكن ليس بالنسبة إلينا. تمييز صرف وبسيط.

لم تستطع فيروننيك فورنييه، التي كانت تُهتم بدقة أرشيفية بجمع كل توثيق المنظمة، إلا أن تبتسم وهي تُصنّف مقالات صحافة اليوم. انضمت إلى الفريق بإيمان نصالي، لكنها اكتشفت بفتنة خفايا السلطة. أترى نظرها الجديد إلى المجهر السياسي-الإداري تحليلات بيير بيرتييه.

— يُريحنا التناقض الصارخ كثيراً في الإجراء الأممي. كيف سيُفسرون لخبراء مجلس حقوق الإنسان أنهم يخلقون نظاماً محدداً للدول يُستثنى منه الأشخاص الخاصون؟ كيف يُبررون فرقاً في المعاملة؟

كان جبرار لوفنان، المحامي الذي كان يتابع الجوانب القانونية للملف، يطرح دائماً الأسئلة الصحيحة في اللحظة الخاطئة، بعادة القانونيين في تعقيد المواقف البسيطة ظاهرياً.

— هل تصمد استراتيجيتنا الإجرائية في هذا السياق التشريعي الجديد؟ ألا نُخاطر برؤية حججنا تضعف بتطور القانون الفرنسي؟

— على العكس، يُعزّز مشروع القانون هذا موقفنا دون أن نحتاج إلى تغيير أي شيء في مقاربتنا، أجاب بيرتييه. يبقى الإجراء الأممي الذي أطلقناه مناسباً، ربما أكثر وجهة من قبل حتى. أترى، يعرف الخبراء

الدوليون كيف يُمَيِّزُونَ بين الإعلانات الجميلة عن النوايا وتطبيقها الملموس. إن صَوَّت القانون من قبل البرلمان — وسيُصَوَّت — سيُوضَّح ذلك أن الأمر يتعلق بتمييز مُتعمَّد. المشكلة نفسها، لكن معاملة تفاضلية وفقاً لوضع مقدم الطلب. هذا ما تُدينه الاتفاقيات الدولية بشأن حقوق الإنسان.

دخلت قضية ماتسوكاتا مرحلة جديدة حيث كان كل طرف يتمسك بمواقفه بثقة جميلة. هنأت الإدارة الفرنسية نفسها لأنها وجدت التوازن بين قيمها الإنسانية الكبرى ومصالحها الصغيرة المفهومة جيداً. واصل بيير بيرتينييه وفريقه حرب العصابات الفكرية بالإشارة إلى التناقضات والتضاربات الحكومية.

سيُشكَّل اعتماد قانون الاستعدادات للدول التحقيق الرسمي للالتزام المُقطوع في واغادوغو، لكنه سيكشف أيضاً حدوده الجوهرية أمام المطالب الخاصة.

خلال الأسابيع التالية، تعدد تنقلات هنري رافانيل بين الوزارة وقصر بوربون. كانت المكوكية البرلمانية تلوح خطرة، ليس كثيراً بسبب المعارضة السياسية — استفاد النص من إجماع واسع — بل بسبب التعديلات التي لن يتردد النواب الحريصون على ترك بصمتهم في اقتراحها.

شعر رافانيل بترقب أمام فكرة رؤية عمله يخضع لغربال البرلمان. أمضى لياليه يتوقع كل الاعتراضات الممكنة، مُعدّاً ترسانات من الحجج للدفاع عن كل فاصلة في نصه.

همست غرفة لجنة الشؤون الثقافية في الجمعية الوطنية بالمحادثات المعتادة. مقرررة النص، سيلفي بوتينييه، النائبة الاشتراكية عن جيروندي، عرفت الرهانات جيداً.

أمنية متحف سابقة، كانت سيلفي بوتينييه امرأة ميدانية. احتفظت من سنواتها المتحفية بذوق بارز للدقة واحترام صادق للخبرة. لكن انتقالها

إلى السياسة منحها أيضًا حسًا مرعبًا لاكتشاف الثغرات في أعقد المتاهات الإدارية.

— هنري، قالت له وهي تستقبله، درست نصك بأدق التفاصيل. عمومًا، إنه عمل جيد. لكن لدي بعض التساؤلات قد تظهر في الجلسة. استقر رافانيل بارتياح.

— أصغي إليك، سيلفي. ما هي هواجسك الرئيسية؟

— مسألة عبء الإثبات، أولاً. ينص نصك على أن الدولة الطالبة يجب أن تُقدّم الدليل على الاستيلاء غير المشروع. لكن كيف نُعرّف هذا المفهوم؟ أكانت الغزوات النابليونية غير مشروعة بالنظر إلى قانون تلك الحقبة؟ الاقتتاءات الاستعمارية؟ أين نضع الحد؟ وضعت النائبة إصبعها على إحدى نقاط الضعف المحتملة للنظام. توقع رافانيل السؤال.

— نستند إلى المعايير الدولية المعاصرة. اتفاقية لاهاي لسنة 1954، مبادئ واشنطن لسنة 1998، اتفاقية اليونسكو لسنة 1970... مجموعة راسخة بمتانة تسمح بموضعة هذه المفاهيم.

— النقطة الثانية، تابعت سيلفي بوتييه دون أن تتراجع. تستثني المطالب الخاصة، حسناً. لكن كيف نُعالج حالة الدول التي قد تكون بوق مصالح خاصة؟ إن قررت حكومة غداً دعم مطالبة منظمة غير حكومية رسمياً، هل ينطبق نظامك؟

كان السؤال مُحرّجاً وعرف رافانيل ذلك. توقف لحظة ترددت لم تفلت من محدثته.

— ينص الإجراء على فحص شرعية كل طلب من قبل اللجان العلمية الثنائية. إن كانت مطالبة حكومية تُخفي مصالح خاصة، سيُكتشف ذلك ويُعاقب عليه.

— يُكتشف كيف؟ من قبل من؟ وفق أي معايير؟ ألحّت النائبة.

شعر رافانيل بالأرض تنزلق. كان يجب استعادة المبادرة، ولو باستنزاف السؤال في خطاب اعتيادي عن روح الإصلاح.

— سيلفي، يجدر التذكير بروح هذا الإصلاح. نحن في منطق دبلوماسية ثقافية، مصالحة الذاكرات الوطنية. الدول الأفريقية التي أبلغتنا توقعاتها لا تسعى إلى استغلال مطالب خاصة. تتصرف لصالح شعوبها، لإعادة بناء تراثها الوطني المُشَتَّت.

لاقت الحجة صدًى جزئياً. وافقت سيلفي بوتيه مع الاحتفاظ بتحفظاتها. لم تتخدد بالمناورة.

— لا أقول العكس، هنري. لكن يجب توقع الحالات الحدية، الانحرافات المحتملة. يُلْزمني دوري كمقررة بتوقع الاعتراضات التي لن تتأخر في الظهور في الجلسة العلنية.

في أروقة المتاحف الباريسية، عاش مجتمع أمناء المتاحف فترة الانتقال هذه بمشاعر مختلطة. إن كان استثناء المطالب الخاصة قد طمأن الأذهان إلى حد كبير، كان البعض لا يزال يتساءل عن التداعيات الملموسة للإصلاح.

في مقهى متحف أورساي، حدّدت كاترين دوبوا موعداً مع بعض الزملاء لغداء عمل غير رسمي. حول الطاولة، تبادل مديرو المؤسسات الباريسية الكبرى وجهات نظرهم.

— كاترين، سأل فيليب كامديسو، مدير متحف غيميه، كيف تُدركين تطور ملف ماتسوكاتا في هذا السياق؟ ألا يُخاطر الإجراء الأممي بخلق سابقة مُزعجة؟

احتست كاترين دوبوا قهوتها قبل أن تُجيب.

— بصراحة، فيليب، لست قلقة. أعمالنا الثمانية عشر موثّقة بمتانة، مُدمّجة في مجموعتنا. إنها جزء من هويتنا المتحفية. يعرفها الزوار، يُقدّرونها. لسنا في وضع إخفاء أو اقتناء مشبوه.

— صحيح، لكن الحجة الأخلاقية قد تُؤثّر، تدخلت ماري-كلير كوميلاد، مديرة متحف فنون أفريقيا وأوقيانوسيا. إن اعترف الخبراء الأمميون بوجاهة المطالبة، سيخلق ذلك ضغطاً كبيراً على الحكومة.

— ضغط رمزي صرف، هدأت كاترين دوبوا من الأمور. لدينا أمثلة كافية على بلدان تجاهلت هذا النوع من الأوامر.

قدّم إيف سالومون، أمين متحف في اللوفر، منظورًا أمل أن يكون مطمئنًا.

— يجب ألا ننسى أيضًا أن ماتسوكاتا كان جامع تحف خاصًا يابانيًا، لا ممثلًا رسميًا للحكومة اليابانية. اندرجت اقتنائه ضمن مسعى شخصي، حتى وإن كانت تندرج في سياق انفتاح اليابان على الفن الغربي. لسنا في إشكالية نهب استعماري.

أراح التحليل الحضور. قدّمت قضية ماتسوكاتا خصائص محددة تُميّزها عن المطالب الأفريقية الكلاسيكية.

— ثم، أضافت كاترين دوبوا بابتسامة أخفت بصعوبة شكوكها، ربما بالغ أصدقاؤنا في منظمة عودة واستعدادات غير الحكومية في تقدير قدرتهم على التأثير. إثارة الضجة شيء. الحصول على نتائج ملموسة شيء آخر.

في سيريت، لم يبقَ بيير بيرتييه خاملًا. مُدرّكًا أن كل شيء سيُلعب على أرض الرأي العام بقدر ما يُلعب في الأروقة القانونية، أطلق هجومًا إعلاميًا مُنظمًا بمهارة. أثبت دفتن عناوينه أنه ثمين.

— فيرونك، قال لمعاونته وهو يتصفح قائمة اتصالات الصحافة، يجب أن نضرب بقوة. يُقدّم لنا مشروع القانون بشأن الاستعدادات للدول فرصة ذهبية لفضح النفاق الحكومي.

وافقت فيرونك فورنييه، التي كانت لديها موهبة حقيقية في التواصل البديل، وهي تستشير حاسوبها المحمول.

— اتصلت بمتخصصي لوموند، ليبيراسيون، تيليراما. مهتمون بزاوية نقدية عن الإصلاح. وعلى الصعيد الدولي، اتصالاتنا في بي بي سي والنيويورك تايمز مهمة أيضًا.

تعلم فريق المنظمة غير الحكومية كيف يُتقن رموز الإعلام. بيانات صحفية مؤثرة، ملفات وثائقية لا تشوبها شائبة، تصريحات مُعَايَرة لنشرات الأخبار. آلية حرب معلوماتية بدأت تُؤتي ثمارها.

نسّق جيرار لونغان البُعد الأوروبي للحملة.

— لديّ أصداء إيجابية من جانب البرلمان الأوروبي. عدة نواب مهتمون بمسائل الاستعدادات. جلسة استماع عامة بشأن هذا الموضوع قد تخلق ضغطاً إضافياً على السلطات الفرنسية.

— فكرة ممتازة، أجب بيرتبيه. يجب أوربة النقاش، منحه بُعداً أوسع. لم يعد بإمكان فرنسا الاكتفاء بإدارة هذه المسائل في عزلة.

اندرج كل تدخل إعلامي، كل موقف علني في استراتيجية شاملة تهدف إلى عزل الموقف الفرنسي.

لكن الهجوم واسع النطاق بدأ أيضاً يكشف الثغرات الأولى في النظام الحكومي. في وزارة الثقافة، انزعجت مصالح التواصل من المنحى الذي كانت تتخذه النقاشات.

لم تُخفِ ماري مورو، مديرة التواصل، هواجسها خلال اجتماع أزمة استُدعي على عجل. عبرت عواصف إعلامية كافية لتعرف كيف تُميّز العلامات المُندرة لأزمة كبرى.

— أنطوان، لدينا مشكلة اتساق سردي. من جهة، تُطري مزايا سياستنا للاستعادة للدول الأفريقية. من جهة أخرى، نُقاوم بحزم مطالبة خاصة موثقة بالكامل. يُصبح التناقض أصعب فأصعب على التمسك به في الفضاء الإعلامي.

بدا دولاكروا مطمئناً.

— ماري، موقفنا متين.

— لكن بالضبط، أنطوان، لا يُدرك الجمهور العريض هذه الدقائق. بالنسبة إليه، الاستعادة الثقافية هي استعادة ثقافية. تبدو تفسيراتنا حول اختلافات الوضع بين الدول والأفراد بيزنطية.

حاول هنري رافانيل، الحاضر في الاجتماع، الدفاع عن نظامه.

— يجب أن نصمد. إن تنازلنا، نفتح صندوق باندورا. غداً، سيكون هناك آلاف ذوي الحقوق يطرقون أبوابنا. هذا ما أردنا تجنبه بالقانون.

— لكن هنري، اعترضت ماري مورو، منطق الكل أو لا شيء يضرنا. يجعلنا نبدو كتكنوقراطيين غير حساسين للمسائل الأخلاقية. فهمت منظمة عودة واستعدادات غير الحكومية ذلك جيداً، تهاجمنا على الأرض الرمزية، لا على الأرض القانونية.

أصابنا التحليل الهدف. اكتشفت الإدارة، المعتادة على التنقل في عالم المفاوضات، القواعد التي لا ترحم للتواصل الحديث. في الفضاء الإعلامي، لم تكن أمتن الحجج تُوزن كثيراً أمام الروايات المحكمة الصياغة. بدأت معركة الرأي العام للتو، ولم تكن الأسلحة متكافئة. إدارة واثقة من حقها، لكن متخبطة في تناقضاتها. منظمة غير حكومية رشيقة وعازمة، مُتقنة تماماً لرموز التواصل البديل. لاح الصراع أصعب مما توقعت مصالح الدولة. رغم هذه الاضطرابات الإعلامية وانتقادات المعارضة، انتهى البرلمان إلى اعتماد مشروع القانون بعد نقاشات صاخبة، لكن متوقعة، وأصدره رئيس الجمهورية في 9 مارس 2026.

الفصل الحادي عشر: المعركة الطويلة

جنيف، قصر الأمم، سبتمبر 2027

في مكاتب المفوضية السامية لحقوق الإنسان، بدأ الاستياء يُصبح ملموساً. ثلاثون شهراً منذ أن أُبلغت فرنسا رسمياً بقضية مانتسوكاتا. ثلاثون شهراً، ولا شيء بعد. لا أدنى ملاحظة مفصلة عن الجوهر. كانت كارمن فاسكيز، الرئيسة، تنظر إلى كلاوس فيبر، المقرر، بحذر. خلف قناع صبرها، كانت تغلي بإحباط تعلّمت إخفاءه مع مرور السنين. قاضية سابقة اعتادت على المتقاضين الذين يحاولون إطالة المحاكمات، عرفت العلامات. لكن هنا، كان الإفلات من العقاب شبه كامل.

— كلاوس، وصلنا إلى طلب التذكير السادس. السادس! لبلد يُلقى دروساً على العالم بأسره، هذا كثير.

قرأ فيبر ملاحظاته بعادته في تصنيف كل شيء، إرثاً من طفولة بروسية أصبح فيها النظام ملاذاً ضد الفوضى. أخفت دقته غضباً صامتاً ضد هذه المناورات التسويقية التي حوّلت العدالة الدولية إلى مهزلة.

— أتعلمين، كارمن، درست كل ردودهم. إنه فن رفيع. أولاً، يحتجون بـ«التعقيد الاستثنائي للملف». ستة أشهر تأخير إضافي.

ثم اتساع «غير مسبوق» للأبحاث الضرورية. ستة أشهر أخرى. لديهم مخزون وفير، يجب أن أعترف.

واصل تقليب صفحات مراسلة تفوح منها رائحة سوء النية.

— وهنا، انتبهي. فجأة، لم تعد مصالحهم الداخلية «كفوة بما يكفي». يحتاجون إلى استشاريين خارجيين «ذوي شهرة دولية». ستة أشهر أخرى، بالطبع. منذ تسعة أشهر الآن، لديهم «صعوبات في الوصول إلى الأرشيف الوطني».

ضحكت كارمن فاسكيز تلك الضحكة الصغيرة التي كانت تحتفظ بها للحظات حين يبلغ العبث ذروته.

— استراتيجية الحلزون، كما نقول عندنا. يراهنون على الاستنزاف، هذا واضح. في رأسهم، إما أن ينتهي الملف في طي النسيان، أو تسأم وسائل الإعلام.

وافق فيبر. كان يُخَمَّن فيه إعياء من رأى العدالة الدولية تُهان مرارًا بواقعية السياسة.

— يعرفون أنه ليس لدينا أي وسيلة لإجبارهم. يستطيعون الإطالة لسنوات.

كان الاعتراف قاسيًا، لكن واقعيًا. بدا نظام الأمم المتحدة لحماية حقوق الإنسان كنمر من ورق: مُبهر، لكنه عاجز في الواقع.

باريس، نوفمبر 2027

في وزارة الخارجية، كانت كلير فونتتين تُدير حفلة التأخيرات هذه. شهد مكتبها، المُغطاة جدرانه بخرائط دبلوماسية، على مسيرة كُرست للمرأغة الأنيقة.

— أصدقائي الأعزاء، شرحت لمعاونيها، هدفنا بسيط. مدّ الإجراء إلى أقصى حد. الوقت هو أفضل سلاحنا. خلال أربع أو خمس سنوات، حين يُصدر المجلس قراره، لن يتذكر أحد ماتسوكاتا.

لم تكن أوليفييه لوكونت، الذي كان يُدير دائرة الشؤون الثقافية متعددة الأطراف، تنقصه الإبداعية.

— بشكل ملموس، حصرنا ثمانى مراحل يمكننا فيها طلب مهل دون أن نبدو خاسرين سيئين. خبرة معَمَّقة، تشاور بين الوزارات، مصادقة من مجلس الدولة، تشاور أوروبى... تكسبنا كل مرحلة ستة إلى تسعة أشهر.

في وزارة الثقافة، شارع دو فالوا، كان أنطوان دولاكروا يُكثّف المناورات التسويقية.

— يجب أن يعترف أمناء متاحفنا بشيء: كل شهر نكسبه، هو ضغط أقل قليلاً على مجموعتنا. سينتهي هذا النزاع بالانحسار، مثل كل النزاعات الأخرى. يكفي أن نكون صبورين.

لم تستطع كاترين دوبوا، التي اعتادت على تهدئة حماس زميلها، إلا أن تلعب دور مُفسدة الحفلة. أوحى لها اترانها الطبيعي، المصقول بعشرين عاماً من الخبرة المتحفية، أن تفاؤل دولاكروا قد يكون شكلاً من العمى. حملت ثقل ولاء مزدوج: تجاه مؤسستها وتجاه أخلاقيات شعرت أنها متضررة.

— أنطوان، أتفق من حيث المبدأ، لكننا لسنا سدّجاً. لن تبقى منظمة ببيير بيرتييه غير الحكومية سلبية. ستُفاعل حتماً، تُكثّف حملاتها الصحفية. قد يُصبح ذلك أصعب في إدارته...

سيريت، يناير 2028

نشر ببيير بيرتييه على نطاق واسع للصحافة نسخة كاملة من الملف، مُصرّاً على جمود الإدارة. في لوموند، كانت جوستين بوشيه — ذات القناعات المصقولة بعقد من الصحافة الاستقصائية — تُعدّ مقالاً سيئير حفيظة شارع دو فالوا.

«تكشف أخيراً قضية ماتسوكاتا الوجه الحقيقي لسياستنا الثقافية الفرنسية الجميلة. سخية في الخطاب، بخيلة في الأفعال»، كانت تكتب بغضب يظهر في كل كلمة.

في لوفيغارو، كانت النبرة شرسة بالمثل، حتى وإن بقيت الصياغة أكثر أدباً. طوّر كاتب عمود، خبير قديم في العلاقات الدولية، تلك السخرية اللاذعة التي سمحت له بها مكانته المكتسبة.

«برفضها معالجة قضية ماتسوكاتا بجدية، تنشر فرنسا الغصن الذي تجلس عليه. يُصبح سفراؤنا أضحوكة حين يُقدّمون نصائح شفافية لبلدان أخرى. من الصعب أن تعظ بالحق الصحيح بينما تدفن رأسك في الرمل في الأمم المتحدة.»

وجدت الانتقادات صدى في العالم الفكري الباريسي الصغير، المولع بالجدالات الحساسة. في السوربون، نظم الأستاذ جورج بيلتييه حتى ندوة عن «استراتيجيات تجنب الدول أمام الهيئات الدولية». عنوان طنان ليقول إن الحكومات تُجيد التصامم حين يُلائمها ذلك. وجد بيلتييه، الماركسي المتحوّل إلى التحليل الجيوسياسي، فيه تأكيداً لأطروحاته عن النفاق البرجوازي.

عرضت الأستاذة هيلين فابر، مديرة مجلة القانون الدولي المقارن، تحليلها بمتعة واضحة. امرأة ذات شخصية اضطرت إلى النضال لتفرض نفسها في وسط ذكوري، تذوّقت هذه اللحظات حين تثبت تحليلاتها أنها وجيهة.

«يضع الموقف الفرنسي إصبعًا على مشكلة صارخة: تستطيع الأمم المتحدة أن تُلقي دروسًا أخلاقية على الدول الأعضاء قدر ما تشاء، ليس لديها إطلاقًا أي وسيلة لإجبارها على التعاون. تُظهر قضية ماتسوكاتا بوضوح فظ أن القانون الدولي، أمام دولة لا تريد أن تسمع شيئًا، يبقى عاجزًا صرْفًا».

راقب بيير بيرتييه تطور الوضع. في الثامنة والستين من عمره، شعر بثقل السنين، لكن أيضًا برضا الاستراتيجي الذي يرى خطته تتحقق. شهدت تجاعيده الغائرة على حياة كُرست لقضايا خاسرة — وأحيانًا مربوحة رغم كل الصعاب. استمد منها شكلاً من الطمأنينة.

— أصدقائي الأعزاء، بدأ بصبر المُعلّم الذي كان يسكنه، لا تُدهشني الأعياب السلطات الفرنسية للحظة واحدة. لكنك منذهشًا لو تصرفت بطريقة أخرى. ثم، بيننا، عنادهم يخدمنا على المدى الطويل.

لم تُخف فيروننيك فورنييه حيرتها. انضمت إلى الفريق بأوهام عن سرعة العدالة، أوهام تآكلت بشدة بعد أشهر من المعركة. ثلاثينية نشيطة قادمة من القطاع الخاص، اكتشفت بمرارة بطء التغييرات. اصطدم نفاد صبرها كمبتدئة بخبرة المناضل العتيق.

— سيد بيرتنيه، اعذرنى، لكنني أجد صعوبة في متابعة استدلالك. كيف يمكن لعرقلتهم أن تخدمنا بينما أردنا في البداية قرارًا سريعًا؟ كلما طال الأمر، كلما زاد خطر انتهائنا في طي النسيان. تخبو التعبئة حين لا يرى الناس نتائج ملموسة.

نهض بيير بيرتنيه واتجه نحو الجدار حيث امتدت قصاصات صحفية تراكمت منذ سنوات. انحنى مشيه قليلًا مع العمر، لكن نظره احتفظ بكل حدثه. وجد في هذا التراكم الوثائقي شكلاً من متعة الأرشييفي.

— فيرونك، انظري جيدًا إلى تطور معركتنا الصغيرة منذ البداية، قال وهو يُشير إلى أكثر العناوين تأثيرًا. في البداية، كنا محصورين في صفحات الثقافة بالجراند، بضعة أسطر في مجلات متخصصة لا يقرأها أحد. اليوم، تتصدر أعمال النهب الثقافي انتظام العناوين الرئيسية في أكثر من عشرين بلدًا. ليس شيئًا لقضية كان يُفترض أن تبقى مُحفظة، أليس كذلك؟

أشار بإصبعه إلى عدة عناوين معبرة بشكل خاص كانت تشهد على التدويل التدريجي لقضيتهم. في حركاته، كان يُخمن فخر التكتيكي الذي يرى مسعاه يُؤتي ثماره.

— «هل تهرب فرنسا من مسؤولياتها؟»، «الدولة الفرنسية أمام نهبها»، «ماتسوكاتا: حين تلعب باريس العرقلة المنهجية»... كل شهر تأخير إضافي كان يُغذي النقاش العام.

بدأ جيرار لونفان، الذي انجذب إلى اللعبة مع مرور الأشهر، يُدرك دقة استدلال بيير بيرتنيه. كان متشككًا في البداية بشأن أساليب المنظمة غير الحكومية، مفضلًا الطرق التخاصمية الكلاسيكية. مع تقدم العمر — كان يقترب من الخمسين — دعم شكلاً من النقد البناء كان يُسليه هو نفسه.

— سيد بيرتنيه، أتقصد أن العرقلة الفرنسية تُحوّل ملفنا إلى رمز لنهب الدول؟ أهذه هي الخطة؟

— بالضبط، أكد بيرتنيه. بإبطاء الإجراء بعناد أمام الأمم المتحدة، تُخطئ الإدارة الفرنسية بشكل مثير. تُعزّز شرعيتنا الأخلاقية. كل مهلة

جديدة تطلبها، كل ذريعة بيروقراطية تحتج بها، كل مناورة تكشفها الصحافة تُساهم في تحطيم صورة الاحترام التي تُزرعها تقليدياً دبلوماسيتنا الفرنسية الجميلة. في النهاية، تتقلب عرقلتهم ضدهم: تكشف سوء نيتهم في وضوح النهار. الأمر سهل جداً تقريباً.

أعادت فيرونيك فورنييه، القلقة قليلاً حين تحل الخطابات الكبرى محل الواقع، زملاءها إلى الأرض بسؤال مباشر. عاد جانبها الإداري إلى الطفو.

— سيد بيرتنيه، بشكل ملموس، مع عرقلتهم المنهجية، كم من الوقت لا يزال أمامنا؟

اعتلى وجه بيرتنيه تعبير استسلام.

— إن كنت واقعياً... — تعرفون أنني أكره الآمال الزائفة — ... لن يكون لدينا قرار نهائي قبل 2031 أو 2032. في أفضل الحالات.

سرت بعض تهديدات الإحباط في الجمعية الصغيرة. سارع بيرتنيه إلى التنسيب بحكمة المناضلين القدامى المُزعجة قليلاً الذين رأوا مוזات ونفاد صبر يملرون.

— أصدقائي، هذه المدة، يجب ألا نراها كعقاب على الإطلاق. بل العكس! تمنحنا وقتاً لتعزيز موقفنا، لتوسيع تأثيرنا. كل عام يمر يُعزّز مطالبنا ويُضعف حججهم المتهاكمة.

أشار جيرار لونغان، الذي كان لديه موهبة الإشارة إلى المشاكل العملية التي كان الآخرون يُفضلون تجاهلها، بحركة استياء. بصفته محامياً، كانت لديه رؤية أقل رومانسية للصراعات الأيديولوجية.

— لكن كيف نحافظ على انتباه الإعلام لخمس أو ست سنوات؟ لن يبقى الرأي العام مُركّزاً على ملفنا إلى الأبد. يسأم الناس، هذا بشري. اتجه بيرتنيه نحو حاسوبه. أحب الأرقام حين تُثبت له الحق. رافقته هذه العادة عند الأستاذ دائماً، إرثاً من سنواته في التعليم حيث كان يجب الإقناع بالبرهان.

— أنتم تسيرون في الطريق الخاطئ. ليست مهمتنا أن نلعب دور المُسَلِّي لإطالة العرض. قضيتنا ماتسوكاتا مجرد رافعة لإثارة كل مسألة النهب الثقافي الفرنسي والغربي.

فتح ملفًا محدّدًا بدقة، كنز حرب حقيقي.

— منذ أن أطلقنا مبادرتنا في الأمم المتحدة، تلقينا ثلاثة وتسعين طلب مساعدة تتعلق بمجموعات منهوبة أخرى. ثلاثة وتسعون! عائلات يهودية، جامعو تحف خاصون ضحايا للنازية، قرى أفريقية، مجتمعات أمريكية أصلية، منظمات أرمنية...

خلقت قضية ماتسوكاتا أثر جرّ.

أعادت فيرونك فورنييه، التي بدأت تستوعب حجم الظاهرة، صياغة السؤال.

— إن فهمت جيدًا، فتحنا ثغرة يندفع فيها كل ضحايا النهب؟ خلقنا سابقة؟

— هذا صحيح، فيرونك. تُثبت قضية ماتسوكاتا أنه يمكن التشكيك في نهب الدول، حتى الأقدم منه. أثبتنا أن الضحايا لديهم أدوات لإجبار أقوى الدول على تقديم حسابات عن استيلاءاتها المشبوهة.

أكّدت الأحداث اللاحقة هذه التوقعات بدقة مُقلقة. تكاثرت قضية ماتسوكاتا في العالم بأسره، خالقة حركة احتجاج تجاوزت بكثير الحدود الفرنسية. في إنجلترا، أودعت جمعيات من بلدان مُستعمرة سابقًا بلاغات للمطالبة باستعادة قطع فنية أفريقية محفوظة في المتحف البريطاني. في الولايات المتحدة، طعنت قبائل في عدة اقتناءات متحفية من القرن التاسع عشر وطالبت بأشائها المقدسة.

وجدت الحركة صدى في الأوساط الأكاديمية، سريعة في تحويل الجدالات إلى حلقات دراسية. في هارفارد، نظم الأستاذ ديفيد ميسينغ مقررًا مُكرّسًا بالكامل لاستراتيجيات معاصرة لمعارضة نهب الدول للتراث المؤسسي:

«توضح قضية ماتسوكاتا كيف يمكن لحجة مبنية بدقة صارمة أن تُحوّل نزاعًا للمتخصصين إلى حركة سياسية بحجم دولي. نجح بيير بيرتييه في تسييس مسألة كانت محصورة في دوائر الخبراء ومنحها بُعدًا رمزيًا».

في أكسفورد، حلّت الأستاذة جينيفر برانتون التدايعات بمنظور نقدي للمدرسة البريطانية. وجدت هذه المرأة، التي كرّست مسيرتها لدراسة اللامساواة ما بعد الاستعمارية، فيه تأكيدًا لأطروحاتها:

«تكشف القضية بوحشية تناقضات السياسات الثقافية الغربية المعاصرة. كيف يمكن للمتاحف أن تدّعي مهمة تربوية مع الاحتفاظ بأعمال اقتُنيت بنهب ثابت؟ تطرح قضية ماتسوكاتا مباشرة سؤال الشرعية الأخلاقية لمؤسساتنا الثقافية».

في فرنسا نفسها، كسب النقاش تدريجيًا كل الهياكل الثقافية، خالقًا انقسامات داخل العالم المتحفي، المؤخّذ تقليديًا بتضامن فتوي. بدأ بعض أمناء المتاحف بشجاعة بالتشكيك في عدة اقتناءات، رغم ضغوط رؤسائهم.

باريس، فبراير 2029

في متحف أورساي، نظّمت كاترين دوبوا بهدوء اجتماعات تفكير مع فرقها لتوقع مطالب أخرى. كان مناخ الزمن يتغير، وشعرت جيدًا أنه يجب التكيف. أوحى لها تكوينها كإدارية بالتحفظ، لكن ضميرها أملى عليها الانفتاح.

— يجب أن نقبل أن قضية ماتسوكاتا شجّعت فترة إعادة نظر عامة في أكثر اقتناءاتنا إشكالية. يجب أن نحضّر أنفسنا لطعون مماثلة أخرى وأن نضع عقيدة متسقة.

في اللوفر، عبّر هنري لواريت، رئيس قسم اللوحات، عن هواجس مماثلة. صعد كل درجات سلّم الصون واحتفظ بتعلق لا عقلاني بسلامة المجموعات، مع فهمه للرهانات الأخلاقية.

— يجب علينا حتمًا معالجة مسائل المصدر دون التشكيك في السلامة الجوهرية لمجموعتنا.

في مدرسة اللوفر، ناقش طلاب الصون بشغف تداعيات قضية ماتسوكاتا. مُتغذّين على المسائل ما بعد الاستعمارية، لم يعودوا يُشاركون في البداة المتحفية لأسلافهم.

— كيف يمكننا أن نقبل العمل في مؤسسات ترفض بعناد الاعتراف بالتهب؟ كانت تتساءل ماري شوفالييه، طالبة ماجستير في المتحفية، بسخط يخص الشباب.

— يجب التمييز بين المسؤوليات الحالية ومسؤوليات الماضي، كان يُجيب زميلها سيدريك كاميليري. تُشكّل الأعمال جزءًا من التراث الفرنسي منذ ثمانين عامًا.

— ثمانون عامًا من الإخفاء، تقصد، كانت تردّ ماري. ليس لأننا نحفظ بشيء طويلًا فإنه يعود إلينا لهذا السبب.

كشفت النقاشات عن الأثر الدائم لقضية ماتسوكاتا على تطور الضمان الفرنسية.

سيريت، مارس 2030

قدّر الأستاذ حجم الحركة التي ساهم في إطلاقها بتواضع تناقض مع تأثيرها الدولي. علّمته حياة كُرّست للدفاع عن القضايا الخاسرة أن التحولات الاجتماعية تحدث على المدى الطويل.

— أصدقائي، حققنا إلى حد بعيد هدفنا الرئيسي، تحويل مسألة استعادة دقيقة إلى نقاش مجتمعي، صرّح خلال اجتماع الحويلة السنوية للمنظمة غير الحكومية، وفنجان قهوة بارد بيده.

اتجه نحو الجدار حيث عُرضت الآن آلاف القصصات الصحفية المُكرّسة للتهب الثقافي في العالم بأسره. شهد هذا التراكم الوثائقي على عناد كان يُسلّيه هو نفسه.

— انظروا التطور. لم يعد يمر أسبوع دون أن يذكر وسيلة إعلام ما في مكان ما الاستعدادات الثقافية. حرّنا كلامًا كان مخوفًا بالاستسلام والترهيب.

قدّمت فيرونك فورنييه، مسلّحة بإحصائياتها، حصيلة التداعيات الملموسة.

— سيد بيرتييه، يتلقى موقعنا على الإنترنت أكثر من خمسة عشر ألف زائر شهريًا. ولا أحدث عن شبكات التواصل الاجتماعي حيث نُذكر في كل مكان.

استحضر جيرار لوفان آفاق المستقبل بتفاؤل لم يكن يعرفه في نفسه قبل بضع سنوات.

— أصبحت مسألة النهب الثقافي مُسجّلة بشكل دائم في النقاش الديمقراطي العالمي. لن تستطيع الحكومات الغربية تجاهلها بعد الآن. وافق بيير بيرتييه مع الاحتفاظ بحذر فكري أمام الحماسات المبكرة. جعله العمر مُرتابًا من الانتصارات السهلة جدًا.

— أنتم محقون في التأكيد على نجاحاتنا، لكن لنتنجب أي انتصارية. طرحت فرانسواز مارتان السؤال الذي كان يشغل الفريق بأكمله بشكل طبيعي. صحفية سابقة تحوّلت إلى العمل الجمعياتي، احتفظت بتلك البصيرة المهنية لأهل الإعلام.

— سيد بيرتييه، كيف نحافظ على الزخم على المدى الطويل جدًا؟ كيف نتجنب أن نخبو الحركة قبل الحصول على نتائج ملموسة؟

— فرانسواز، لم يعد دورنا أن نحمل شخصيًا هذه المعركة إلى ما لا نهاية. على آخرين أن يحملوا المشعل في مجالاتهم الخاصة. تتجاوزنا الحركة، وهذا خير كثير.

اتجه نحو مكتبته وأخرج ملفًا سميكًا من المراسلات. اتخذت هنا عادته في أرشفة كل شيء معناها الكامل.

— تلقّيت في الأشهر الستة الأخيرة أنظمة أساسية لإحدى عشرة جمعية جديدة أنشئت في بلدان مختلفة لمكافحة النهب تحديدًا. تستلهم

جميعها مباشرة من تجربتنا. تكتسب الحركة استقلالية، لم تعد بحاجة إلينا لتعيش.

شكّل الكشف نقطة تحول. من معركة معزولة لمنظمة غير حكومية إقليمية صغيرة، أصبح الملف رمز ومُحفّز حركة دولية تُحوّل بشكل دائم موازين القوى.

بعد سنتين، في ديسمبر 2032، استطاع بيبير بيرتييه أن يسمح لنفسه ابتسامة صغيرة ساخرة. أثبت تحليله صحته على كل الأصعدة. كانت قضية ماتسوكاتا لا تزال تتعثر في دواليب الأمم المتحدة المثربة. لكن أنتج التسوية الفرنسي الأثر المعاكس لما كان متوقعًا. كلما تباطأت باريس، كلما اتخذ الملف بُعدًا كوكبيًا. في كل مكان في العالم، رأت عشرات المنظمات المُستلهمة من عودة واستعدادات النور. الترسانة نفسها، العزم نفسه لتعقب أعمال نهب أخرى. اتخذت الحركة أبعادًا حتى أن اليونسكو انتهت إلى إنشاء لجنة خاصة دائمة. العنوان الرسمي: «التعويضات الثقافية في العلاقات الدولية المعاصرة».

شارك الأمين العام للأمم المتحدة نفسه فيها، مستحضرًا في خطابه السنوي ضرورة «مصالحة ثقافية دولية». إشارة خفية بالكاد إلى الحركات المُستلهمة من قضية ماتسوكاتا.

سيريت، ديسمبر 2032

في منزله الذي كانت تفوح منه رائحة اللافندر والكتب القديمة، ورغم أن بيبير بيرتييه كان يتذوق انتصاره الأخلاقي، شعر أن وقته ينتهي. كان جسده يخذله، عامًا بعد عام. لكن ذلك لم يكن مهمًا في الجوهر. الحركة التي أطلقها ستبقى بعده إلى حد بعيد. منح له هذا المنظور طمأنينة لم يعرفها قط، هو الذي شكك دائمًا في جدوى معاركه.

أجبرته صحته المتدهورة على إسناد أثقل المهام إلى معاونيه. بقي تأثيره على الحركة كبيرًا — لم يجرؤ أحد على التشكيك في توجيهاته — لكنه شعر جيدًا أنه أصبح تدريجيًا رمزًا أكثر من كونه فاعلاً.

— أصدقائي... قال لهم فيما سيكون آخر تدخل له، ...أنجزنا العمل. توقف وألقى نظرة على نسخة «غرفة آرل» لفان غوخ التي كانت تتربع على جدار مكتبه منذ البداية.

— إذن نعم، ربما يُحكم علينا مجلس حقوق الإنسان بالخطأ. ربما لن نكسب القضية رسمياً أبداً. لكن ليس هذا هو الجوهرى. ما يهم هو أننا أطلقنا شيئاً لا رجعة فيه.

في حدائق سيرريت، تحت شمس ديسمبر التي كانت لا تزال تُدقّى الحجارة، تأمل الأستاذ العجوز المسار المقطوع. لم تستطع الإدارة الفرنسية منع تحول الضمائر. وُلد ميزان قوى دولي جديد. وجد بيرتنيه فيه شكلاً من الإنجاز لم يأمله يوماً في شبابه المثالي.

في مكان ما في القاعات المكيفة لمتحف أورساي، واصلت «غرفة آرل» لفان غوخ شهادتها الصامتة. الآن، كانت تُمثل أكثر بكثير من جمال الفن الخالد. رمزت للصبر اللازم كي تنتصر العدالة في النهاية. لأنه في المعركة من أجل الحقيقة — فهم بيير بيرتنيه ذلك منذ زمن طويل — لا يهم سوى المثابرة والثقة في الزمن.

بعد سنتين، سنة 2034، حين أصدر مجلس حقوق الإنسان أخيراً قراره بعد سنوات من المراوغة، مُدينًا فرنسا فعليًا لانتهاك حق الملكية والحرمان من العدالة، لم يستحوذ الحدث سوى على بضعة أسطر في الجرائد الدولية. أصبحت القضية رمزية إلى حد أن استنتاجها الرسمي كان أقل أهمية من أثرها التحويلي على العقليات العالمية.

لم يعد بيير بيرتنيه موجودًا ليتذوق انتصاره النهائي. توفي بهدوء قبل عام، في نومه، محاطًا بكتبه وملفاته. اضطرت فرنسا، المحاصرة بعد إدانتها الأممية، إلى التفاوض في النهاية. ستعود ست أعمال من مجموعة ماتسوكاتا إلى اليابان، مع احتفاظ باريس بأندر القطع مقابل تعويضات ثقافية ومالية كبيرة. تسوية على الطريقة الفرنسية أُرضت جزئيًا المطالب مع الحفاظ على جوهر المجموعات الوطنية.

اضطرت المتاحف الغربية إلى إنشاء أقسام متخصصة في مسائل المصدر. طوّرت سياسات شفافية غير مسبوقة، تحت ضغط الرأي العام وهذا الجيل الجديد من أمناء المتاحف المُتكوّنين بروح ما بعد ماتسوكاتا.

لم تختفِ الكونية الغربية.

لكنها تكيفت مع متطلبات العدالة المعاصرة واحترام حقوق الشعوب. أثبتت قضية ماتسوكاتا أن رجلاً واحداً، محاطاً ببضعة أوفياء ومُسلّحاً بالحقائق وحدها، يستطيع أن يتحدى أقوى الدول. استمرت المعركة الطويلة من أجل العدالة الثقافية الدولية، محمولة على أكتاف آلاف المناضلين الجدد.

في مقبرة سيريت حيث يرقد الآن بيير بيرتييه، تُذكر لوحة تذكارية بشعاره المُفضّل: «الحقيقة بطيئة، لكنها أكيدة». جسّدت قضية ماتسوكاتا بشكل رائع صحة هذه العبارة. أعطى الزمن الحق للأستاذ الكتالوني العجوز.

خاتمة

هذه الرواية التي تنتهي، المستوحاة من وقائع حقيقية، لكن المنقولة إلى إطار روائي، توضح الآليات المعقدة للنهب الثقافي الحكومي والمسيرة الطويلة نحو العدالة التعويضية. تُكرّم كل من يُناضل بشجاعة، كمنظمة عودة واستعدادات غير الحكومية، من أجل انتصار الحقيقة.

تُثبت قضية ماتسوكاتا، كما رُويت هنا، أن العدالة لا تُقاس فقط بالحصول على استعدادات ملموسة، بل أيضاً وقبل كل شيء بالتحول التدريجي للنقاش العام. أحياناً، طرح الأسئلة الصحيحة بمثابة إثبات أنه أهم من الحصول فوراً على الأجوبة الصحيحة.

عسى هذه الرواية أن تُلهم أعمالاً حقيقية أخرى لصالح العدالة وأن تُساهم في قيام عالم أكثر إنصافاً في مجال الثقافة والفنون.
